مِن بَعيد



طه حسين

دار العلم للملايين

من بعيد

طه حسين

من بعيد

دار العلم للملايين
ص.ب: ١٠٨٥ - بيروت
تلكس: ٢٣١٦٦ لبنان

الطبعة التاسعة
أيار (مايو) ١٩٨٢

مقدمة

هذه فصول متفرقة لا يكاد يجمع بينها الا أنها كتبت من بعيد . كتبت من بعيد في المكان وكتبت من بعيد في الزمان أيضاً . فأكثرها كتب من باريس وبعضها كتب من أقصى الغرب الفرنسي . وبعضها كتب من فينا وقليل جداً منها كتب في القاهرة .

واقدم هذه الفصول عهداً كتب سنة ١٩٢٣ ، وأحدثها عهداً كتب سنة ١٩٣٠ فهي كما ترى جاءت من بعيد في المكان والزمان جميعاً .

وقد يظهر للنظرة الاولى ان بُعد المكان لا يؤثر في كتابة الكاتب ولكنك اذا قرأت هذه الفصول وما يشبهها فستتبين في غير شك أن النأي عن الدار والتنقل في أقطار الغربة يثيران في نفس الكاتب من العواطف والخواطر ما

لا تثيره الاقامة والاستقرار ،وهما يهيئان الكاتب تهيئة خاصة للشعور والحس ، وللتفكير والتعبير ، لا تستقيم له حين يكون مقيماً مستقراً في داره بين اهله ومواطنيه يرى في كل يوم مثل ما كان يراه من قبل لا تكاد تختلف الظروف التي تحيط به الا اختلافاً يسيراً بطيئاً ، لا يكاد يحس .

فليس من شك اذن في أن لبعد المكان اثراً في إعداد الكاتب للكتابة ، أثراً فنياً خاصاً ، غير هذا الأثر الظاهر الذي يراه الناس حين يقرأون ما يكتبه المسافر عما يرى ويشهد من الأقطار .

ومن أجل هذا جمعت هذه الفصول التي كتبت من بعيد في سفر واحد . وقد يظهر للنظرة الاولى أيضاً أن بعد الزمان بفصل من الفصول ، أو كتاب من الكتب لا أثر له في ذلك الفصل أو هذا الكتاب ، ولكن قليلاً من التفكير أيضاً يدل على أن من الخير أن نعود بين حين وحين ، الى ما كنا نكتبه في الاعوام التي مضت ، وبعُد بها العهد لنرى كيف كنا نكتب ، وكيف كنا نحس ونشعر ونفكر ، وكيف أصبحنا نحس ونشعر ونفكر ، وكيف أصبحنا نرى الناس والاشياء . لنتبين في جملة موجزة مقدار ما ادركنا من تطور الحس والشعور والتفكير والتعبير أيضاً . ولست أخفي عليك اني قد قرأت هذه الفصول التي كتبت كلها أثناء ثمانية اعوام ومضى بيني وبين آخرها أكثر من خمسة اعوام في شيء من الحنان الى

تلك العهود التي كنا نشكو فيها المشقة والجهد ونضيق فيها بالحياة والاحياء ، ثم أصبحنا الآن نود لو تعود إلينا أو لو نعود اليها لا ليعود الينا معها الشباب بل لتعود معهـا حياة هي من غير شك خير من الحياة التي نحياها الآن .

كنا في تلك العهود أحراراً نفكر ونقول ، كما نريد ان نفكر ونقول ، كنا نلقى الواناً من المقاومة فلا تزيدنا الا طموحاً الى الحرية وامعاناً فيها . وكنا ننظر الى الجهاد في سبيل الرأي وحرية الرأي على انه حاجة من حاجات الحياة وضرورة من ضرورات الوجود الحر ، فأين نحن من هذا الآن ؟

كنا نشكو احياناً ظلم الحكومات وجنوحها الى الاستبداد ونصرها للجمود ، ولكنا كنا نجد الشعب دائماً مواتياً لنا يمنحنا نصره ، ووده ، وعطفه ، وتأييده . أما الآن فقد اشتد عنف السلطان وأسرف في الشدة حتى اضطر الكتاب والخطباء الى أن يفكروا ويقدروا ، ويطيلوا التفكير والتقدير قبل ان يكتبوا أو يقولوا . وقد وجـد الاستبداد الرسمي المتصل لنفسه أنصاراً وأعواناً من طبقات الشعب لم يكن ليظفر بهم من قبل . فوجدت أحزاب مهـما تكن ضئيلة قليلة الخطر فهي احزاب منظمة تناصر الجور والاستبداد وتدعو الى التأخر والرجوع الى وراء . وليس في هذا شيء من الغرابة فقد كثر الاضطراب في نظمنا السياسية وطال عهد البلاد بحكومات لم تكن تقدر الحق ولا العدل ولا

القانون ، ولم تكن تقصر في التماس الأعوان ولا الانصار، بألوان الترغيب والترهيب . فليس الغريب أن توجد الاحزاب التي تكره النظر الى أمام وتحب النظر الى وراء ، وانما الغريب ألا توجد ، والغريب ايضاً أن تكون من الضعف والضآلة وقلة الخطر بحيث هي الآن .

وكثير من الذين سيقع في ايديهم هذا السفر قد قرأوه حين نشر فصولا مفرقة ولكن كثيراً جداً من الذين سيقع في ايديهم هذا السفر لم يقرأوه ، ولم يعرفوا من فصوله شيئاً . لأنهم كانوا اطفالاً يدرجــون وصبية يختلفون الى المدارس الابتدائية حين نشرت كثرة هذه الفصول ، ثم هم الآن شباب يتمون درسهم الثانوي أو يأخذون في درسهم الجامعي فمن حقهم أن يروا كيف كنا نجاهد الحياة حين كانوا هم يستقبلون الحياة باسمين . فإلى هؤلاء القراء الناشئين اهدي هذه الفصول سعيداً راضياً ، لأنهم سيرون حين يقرأونها أني كنت اتحدث الى الذين سبقوهم بنفس الآراء التي اتحدث بها اليهم الآن . واني كنت أدعو الذين سبقوهم الى نفس المثل العليا التي أدعوهم اليهــا الآن . ولست أدري الى اي حد أتيح لي التوفيق مع الذين سبقوهم ولكن أرجو أن يكون توفيقي معهم أعظم واقوى وأبقى اثراً.

يونيو سنة ١٩٣٥ — طه حسين

القسم الاول

من باريس

١

في السفينة

تحية طيبة زكية اليك أيها القارىء الكريم من كاتب حرم التحدث اليك حيناً . وكثيراً ما نـازعته نفسه الى التحدث فلم يجد اليه سبيلاً .

مرضت أسبوعاً ، وسافرت اسبوعاً ، فلم أستطع ان اتحدث اليك . ولقد كنت الى ذلك مشوقاً . ولم تكن تنقصني الخواطر التي تصلح موضوعاً للأحاديث ، فان المرض والسفر كليهما ممتلئان بهذه الخواطر التي تصلح موضوعاً للنجوى بين الكاتب وقارئه ، ولكني كنت عاجزاً العجز كله عن أن أملي الخواطر او أسطرها ، وأحسب اني لا أزال عاجزاً عن املاء هذه الخواطر او تسطيرها ، لأن بعضها قد ذهب مع المرض والسفر ، فلست أذكر منه قليلاً ولا كثيراً .

ولأن بعضها الآخر قد بقي في نفسي ، ولن يذهب ولن يجد النسيان اليه سبيلاً ، ولكن ليس من سبيل الى املائه وتسطيره لأن الوفاء بحقه ليس بالشيء اليسير .

وكيف أستطيع مثلاً ان أفي لهؤلاء الاصدقاء الكرام البررة الذين عادوني فأحسنوا العيادة ، وودعوني فأحسنوا التوديع ، بما انا مدين لهم به من شكر وثناء . كيف أفي لهم بذلك وهو أجل من ان يفي به كاتب ، وأدق من ان يصل اليه واصف . ولا تظن اني اغلو او اسرف كما جرت بذلك عادة الكتّاب اذا ارادوا شكراً او ثناءً . فأنا أبعد الناس عن الغلو ، واشدهم بغضاً للاسراف ، ويكفيني اذا اردت شيئاً ان أسميه باسمه ، او أدل عليه باللفظ الذي وضع له ، ولكني كنت اريد ان احدثك عما بعثت في نفسي عيادة العائدين ، وتوديع المودعين ، من عواطف مختلفة ، وألوان من الشعور متبـاينة ، تختلف باختلاف العائدين والمودعين ، وما لهم في نفسي من منزلة ، وما لي في قلوبهم من مكانة . ففي ذلك شيء من النفع ، وفيه بنوع خاص شيء من اللذة . ولكن محاولة ذلك شاقة لأن هناك عواطف قد لا تجد لها اسماء ، وضروبـاً من الشعور قد لا تجد لها عبارات تؤديها وتفي بما لها من حق. فليس الناس جميعاً سواء في حبهم لك ، وعطفهم عليك. وليس الناس جميعاً سواء فيما تضمر لهم من حب ، وما تدخر لهم من مودة . واذن فتأثرك بعيـادتهم وتوديعهم

تختلف باختلاف منزلتك في نفوسهم ومكانتهم من قلبك . ولكن هل نستطيع ان تصف ذلك حق الوصف ؟ أم هل تستطيع ان تجهر منه بالشيء الكثير ؟ اما انا فاعتقد ان ذلك على نفعه ولذته محال ، لأن الحياة الاجتماعية وما تواضع الناس عليه في صلاتهم وعلاقاتهم ، تحول بيننا وبين ذلك وتأباه كل الإباء . فلأكتف اذن بما كان ينبغي ان اكتفي به منذ بدأت هذه الكلمة : وبما يكتفي الناس به من تسجيل الشكر والثناء للعائدين جميعاً والمودعين جميعاً دون ان افرق بينهم في اللفظ ، وان اضطررت واضطر غيري من الناس الى التفرقة بينهم في نجوى النفس وحديث الضمير . ولنتحمل اذن ، راضين او كارهين ، هذا الظلم البين الذي تضطرنا اليه حياة الاجتماع ، فليس هو أثقل ما تضطرنا اليه الحياة الاجتماعية من ضروب الظلم والتقصير . ولو أننا ذهبنا نحلل هذه الحياة وما فيها من ظلم وبغي ، ومن افراط وتفريط ، لما انتهينا الى حد ، ولما فرغنا من القول .

ومهما يكن من شيء فان هناك شعوراً لذيذاً لا يستطيع أن يتقيه انسان حساس ، يحدث في نفسك أثناء المرض وأوقات السفر حين ترى من حولك ناساً يعطفون عليك ويرقون لك ، ويؤثرونك بالمودة واللطف. لذيذ جداً هذا الشعور الذي ينبعث في نفسك حينئذ ، فيشعرك بأنك لست وحيداً في الحياة ، وبأن هناك قلوباً قد تخفق مع قلبك ،

ونفوساً قد تشاركك في الألم وتشاركك في اللذة . ولست أعرف شعوراً يفوق هذا الشعور لذةً وحسن موقــع في النفس . والحق أن حظي من هذا الشعور عظيم ، وأن اغتباطي به واستعذابي اياه قد رافقــاني من القاهرة الى باريس فحمدت مرافقتها ، وأنست اليها في أوقات الوحشة.

نعم : في أوقات الوحشة ! فأنت اذا سافرت الى مكان بعيد فعبرت البحر وقطعت الفجاج تحسّ شيئاً من الوحشة غير قليل ، مهما تكن لذة السفر ؛ ومهما يكن اغتباطك بما ستلقى اذا استقر بك المقام ؛ ومهما يكن رفاقك في هذا السفر الطويل اللذيذ . ولقد كــان يرافقني في هذا السفر أحب الناس إليّ ، وأعزهم عليّ ، وأرأفهم بي وأشدهم مشاركة لي في لذات الحياة وآلامها . كانت ترافقني زوج برّة كريمة ؛ وطفلان هما كل ما آمل في الحياة . ومع هذا فقد وجدت شيئاً من الوحشة تسليت عنه بهذا الشعور اللذيذ الذي كان يرافقني ، بذكرى أولئك الأصدقــاء العائدين والمودعين ، بألفاظهم الحلوة ، وعباراتهم التي كانت تمتلىء رفقاً وودّاً وايثاراً .

أعبرتَ البحر؟ أأحسست في السفينة ما أجد من ضروب الحس وما أشعر به من مختلف الشعور ؟ يتحدث الناس بأن الأمد بين مصر وأوربا قصير ، وبــأن عبور البحر لذيذ ، وبأنه أمن لا خطر فيه ، أو لا يكاد يوجد فيه شيء من الخطر ؛ وبأن المسافر ليس عليه إلا أن يركب

السفينة ويستسلم لمـا فيها من راحة ولذة وتسلية ، حتى ينقضي السفر ، ولا سيما اذا كان مثلي لا يخشى الدوار ولا يتعرض لشره . بذلك يتحدث الناس، ولعلهم محقون، بل لا أشك في انهم محقون . ولكني أعترف باني لم أشعر بذلك ولم أحس هذا الأمن وهذه الدعة يوماً من الأيام منذ ألفت عبور البحر، وانما وجدت، ويظهر أني سأجد دائماً الى جانب هذه اللذة التي يحسها من يعبر البحر ، شعـوراً خفياً جداً . لا أقول انه الخوف ولا أقول انه يشبه الخوف، وانما أقول انه يظهر الانسان على قيمته الحقيقية ، وعلى مكانته الصحيحة من هذا الوجود . نعم ليس هذا الشعور خوفاً ، وليس شيئاً يشبه الخوف ، ولكنـه شيء ينبىء الانسان بأنه ضئيل ، ضئيل جداً لا يكاد يذكر ، وبأن حياته شيء أوهن من نسج العنكبوت ، لا قدرة له على الثبات ولا على مقاومة الأحداث . واذا أحس الأنسان أنه ضئيل الى هذا الحد ، وان اسباب حياته واهية واهنة الى هذا الحد ، ملكه شيء من البؤس والاشفاق أحسب أن وصفه عسير .

اضطرب البحر ذات ليلة اضطراباً شديداً ، واصطخبت أمواجه وعصفت الريح ، فكنت لا تسمع إلا هدير البحر، وعصف الريح ، وصوتاً لأخشاب السفينة يشبه الشكوى . وكان السفر نياما . فكنت لا تسمع صوت انسان . وكان هذا المزاج المؤتلف من هذه الأصوات الثلاثة التي ذكرتها

لك وحده يملك عليك سمعك ونفسك ويضطرك الى أن تحلله وتفكر فيه ، والى ان تفكـــر في نفسك وتقيسها الى هذا الروع الذي يكتنفك ، والهول الذي يحيط بك . ولم يكن في نفسي شيء من الخوف ولا من الاشفاق ، لأني اعلم أن ذلك شيء مألوف ، وانك تعبر البحر كما تقطع شارعاً من الشوارع ، ومع ذلك فقد شعرت حقاً في هذه الليلة بأن الانسان ليس شيئاً مذكوراً ، كما أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، وكما أنه لن يكون شيئاً مذكوراً ما دامت الطبيعة على ما هي عليه من القوة والجلال .

في مثل هذا الوقت يذكر المؤمن ربه ويلجـــأ اليه ، ويتقرب اليه بضروب العبـــادة وفنون التقوى . وفي هذا الوقت يؤمن الملحد ان كان ضعيفاً ، ويزداد عتواً إن كان ممعناً في الالحاد ، فيسخر من الحياة كما يسخر من الموت ، يهزأ بما اشتملت عليه هذه ، ويزدري ما عسى أن يخفيه هذا . وأعترف بأني في هذا الوقت أحسست شيئاً قد ينكره عليّ المؤمنون والملحدون جميعاً ، أحسست ان ايمان المؤمن والحاد الملحد ضرب من الكبرياء وغلو الانسان في تقدير نفسه واكبار منزلتها . فان هذا المؤمن الذي يعتقد أن خالق الكون ومديره ، خالق هذا الكون العظيم الذي لا تشعر بعظمته وأنت مستقر في دارك، أو لاه بالتحدث الى رفاقك ، او القراءة في كتابك ، وانما تشعر بعظمته حين لا تسمع الا هديـــر البحر ، وعصف

الريح ، وشكوى السفينة . وحين تشعر شعوراً واضحاً جداً بأن أسباب الحياة ضعيفة واهية ، وبأن أقــل شيء يستطيع أن يحطم هذه السفينة التي تقلك ، وأن يقطع كل ما بينك وبين النجاة من سبب فتصبح نسياً منسياً، كأنك لم تكن قط ، وكأنك لم تعرف أحداً ، وكأن احداً لم يعرفك . اقول ان المؤمن الذي يعتقد ان خالق هذا الكون العظيم ومدبره يختصه،بالبر والرحمة ، فيعني به ويحوطه ويحفظه من الطوارىء ، ويعصمه من الأحداث ، ويرعاه في كل لحظة ، بل في كل جزء من اجــزاء اللحظة ، متكبر يرى نفسه شيئاً مذكوراً يستحق هذه العناية المقدسة العظمى مع أن في هذا الكون ما لا يقــاس الانسان اليه عظمةً وجلالاً .

وهذا الملحد الذي يستشعر الالحاد ويتخذه مذهباً وعقيدة، فيعاند وينازع ويدفع عن الحاده كما يدفع المــؤمن عن ايمانه ، وينكر الله كما يثبته المؤمن ، ويعتقد ان العقل كل شيء ، وان آثار العقل وحدها خليقة بالاجلال والاكبار، وان نجاة الانسان في عبادة العلم والاذعان له ؛ لا في اكبار الدين والخضوع لأوامره ونواهيه . هذا الملحد الذي يمعن في الغرور بقوة العقل والعلم وآثارهما ، وبأنه قد سخر لنفسه الطبيعة فذلل الماء والهواء والبخار واتخذ الطبيعة لنفسه عبداً يأمر فتطيع وينهى فتنتهي ، مغرور متكبر . لأن عقله وعلمه وقوته وذكاءه مهما تبلغ من العظمة والسلطان ، فلن

تستطيع ان تعصمه من الاحداث ، ولا ان تجعله بمأمن من أقل هذه الأحداث خطراً وأحطها مكانة . بهذا شعرت وفي هذا فكرت . وأعترف بأني لم ألم المؤمن على ايمانه، ولا الملحد على إلحاده . وانما أحسست شيئاً من الاشفاق على هذا وذاك . وتمنيت لو أتيح للانسان ان يكون مؤمناً وعالماً دون ان يغلو في التعصب للدين او للعــلم . تمنيت للانسان لو استطاع ان يجمع بين هاتين القوتين اللتين ليس له عنهما غنى ولا منصرف . فان قوة الدين تعصمه من اليأس والهلع وتفتح أمامه أبواباً من الأمل الذي ليس له حد ، وتمكنه ان يلقى الخطوب ويتجشم الأخطار راضياً مطمئناً راجياً مستبشراً . وقوة العلم تمكنه من الحياة . ولكن أيستطيع الانسان حقاً ان يجمع في نفسه بين هاتين القوتين، وأن يطمئن الى كلتيهـــما اطمئناناً بريئاً من التنـــاقض والاضطراب ، يطمئن الى الدين دون ان ينكر العقـــل ويطمئن الى العقل دون ان يجحد الدين ؟

يتحدثون أن كثيراً من العلماء قد وفقوا الى هذا ، وأن « باستور » على جلال خطره وبعد أثره في العلم كان أشد الناس تدينا وأكثرهم ايمانا ؛ فمتى يكثر في الناس أمثال « باستور » ؟

على أن هذا الشعور وما استتبع في نفسي من تفكير أو هذيان لم يكن كل شيء أحسسته في السفينة فقد، كانت هناك أشياء أخرى لا تخلو من نفــع . كان أكثر رفاقنا في

السفينة من الانجليز ، وكنت اجهل الانجليز ، وما زلت أجهلهم ، ولكني كنت أتصورهم قوماً أميـــل الى الجد منهم الى الهزل ، وأميل الى القطوب منهم الى الابتهاج وأميل الى السكون والتؤدة منهم الى الحركـــة والنزق ، ولعلهم كذلك ، ولكنهم لم يكونوا كذلك في السفينة ، فلم أر جماعة أميل الى الفرح وأشد تعلقاً بأسبابه ولا أكثر امعاناً في الضحك وهذه اللذة البريئة من هذه الجماعات الانجليزية التي كانت تملأ السفينة والتي كانت تقضي يومها وجزءا من ليلها في فرح ومرح ونشاط عظيم ، وحسبك أن غرفة المائدة لم يكن يملؤها أثناء الطعام الا قهقهة عالية جدا متصلة جدا لا تعرف الهدوء ولا الانقطاع ، تمتزج فيها أصوات الرجال والنساء امتزاجاً لا يخلو من لذة ولا يعجز عن أن يحملك على الضحك وان كنت أشد الناس جداً وأكثرهم عبوساً .

شيء آخر وجدته في السفينة فأذكرني أول يوم قضيته في فرنسا بل أول ساعة قضيتها في باريس سنة ١٩١٤ ، هذا الشيء أو بعبارة أصح هذا الشخص هو حلاق السفينة، اضطررت الى معرفة هذا الحلاق ، واضطررت طبعاً أيضاً الى أن أسمع لحديث هذا الحلاق ، وأحاديث الحلاقين مشهورة من قديم الزمان وفي جميع البيئات ، في بغداد والقاهرة ، في آسيا وأوروبا ، في العصر القديم والعصر الحديث بالثقل والسخف ، وبأنها مصدر الملل والأذى ؛

ولكني أؤكد لك أن حديث حلاق « الاسفنكس » لم يكن ثقيلاً ولا سخيفاً ولا مملاً ، بل أؤكد لك ان حديثه كان لذيذا ممتعا ، بل أوصيك بـأن تتحدث الى حلاق « الاسفنكس » اذا ركبت « الاسفنكس » .

تحدث اليّ حلاق « الاسفنكس » في سياسة فرنسا وفي سياسة فرنسا من جميع وجوهها : مع ألمانيا ومع انجلترا ، في سوريا وفي الجزائر ، وقارن لي حلاق « الاسفنكس » بين المذهبين الانجليزي والفرنسي في الاستعمار ، وألمّ لي حلاق « الاسفنكس » بطرف من سياسة الأحزاب البرلمانية في بلده ، وكان حـلاق « الاسفنكس » اشتراكياً من الوجهة النظرية ، ولكنه يائس من مذهبه الاشتراكي . فهو كغيره من الناس في الحياة العملية ، وأؤكد لك أني وجدت لذة جديدة عظيمة في الاستماع الى حلاق «الاسفنكس» وذكرت أول خادم فرنسية لقيتها في مرسيليا سنة ١٩١٤ فتحدثت اليّ بما يشبه هذا الحديث ، وتمنيت لو كنا جميعا في مصر كحلاق « الاسفنكس » ! واحسب أنا سنقطع زمنا طويلا جدا قبل أن تصل كثرتنا المطلقة من التعليم والتهذيب الى حيث وصل حلاق « الاسفنكس » .

قرأت في السفينة قصة تمثيلية صغيرة عنوانها « الملك » وضعها الكاتبان الفرنسيان « روبير دي فلير » و «كيافيه» فضحكت لها كثيراً وأعجبت بها كثيراً ، ودعوت بالحياة للحرية كثيراً ، وكنت أحب أن احدثك عن هذه القصة

ولكن أخلاقنا السياسية والاجتماعية لا تسمح بذلك . ومع هذا فليس في القصة شيء غريب وانمـــا يصف الكاتبان زيارة ملك خيالي لمدينة باريس ، ويتخذان هذا الوصف سبيلاً الى تناول النظم السياسية والاجتماعية كلها بأشد النقد شناعة وأكثره مرارة ، يذمان نظام الملكية ، ويذمان نظام الجمهورية ، ويسخران من الديمقراطية كما يسخران من الأرستقراطية ، وكما يسخران مـــن الأشتراكية : القصة هجاء شنيع للجماعة الانسانية في كل مكان وفي كل زمان. وقد اختار الكاتبان باريس موضعاً لهذه القصة لأن باريس تكاد تختصر العالم الانساني على اختلاف أزمنته وأمكنته .

لا أستطيع أن أحدثك عن هذه القصة ولكني أستطيع أن أوصيك بقراءتها . فستجد فيها نفعا وستجد فيها لذة . ثم وصلت الى باريس ، صباح أمس ، فاذا الناس جميعا يلهجون بشيء واحد : تنطق به أفواههم ، وتكتب فيه صحفهم ، لا يلقى أحدهم الآخر الا سأله عنه وتحدث اليه فيه أسفاً مرة أشد الأسف ، معجبا مرة أخرى أشد الاعجاب ، جامعـــاً في أكثر الأحيان بين ذلك الأسف وهذا الاعجاب ، وهو موت الممثلة الفرنسية «ساره برنار» ولكني قد أطلت ، فسأحدثك عن «ساره برنار» في غير هذا المقال .

باريس في ٢٨ مارس سنة ١٩٢٣.

٢

سارة برنار

تركت القاهرة يوم الأربعاء ووصلت الى باريس يوم الثلاثاء ، فاذا الناس يتحدثون بموت « ساره برنار » أو لا يتحدثون إلا بموت « ساره برنار » ، واذا كثير منهم لا يكتفي بالحزن الصامت ، أو الاعجاب المقتصد . بل يتحدث ويشرح ويفصل ، ويروي ما سمع وما رأى ، ويصف ما أحس وما شعر به حين شهد « ساره برنار » تلعب في « ذات الكاميليا » أو في « النسير » او في « المجد » أو في غيرها من القصص ، وربما تحدث عما رأى وسمع من أبهة « ساره برنار » ومجدها وافتتان الناس بها وافتتانها هي بالناس ، وعما كانت تكسب من مال لا يحصى فتنفقه وتستدين ، ثم تكسب فتؤدي الدين ثم

تستدين من جديد . وعما كان بينها وبين كبار الناس وزعمائهم في العالمين من صلات قوية أو ضعيفة ، متينة أو رثة ، وعما قدم اليها الملوك من تجلة ، وأهدى اليها العظماء من تكرمة ، وعن جمالها الباهر ، وصوتها الساحر ، وأعاجيبها وألاعيبها وافتنانها في كل شيء : في الهزل والجد ، في التمثيل والتصوير والنقش والكتابة والعبث ، وعن هذا الضعف الشديد الذي كان يلازم جسمها فيجعل حياتها في أكثر الأحيان معلقة بين اليأس والرجاء ، اقرب الى اليأس منها الى الرجاء ، وهـــذه القوة المدهشة التي كانت تلازم نفسها في كل وقت من أوقاتها ، وفي كل طور من أطوار حياتها فتجشمها الاهوال وتكلفها الأعاجيب، وتثب بها من أوربا الى امريكا والى استراليا ثم الى مصر ، ثم الى فرنسا ، ثم الى السويد والنرويج وغيرها من بلاد الله . وتقف الناس منها موقف الحائرين الدهشين الذين يعجبون ويعجبون الى غير حد ، وهـــم لا يدرون بم يعجبون ؟ بالذكاء النـــادر ؟ بالجمال الباهر ؟ بالصوت الساحر ؟ بالقوة التي لا حد لها ؟ بالأمل الذي لا يخشى اليأس ولا يحسب له حسابا ؟ بالنفس التي ليس لها مثيل.. ؟ بهذا كله كان الناس يعجبون سواء منهم من أحبها ، وسواء منهم من أبغضها . كل بها معجب . وكل لها مكبر في كل وقت وفي كل طور .

بهذا كلـــه كان الناس يتحدثون يـــوم نعيت اليهم

« ساره برنار » . ومن قبل ذلك أنبأتهم الصحف بـــأن «ساره برنار » مشرفة على الموت فجزعوا وهلعوا وأسرعت جماعاتهم المختلفة الى بيت المريضة فازدحمت حوله وامتلأ بها الشارع ، وكان من هذه الجماعات من يتاح له الدخول الى بيت المريضة فيسأل ويستعلم ويكتب اسمه ثم ينصرف، وكان من هذه الجماعات من لا يتاح له هذا الحظ فيرابط في الشارع يتنسم الأنباء ويتصيد الأخبار ، يرى الصحفي فيسأله ، ويلمح الطبيب فيستنبئه ، كذلك قضى جمهور ضخم من أهل باريس يوم احتضار « ساره برنار » ، فلما كان الموت لم يخل الشارع ولا البيت من هذا الجمهور، وانما ازدادا به امتلاءً وازدحاما ، وما هي الا أن جهزت الميتة بجهازها الاخير حتى أُذن للناس فأقبلوا على البيت أفواجا ، وأخذوا يمرون أمام هذه الجثة الهامدة — التي طالما بعثت فيهم الحياة — يوماً كاملاً تم فيه تشييع الجنازة ، فتقول لصحف ان ٦٠٠ الف من أهل باريس اشتركوا فيه ، وان الفين من الشرطة اشتركوا في حفظ النظام ، وان ارصفة الشوارع التي مرت بها الجثة كانت مكتظة بالناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وأسنانهم ، وان الزهر كان ينثر على التابوت من أولئك الذين ثقلت بهم سطوح الدور والحوانيت وامتلأت بهم نوافذها . ولم يكن الشعب وحده المحتفل بتشييع هذه الممثلة وانما احتفلت بـــه الجمهورية وبلدية باريس ، وتنافستا أيها تقوم بنفقات الجنازة . ولم

تكن فرنسا وحدها المحتفلة بتشييع هذه الممثلة ، وانما اشتركت فيه أوروبا وأمريكا، ومن الملوك والملكات من أرسل الى أسرة الممثلة يعزيها ويعطف عليها .

كان هذا كله في الأسبوع الماضي ، وكنت في باريس أسمع الناس يتحدثون به . وأقرأ ما كانت الصحف وما لا تزال تكتب فيه ، فكنت أسأل نفسي الى أي حد يبلغ اعجاب الناس بالنبوغ واكبارهم للنابغين اذا كان هؤلاء الناس من الرقي العلمي والخلقي بحيث يفهمون النبوغ والنابغين .. وكنت أذكر مصر في هذا كله ،وكيف يستطيع مصري ألا يذكر مصر وأهل مصر كلما رأى أو سمع ما يبهره ويسحره ! كنت أذكر مصر وأسأل نفسي : متى يتاح لمصر نابغة « كساره برنار » أو على أقل تقدير متى يبلغ اهل مصر من الرقي العلمي والخلقي ما يمكنهم من ان يقدروا نابغة « كساره برنار » ؟ لم تنبغ في السياسة، ولا في الدين ، ولا في العلم ، وانما نبغت في الفن ، وفي فن هو سيء الحظ جداً عند المصريين .. نبغت في التمثيل الذي يزدريه أكثر المصريين ، ويفهمه قليل من المصريين على غير وجهه ، ولا يفهمه حقا بين المصريين الا نفر يكادون يحصون .

لم أسمع « ساره برنار » ولم يتح لي على طول ما أقمت في باريس أن أحضرها في ملعب من ملاعب التمثيل، فلست استطيع أن أحدثك برأيي فيها ، ولست أستطيع ان

أكون لي فيها رأياً ، ولكني أستطيع أن أحدثك برأي الناس فيها ، وبرأي الناس الذين لا يتهمون ولا تستطيع أنت ولا انا أن نضع آراءهم وأحكامهم موضع الشك .
ولكن من « ساره برنار » ؟ لا يعرف أبوها ، وانما يقولون انها ولدت سنة ١٨٤٤ في باريس او في برلين ، ولا يتفق الذين يقولون انها ولدت في باريس على موضع ميلادها ، بل ان «ساره برنار» نفسها ذكرت لهذا الميلاد موضعين مختلفين ، وتحدثت ان تذكرة ميلادها قد مزقت او ضاعت ، ويقول الناس ان أباها كان هولاندياً اسرائيلياً تنصّر ، ويقول آخرون ان أباها كان فرنسياً عظيماً مشتغلاً بالسياسة الدولية ، ويتفقون جميعاً على ان أمها «جولي برنار» لم تكن تنتسب الى اسرة مستقرة وانما كانت من هؤلاء الناس الرحل الذين يتنقلون من مكان الى مكان لا يستقرون في وطن ولا يطمئنون الى دار . كانت أمها يهودية وكان أبوها مسيحياً او يهودياً تنصّر . وكان اسمها الأول «روزين برنار» ويقال ان أباها النصراني او المتنصر ألحّ في ان تكون تربيتها دينية فنشأت في الدير وتأثرت بحياته تأثراً شديداً حتى أظهرت الرغبة في ان تكون راهبة ولكنها اشتركت في تمثيل قصة دينية مدرسية فأعجب بها أحد من رأوها : «الدوق دي موروني» ، ونصح بأن تتخصص للتمثيل ، وشملها منذ ذلك الوقت بحمايته فذهبت الى الكونسرفتوار Conservatoire (مدرسة التمثيل) ونالت فيه

اعجاب اساتذتها، ولكن فوزها في المسابقة لم يكن باهراً ولا متصلاً. ثم اتصلت بملاعب كثيرة مختلفة فلم تنل من الفوز ما كانت ترجو ، فيئست او كادت تيأس من التمثيل ومن فرنسا .

وليس في هذا شيء من العجب . فأكثر النابغين عرف سوء الحظ قبل ان يعرف المجد ونباهة الذكر . وربما كان من أهم الأسباب التي حالت بين الممثلة وبين الفوز الباهر نفس نبوغها ، فقد كانت لها طريق مختلفة ومذاهب غريبة لم يألفها الجمهور ولم يطمئن اليها . فلم يكن غريباً ألا يشتد اعجابه وتهالكه عليها . على ان «ساره برنار» لم تكد تبلغ الثلاثين حتى كانت عضواً شريكاً في اكبر دار من دور التمثيل في «بيت موليير» ؛ وكانت تلعب القصص المختلفة على تباين عصورها ومذاهبها ، وكانت تبلغ في هذه القصص فوزاً عظيماً في كثير من الأوقات حتى كتب اليها «فكتور هوجو» سنة ۱۸۷۷ يقول : «لقد كنت عظيمة خلابة . لقد أثرت فيّ انا المجهد الشيخ . ولقد كان الجمهور في وقت من الأوقات سعيداً يملؤه الحنان فيصفق ، اما انا فكنت أبكي » .

ربما كان من الحق ان توازن بين «ساره برنار» وبين «السيبياد» الأثيني المشهور ، كلاهما كان فتنة المدينة التي نشأ فيها وكلاهما كان يحب اعجاب الناس به وتحدثهم عنه ، ويتكلف لذلك الأعاجيب ، ويفعل في سبيله ما لا

تبيحه العادة ولا تسمح به الأوضاع المألوفة . يقال ان «السيبياد» كان له كلب فتن الأتينيين فتحدثوا عنه دهراً، فلما انتهى اعجابهم به كفوا عن الحديث فيه فقطع «السيبياد» ذنب الكلب ليعود الأتينيون فيذكروه . وكانت أعاجيب «السيبيباد» ونفقاته اكثر من أن تحصى، وكان لا يتكلف هذه النفقات وتلك الأعاجيب الا ليفتن الناس ويحملهم على اطالة الاعجاب به والتفكير فيه: كان سيء السيرة وكان له زوج برّة شريفة جزعت لسوء سيرته فذهبت الى «الاركون» تطلب الطلاق . وبلغ ذلك «السيبياد» فأسرع الى مجلس «الاركون» فلما رأى زوجه بين يديه انهال عليها لثماً وتقبيلاً وملاطفة وحملها بين ذراعيه وعاد بها الى بيته ، والأتينيون من حوله يصفقون له ويهتفون باسمه وامرأته بين ذراعيه قد رضيت عنه واطمأنت اليه . كذلك كان «السيبياد» ، وكذلك كانت «ساره برنار» . كانت فتنة باريس وكانت تحرص على أن تظل فتنة باريس، فكانت تفعل كل شيء يجعلها حديثاً لأهل باريس .

كانت تملأ غرفتها بالهياكل العظمية وتنام بمنظر من الناس في تابوت مبطن بالحرير الابيض وتستأنس كثيراً من الحيوان الوحشي.. كانت تدهش الناس بأزيائها المختلفة الغريبة، تتخذ زيّ الرجال حيناً ، وبدعاً من ازياء النساء حيناً آخر .. كانت تدهش الناس بأحاديثها ومقالاتها وصورها ، وكانت على اختلاف متصل عنيف مع مدير «بيت موليير»

حتى كان يسميها هذا المدير «الآنسة ثورة»[1].

فلما كانت سنة ١٨٨٠ ضاقت «ساره برنار» بالحياة في باريس وأحست ان هذه المدينة لا تسعها ، بل ان فرنسا كلها لا تسعها فاستردت حريتها وخرجت من «بيت موليير» خروجاً عنيفاً وقفها امام القضاء الذي قضى عليها بغرامة، وسافرت الى لندره ثم الى السويد والنرويج ثم الى امريكا. وكان سفرها الى امريكا فخماً ضخماً كثر حوله الضجيج والعجيج . وقال كثير من مؤرخيها ان كثيراً من الملكات لم تظفر بما ظفرت به هذه الممثلة من الفوز والاكبار في هذه السياحة . ولم تقف اسفارها الى هذا الحد ، بل زارت اكثر اقطارالارض المتحضرة ونالت فيها فوزاً باهراً لم يكن مقصوراً عليها بل كان يتناول فرنسا معها ، ولقد ذهبت في بلاد المجر مرة فرفعت الأعلام الفرنسية في كل مكان ذهبت اليه رغم الأوامر التي صدرت من فينا بحظر ذلك .

ولهذا فتن الممثلون بهذه الممثلة التي كانت احسن سفير نشر الدعوة الفرنسية في اقطار الارض، وأحسن تمثيل العقل الفرنسي والفن الفرنسي والأدب الفرنسي ، حتى قرنها كثير من الكتاب الى نابوليون ، ولست ادري الى اي حد تصح هذه المقارنة ، ولكني لا اشك في ان «ساره برنار» خدمت فرنسا ورفعت ذكرها الى حد لم يبلغه كثير من

١ – انظر مجلة «الالستراسيون» عدد ٣١ مارس سنة ١٩٢٣ .

قوادهـــا الفاتحين .

اما نبوغها الفني فلست استطيع ان احدثك عنه ، وانما اترك ذلك للناقد الفرنسي «جول ليمتر» الذي كان بهـــا مفتوناً والذي يحدثنا بأن مصدر نبوغها وافتتان الناس بها ثلاثة اشياء : صوتها الذي سماه فكتور هوجو ومن بعده الفرنسيون جميعاً : «الصوت الذهبي» يقال انها كـــانت تتغنى في تمثيلها بالنثر والشعر جميعاً ؛ وكانت ماهرة في تصوير صوتها صوراً مختلفة ملائمة ملاءمة غريبة لموضوع الحديث الذي كانت تتناوله ، فكـــان صوتها مرة يشبه الغدير المنساب ، واخرى يتلوى ويتهدج ، ومرة يرتفع ، واخرى ينخفض حتى كان الجمهور معلقاً بهذا الصوت الضئيل القوي الشفاف .

الثاني حركاتها في الملعب ، فقد حدثنا «جول ليمتر» بأنها احدثت في التمثيل ما لم يحدثه احد قبلها ، فكانت تلعب بجسمها كله اي أنها كانت تحقق ما تمثله ؛ فلم تكن تخيل الى الناس انها تلثم او انها تعانق . وانما كانت تلثم وتعانق بالفعل ، وكانت تفعل ما هو أبلغ في الدهشة من اللثم والمعانقة .

الثالث ذكاؤها ، فقد كانت اقدر الممثلين على فهم الفصول التي كانت تلعبها ؛ كانت تفهم هذه الفصول كما فهمها المؤلف ، وربما فهمتها خيراً مما فهمها المؤلف ، ومن هنا خلقت «ساره برنار» كثيراً من القصص ، وكثيراً

من المؤلفين ، ولن يستطيع «فرنسوا كوبيه» ولا « ادمون روستان» أن يستأثرا بما ادركا من فوز في ملاعب التمثيل ، انما «لساره برنار» الحظ الموفور من هذا الفوز .

وانظر الى هذا الوصف الذي نشرته « الألستراسيون » وكتبه «ادمون روستان» فهو وحده يعطيك عنها صورة خليقة بها :

«تقف عربة امام باب ، فتسرع بالنزول منها امرأة قد التفّت في الفرو الكثير ، تشق الجماعات التي اجتمعت حين سمعت جرس عربتها تاركة لهذه الجماعات احدى بسماتها ثم تصعد في خفة سلّماً ملتوية ، وتعبُر على « لوج » مزدهر شديد الدفء ، فتلقي في ناحية حقيبتها ذات الشرائط التي تحتوي على كل شيء ، وفي ناحية أخرى قلنسوتها ، تزينها أجنحة العصافير ، واذا هي قد نحفت فجأة حين خرجت من فروها فما هي الا غمد من الحرير الأبيض ، ثم تقذف بنفسها على ملعب مظلم ، فلا تكاد تصل حتى تبعث الحياة في جماعة ممتقعة تتثاءب في الظلام ، تذهب ، تجيء ، تبعث الحمية في كل ما تمسّ ، تأخذ مجلسها في المخبأ ، تنظم المنظر ، تشير إلى ما ينبغي من الحركات ونبرات الصوت ، تقف ، تطلب الاعادة ، تزأر غضباً ، تجلس ، تبسم ، تشرب الشاي ، تمسح جبينها ، توشك ان يغمى عليها ، تثب فجأةً الى الطبقة الخامسة من الملعب وتظهر لصاحب الازياء مضطربة ، وتبحث في خزائن «الأقمشة» وتؤلـف

الأزياء ، تنظم ، ترتب ، تهبط الى «لوجها» لتعلم النساء اللاتي يظهرن في الملعب كيف ينبغي ان يرجّلن شعورهن، ثم تعيد منسقة طاقات الزهر ، ثم تسمع مائة رسالة وترق لبعض الاستعطافات ، تفتح غالباً حقيبتها الرنانة التي تحوي من كل شيء ، تفاوض حلاقاً انجليزياً ، تعود الى المسرح لتنظم اضاءة منظر من المناظر ، تسب ادوات الاضاءة : تقف عامل الضوء على اساءته ، يمر بها احد العمال فتتذكر غلطة اقترفها امس فتصعقه بسخطها ، تعود الى لوجهـــا لتتعشى . تجلس الى المائدة ممتقعة في جلال، مهيئة ما ستعمل، تأكل في ضحك غريب ، ليس لديها الوقت لتتم عشاءها، تلبس ثيابها للتمثيل بينما يحدثها المدير من وراء ستار الواناً من الأحاديث ، تمثل متهالكة ، تدبر ألــف شيء بين الفصول ، ينتهي التمثيل فتبقى في الملعب لتدبر امرها الى الساعة الثالثة صباحاً ، ولا تعتزم السفر الا حين ترى الناس جميعاً من حولها ينامون وقوفاً احترامـــاً لها ، تصعد الى عربتها ، تتمطى في فروها مفكرة فيما ستجد من لذة حين تستلقي في السرير ، ثم تقهقه لأنها ذكرت ان هناك من ينتظرها في البيت ليقرأ عليها قصة ذات خمسة فصول ، تعود الى البيت : تسمع القصة ، تفتن بهـــا ، تبكي ، تقبلها ، لا تستطيع النوم ، فتنتهز الفرصة لتدرس دوراً من ادوار التمثيل ...» .

كذلك وصفها «ادمون روستان» ، اما أنا فلست ادري

أأعجب بالواصف ام بالموصوف ؟ ! ولكني اعتقد اني بهذه الترجمة السقيمة قد اعطيتك احسن صورة لهذه الممثلة النابغة ؛ ولست أريد ان اختم انا هذا المقال ، وانمـا اريد ان نختمه «جول ليمتر» بهذه الكلمة الحلوة التي كتبها يودع بها «ساره برنـار» وقد اعتزمت احد اسفارها الى امريكا .

«نتمنى لك يا سيدتي سفراً سعيداً ، آسفين اشد الأسف لأنك ستفارقيننا زمناً طويلاً ؛ ستظهرين نفسك هناك لقوم حظهم من الفن والادب قليل ، يسيئون فهمك وينظرون اليك كما ينظرون الى عجل ذي قوائم خمس ؛ ويرون فيك الشخص الغريب الصاخب لا الفنانة الخلابة الى غير حد . قوم لن يقدروا نبوغك الا لأنهم دفعوا ثمناً باهظاً ليستمعوا اليك ، اجتهدي في ان تحتفظي بظرفك وان تعيديه الينـا كاملاً ، فإني آمل ان تعودي، وان كانت امريكا بعيدة الشقة ، وان كنت قد تحملت من الخطوب وتجشمت من الأخطار ما لم تتحمل ولم تتجشم ابطال الاساطير . اذن عودي الى «بيث موليير» واستريحي الى الاعجاب والحب اللذين يدخرهما لك هذا الشعب الباريسي طيب القلب الذي يعفو لك عن كل شيء لأنه مدين لك بكثير من لذاتـه الكبرى ، ثم في مساء لذيذ موتي فجأة على مسرح التمثيل في صيحة هائلة من صيحات الجزع فان الشيخوخة اثقل من ان تحتمليها ، واذا كان لديك من الوقت ما يمكنك

من التفكير قبل ان تنغمسي في الليل الأبدي فاحمدي كما يفعل مسيو « رينان » العلــة الأولى الخفية ، لعلك لم تكوني من اشد النساء في هذا العصر حكمة واعتدالا ، ولكنك عشت اكثر مما عاشت جماعات ضخمة وكنت من اجمل مظاهر الظرف التي اطافت بالناس فأحسنت عزاءهم في هذا العالم المتغير ، عالم الظواهر الطبيعية ..

باريس في اول ابريل سنة ١٩٢٣

٣

بينيلوب

لم يصل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألم

ولكنه لم يكن طيف هند ولا عبده ، لم يكن طيف عربية ولا مصرية ولا اوربية ، وانما كان طيف امرأة بقي اسمها في ذاكرة الانسانية ، وذهبت بشخصيتهـــا الغير والأحداث ، ولعلها لم توجد قط . ولعل التاريخ لم يعرف من أمرها قليلا ولا كثيراً ، ومع ذلك فقد قضيت الليل أفكر فيها بل أسمع الى حديثها ومناجاتها : هادئة مرة ثائرة مرة أخرى ، يملؤها الحنان حيناً ، وتملكها الوحشية حينا آخر . قضيت الليل افكر فيها واسمع لأحاديثها ونجواها حين كانت تتحدث الى خدمهـــا ، وحين كانت تتحدث الى عشاقها ، وحين كانت تتحدث الى مرضع زوجها ، وحين

كانت تناجي الآلهة ، متلطفة آناً ومحنقة آناً آخر . ثم حين كانت تناجي خيال زوجها الغائب وتتحدث الى زوجها وقد آب بعد غياب طويل . قضيت الليل افكر فيها واستمع لحديثها ، وأعجب بقدرة الفن — لا اقول على احياء من مات وتجديد ما اندثر — بل على خلق ما لم يوجد والتخييل اليك انه قد وجد وأثر في الحياة آثاراً أبقى من أن ينالها الفناء . لم يكن هذا الطيف طيف عربية ولا مصرية ولا أوروبية ، وإنما كان طيف يونانية ، كان طيف «بينيلوب» زوج « أوليس » Ulysse بطل « الأودسا » .

سمعتها أمس في دار من دور الموسيقى «في الأوبرا كوميك» Opéra - comique تتغنى عشقها ولوعتها وحزنها لبعد من أحبت وجزعها لقرب من كرهت . ففتنت بها ولم أفارق صوتها ولا عواطفها طوال الليل وجزءا غير قليل من النهار .

لست أدري أقرأت « الأودسا » أم لم تقرأ ، وأنا أسمح لنفسي بهذا الشك لأني أعلم علم يقين وتجربة أن الأدب اليوناني سيء الحظ في مصر ، وأن سوء حظه قد بلغ من الشدة الى حيث لا نستطيع تقديره أو تقدير عواقبه السيئة ، نجهل الأدب اليوناني — لا أقول جهلاً تاماً — بل أقول جهلاً فاحشاً مخزيا لا يليق بقوم يحبون الحياة أو يطمعون فيها : نجهل هذا الأدب جهلاً فاحشاً بحيث نستطيع أن نحصي المصريين الذين يعلمون ما « الأودسا »

وما « الالياذه » ومن « أوليس » ومن « بينيلوب » ، ومع ذلك فقد كانت « الأودسا » و « الالياذة » ومـا زالتا وستظلان دائماً ينبوع الحياة للأدب والفن : للشعر والنثر والنحت والتصوير والتمثيل والموسيقى .. بليت القرون ولم تبل « الالياذة » و « الأودسا » .. فنيت الأمة اليونانية وفنيت الأمة الرومانية واختلفت العصور والظروف عـلى أوربا في العصر المتوسط وفي العصر الحديث ، وستفنى أمم وتختلف عصور وظروف ، وتظل آيات « الالياذة » و « الأودسا » جديدة خالده محتفظة بقوتها وبهائها ورونقها على وجه الدهر وتعاقب الأحداث ؛ ولا نكاد نحن نفترض وجود « الالياذة » و « الأودسا » فاذا افترضنا وجودهما فلا نكاد نعلم بشيء مما فيهما .

الى هذا الحد وصلنا من الجهل بمصدر الحياة للأدب والفن ؛ ويظهر أنا اذا لم نستطع أن نمعن النظر في هـذا الجهل أكثر مما أمعنا فليس وراء هذا الحد مطمع لمن يحب الجهل ويرغب فيه . أقول : اذا لم نستطع أن نمعن في هذا الجهل أكثر مما أمعنا فيظهر أنا لا نريد ولا نحاول أن نخلص منه قليلا او كثيراً ؛ يظهر انا سنظل على ما نحن فيه من جهل الأدب اليوناني والفن اليوناني ، لأنا نرى كل شيء يتغير في مصر ، ونرى الرقي تناول كل شيء الا التعليم ؛ فهو بحمد الله باق حيث كان ، لأن المشرفين عليه لا يفكرون في تغييره ، ولعلهم غير قادرين على ان

يفكروا في تغييره ، سيظل تلاميذنا يخلطون بين اثينا وصقلية كما يخلطون بين الاسكندر وهانيبال .

ولكني بعدت عن هذا الطيف الذي أرقت لـــه آخر الليل بعد أن طربت له أول الليل . . قلت ان «الأودسا» و « الالياذة » كانتا وستظلان ينبوعا للحياة الأدبية والفنية ، فقد ألهمتا شعراء اليونان على اختلاف فنونهم وأساليبهم ، وألهمتا الفنين من اليونان بل ألهمتا فلاسفة اليونان. وكذلك صدر عنهما شعراء الرومان . وكذلك صدر عنهما وما يزال يصدر عنهما شعراء الأفرنج منذ القرن السابع عشر الى ما شاء الله . ولقد كانت القصة الموسيقية التي شهدتها أمس أثراً من آثار « الأودسا » اجتمع فيه جمال الشعر وجمال الموسيقى وجمال الغناء وجمال الفن الآلي في التمثيل فكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع أصوات الآلات الموسيقية وألحانها واختلاف نغمها الذي كـــان يرق حتى لا يكاد يسمع وكان يغلظ حتى يكاد يصم السامعين . وكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع هذه الأصوات الانسانية العذبة الرخيمة تمازج نغم الموسيقى متغنية بهذا الشعر الجميل الرقيق الذي يمثل أرق العواطف الانسانية وأصدقها وأدناها من الوفاء والحب والاخلاص . وكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع هذا كله وتنظر الى مسرح التمثيل فترى هذه الجزيرة اليونانية القديمة كما وصفتها « الأودسا » في جمالها القديم الرائع الذي يزيده بهجة وسحراً ما اتخذ الممثلون

من أزياء وما اصطنعوا من آنية ومتاع . كنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين كنت تسمع ما تسمع وترى ما ترى، ولم يكن ينغص عليك هذه اللذة الا أنها كغيرها من جميع لذات الحياة قصيرة محدودة المــدى لن تتجاوز ساعة أو ساعتين . ذلك فيما أعتقد أخص ما تمتاز به اللذة الحقيقية التي تملك عليك نفسك وعواطفك وتسحرك السحر كله .

تمتاز هذه اللذة بأنك تشعر — حين تشعر بها — بشيء من الحزن يصاحبها ، لأنها ستنقضي بعد حين طويل أو قصير ، وأنت تحب ألا تنقضي ، وأنت تود لو كانت خالدة، أو لو انقضت بانقضائها الحياة .

اشترك في هذه القصة الموسيقي الفرنسي «جبرائيل فوريه» Gabriel Fauré ، والشاعر الفرنسي « رينيه فوشو » Renée Fauchois ، ومثلت منذ عشر سنين فأعجب بها الجمهور، وابتهج لها الناقدون ، ولكنهم لم يجرءوا على أن يحكموا لها أو عليها ، ذلك لأن فيها شيئاً من الغرابة كثيراً . فهي لا تمثل الحياة في عصر نفهمه فهما يسيراً سهلاً . وانمــا تمثل الحياة في عصر بعيد منا كل البعد ، بل لعل هــذا العصر لم يعرفه التاريخ . واذن فليس من اليسير أن يصدق تمثيلها للحياة وليس من اليسير أن نحسها نحن كما نحس الحياة التي نحياها بحيث تتأثر لها نفوسنا ، وتهتاج لهــا عواطفنا ، فتبعث فينا ضروب الاحساس والشعور التي تبعثها فينا الحياة الواقعة .

تردد الناس في الحكم لهذه القصة أو عليها ، ولكن كانت الحرب العظمى فهزت النفوس والعواطف ، وسهلت على الناس فهم هذا الشعر القصصي القديم الذي مثل ما أصاب الانسان من محن فأحسن تمثيله ، وصور ما اختلف على حياة الأفراد والجماعات من أحداث فأجاد التصوير . فلما استؤنف تمثيل هذه القصة لم يتردد أحد ، ولم يشك انسان ، وانما ظهر الاعجاب صريحاً قوياً لا يعدله اعجاب ، فأجمع الناقدون على أن هذه القصة آية من آيات الموسيقى الفرنسية ، وكان يكفي أن ترى الجمهور أمس لتعلم أن الناقدين لم يخطئوا ولم يسرفوا .

عزيز علي أن أجهل الموسيقى ، وأن يضطرني هـذا الجهل الى ألا أتحدث اليك بجمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية . ولكني اذا جهلت الموسيقى وعجزت عـن الحديث فيها ، فأني أحسها واشعر بها واستطيع ان اعلم اني سمعت شيئاً طربت له ، او سمعت شيئاً نفرت منه ، واشهد اني لم انفر امس بل اني لم اطرب امس وانما سحرت سحراً ليس فوقه سحر .. اشهد اني لم اكن اشك حين كنت اسمع هذه الموسيقى اني في جزيرة « ايتاك » واني بمحضر من اولئك الابطال القدماء ، بل اشهد اني حين كنت اسمع هذه الموسيقى لم اكن في حاجـة شديدة الى ان يصف لي واصف ما يمثله المنظر من هـذه الجزيرة المشرفة على البحر التي يغمرها هواء رقيق ناعم شفاف ،

والتي تزدان بكثبانها وتلالها الصغيرة تهبط الى البحر متدرجة قليلاً قليلاً . نعم ، لم اكن في حاجة شديدة الى ان يوصف لي المنظر ، لأن الموسيقى كانت تغنيني عن هذا الوصف فكنت احس في الموسيقى القرب من البحر ، وكنت اسمع في الموسيقى امواج البحر تضطرب وتصطخب رقيقة حينا كأنها حديث العاشقين ، غليظة حينا آخر كأنها قصف الرعد . وكنت اجد في الموسيقى رقة الهواء ونعومته ، وكنت اسمع هذه الموسيقى فلا اشك في ان الجـو كان صافياً رائقاً او انه كان كدرا يهيء للعاصفة . كنت لا اشك في شيء من هذا ، وكنت لا اشك في شيء آخر هو اجل من هذا خطراً واعظم شأنا .. كنت لا اشك في ان هذه القطعة الموسيقية تمثل ما يحدث في نفسي الآن مـن اضطراب العواطف واصطخابها وما يقع بينهما من تنازع ومشادة . وكنت لا اشك في ان هـذه القطعة الأخرى تمثل الضعف الذي ليس بعده ضعف ، تمثل هذا الضعف الذي يسلبك كل قوة على المقاومة ويجعلك غير قادر الا على ان تفتح جفنيك لتسقط منهما قطرات الدمـع متتابعة منهمرة ! وكنت لا اشك في ان هذه القطعة الأخرى تمثل الغيظ والحنق ، هذا الغيظ الذي تنقبض له اعصابك ، فاذا جبينك مقطب ، واذا الدم يغلي في راسك ، واذا انت قد اطبقت يديك ، واذا انت تقاوم هذا الميل الشديد الذي يدفعك الى ان تثب وتهجم على فريستك . لم اكن

اشك في شيء من هذا لأني كنتَ احسه وانتقل فيه من طور الى طور . بل هناك ما هو خير من هذا : هناك هذه القطع الموسيقية التي تبعث في نفسك شيئاً من الحنان والرحمة ومن الطمأنينة والدعة لا استطيع ان اصفه - ولا يستطيع انسان ان يصفه لأن وصفه لم يتح للجمل والألفاظ. وانما أتيح للأنغام والألحان وحدها . ولكني عـاجز كما قلت عن ان اصف جمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية.

أفتريد ان أصف جمالها من الوجهة الأدبية ؟ لقد كنت أحب ذلك وارغب فيه ، ولكن أليس خيراً من هذا الوصف الذي لا يمكن الا ان يكون موجزاً مختصراً أن ترجع الى هذا الجمال في اصله ، وان تستقيه من ينبوعه، فتقرأ النشيد الرابع والعشرين من «الأودسا» !! تجد في هذا النشيد قصر الملك «أوليس» قد غاب عنه صاحبه منذ عشر سنين لانه ذهب الى «ترواده» وانتصر فيها ، فلما اراد العودة الى بلده عبث به وبأسطوله «بوزيدون» إله البحر فأضله الطريق ، وأخضعه لطائفة من المحن . وبينما كان الملك وأصحابه يخضعون لعبث «بوزيدون» وغيره من الآلهة، كانت الملكة «بينيلوب» تنتظر زوجها في لوعة وحسرة . وفي حب ووفاء . وكانت طائفة من زعماء اليونـان قد احتلت قصر الملك واخذت تعبث بما فيه ومن فيه فتأكل شاء الملك وثيرته ، كما تقول القصة ، وتشرب خمره ، وتعبث برقيقه وتلح على الملكة في ان تختار من بينها رجلاً

يكون لها زوجاً فيخلف «اوليس» على مُلك «ايتاك» .

كانت هذه الطائفة تلح وكانت الملكة تقاوم ، فلما اعيتها المقاومة اخذت تراوغ فاعلنت الى هؤلاء الزعماء انها ستختار من بينهم زوجاً اذا فرغت من نسج كفن ، اخذت نفسها بنسجه لأبي زوجها . وقبل الزعماء منها ذلك . فأخذت تنسج الكفن يومها حتى اذا كان الليل نقضت ما ابرمت، ثم تستأنف النسج اذا أصبحت والنقض اذا أمست ، والزعماء ينتظرون ويعبثون بالقصر وما فيه ومن فيه .

فاذا كان الفصل الأول من القصة ظهرت خادمات القصر يغزلن ويتحدثن فيما بينهن ، وحديثهن لذيذ ، فهن يتغنين ما هن فيه من ألم وحرمان ، وهن يتغزلن بجمال الزعماء ، وترغب كل واحدة منهن في واحد منهم ، وهن يرثين للملكة وينكرن عليها غلوها في الوفاء وانهن لفي ذلك اذ يقبل الزعماء يريدون ان يتحدثوا الى الملكة ، وتأبى الخادمات إنباء الملكة بمكانهم ، لأنهن لا يستطعن ان يدخلن عليها الا اذا دعين . وبينما الزعماء في حوار مع الخادمات تقبل مرضع الملك فتمانعهم ، ويكون بينها وبينهم حوار ومسابة ، ثم تقبل الملكة فيشتد الخلاف بينها وبين الزعماء تهينهم وتنعي عليهم وهم يتملقون ويتلطفون بها.. تمانعهم وتأبى عليهم ما يريدون وهم يلحون عليها في ان تسرع فتختار من بينهم زوجاً . ثم يقدم شيخ رث فان يطلب

الصدقة والمأوى ، فينبذه الزعماء وتؤويه الملكـة ، وهذا الشيخ هو «اوليس» قد وصل الى جزيرته وأمرته الالهة «أتينا» ان يتنكر ويحتال في طرد الغاصبين والانتقام منهم، لا تعرفه الملكة ولكن المرضع تعرفه وتعاهده على ان تخفي أمره . وينصرف الزعماء وينصرف الشيخ الى طعامه ، وتبقى الملكة وحدها فتنقض ما نسجت . ولكن الزعماء كانوا قد رصدوا لها فاستكشفوا حيلتها فيغيظهم ذلك ويعلنون الى الملكة ان الغد لن ينقضي حتى تكون قد اختارت لها زوجاً . ثم ينصرفون وتخرج الملكة ومرضع الملك ، لتذهبا الى شاطىء البحر كما اعتادتا منذ سنين ترقبان سفينة ما لعلها تقبل وعلى ظهرها الملك ويتبعهما الشيخ . فاذا كان الفصل الثاني رأيت رعاة الملك يتحدثون فيما بينهم ، ويتمنى بعضهم لبعض ليلاً سعيداً ويتغنون جمال الطبيعة وسحرها. ثم تقبل الملكة ومن معها فيكون بينها وبين الشيخ حديث بديع يظهر فيه ما يضمر الزوجان من حب ووفاء ، ومن لهفة ولوعة ، ولكن الملك يخفي نفسه ، فاذا سئل عـن أمره أخبر بغير الحق واتخذ هذا الاخبار وسيلة الى التغزل بزوجه من طرف خفي ، ولكن في جمال وزقة وحسن مدخل . ثم تجزع الملكة اشفاقاً من غد فيقترح عليهـا الشيخ ان تعلن الى الزعماء انها ستختار من بينهم من يستطيع ان يشد قوس «اوليس» ، ثم تنصرف الملكة ويتعرف الملك بعد ذلك الى رعاته ويأمرهم ان يكونوا في القصر غداً ،

وان يتخذوا السلاح ليعينوه على الانتقام . فاذا كان الفصل الثالث رأيت الملك وحده يتغنى غضبه وسخطه وحرصه الشديد على الانتقام ، ثم يكون بينه وبين مرضعه ورعاته أحاديث قصيرة. ثم يقبل الزعماء وقد تهيئوا للقصف واللهو ، فيسخرون من الشيخ ويريدون طرده ، ثم يبدو لهم فيتخذونه سخرية يسقونه ويضحكون منه . ويظهر الشيخ انه سكران ، وتقبل الملكة فتعلن اليهم أن من شد قوس «أوليس» ورمى عنها فهو زوجها ، فيعجزون جميعاً ويتقدم الشيخ الفاني الى القوس فيشدها ويرمي عنها ولكن في صدر احد الزعماء . هنا يظهر الملك نفسه وينتقم لشرفه وثروته وملكه ، يعينه الرعاة على هذا ؛ ثم تنتهي القصة بمظهر الحب والغبطة بينه وبين الملكة من جهة ، وبينه وبين الشعب من جهة اخرى .

وأنت ترى أن ليس في القصة شيء غريب ، وأنها من السذاجة والسهولة بحيث تلائم القرن التاسع او العاشر قبل المسيح أيام أنشئت «الالياذة» و « الأودسا » ، ولكني اضمن لك لذة عظيمة اذا قرأت هذه القصة ، ولذة لا حد لها اذا قرأتها في . « الاودسا ». فأما اذا شهدت القصة الموسيقية في « الأوبراكوميك » فلست أدري ماذا اضمن لك ، وانما احدثك صادقاً بأني قضيت ليلة سعيدة كنت احسبني اثناءها في

عـالم آخر ، ولم أتنبه الى أني في الارض الا حين سمعت ابنتي تتغنى وتصيح ورأيت ابني يعبث بما حوله وسمعت أمه تزجره وتنهاه .

باريس في ٤ مايو سنة ١٩٢٣

٤

شك ويقين

قوم يشكون فيغلون في الشك ، وقوم يوقنون فيسرفون في اليقين ، واولئك وهؤلاء معرضون للخطأ الشديد ، ومخاصمون للعلم الصحيح .. الشاكون مخطئون ومخاصمون للعلم لأنهم ينكرون انفسهم وينكرون العلم ، والموقنون مخطئون ومخاصمون للعلم لأنهم ينكرون التطور الذي هو قوام الحياة. ولكن اولئك وهؤلاء معذورون لأنهم لا يختارون الشك ولا يختارون اليقين ، وأحسب انهم انما يشكون او يوقنون لأن أمزجتهم قد ألفت بحيث تستتبع الشك او اليقين . بل أحسب أن لما نأكل وما نشرب وما نحس ، بل وللهواء الذي نتنسمه ، والجو الذي نعيش فيه ، والكتاب الذي نقرأه ، والخطبة التي نسمعها ، أثراً فيما يعرض لنا من

شك او يقين

زعم بعض الكتّاب ان أبا العلاء انما شك لأنه اسرف في اكل العدس والزيت ، فساء هضمه ، وتبع ذلك سوء أيه في الحياة . قد يكون هذا حقاً ، وقد يكون هذا باطلاً ، ولكني لا اشك في اننا مدينون بأطوارنا العقلية لهذه المؤثرات الكثيرة المختلفة الّتي تكتنفنا سواء منها المادي والمعنوي .

حدثتك في مقال مضى بهذه المحاورة الّتي شهدتها في المؤتمر حول وجود سقراط والشك فيه ، ولقد قرأت اليوم شيئاً اغرب وأدعى الى العجب من الشك في سقراط.

قرأت ان هناك عالماً فرنسياً من علماء الفلك المعروفين قد كتب في هذه الأيام الأخيرة كتاباً سماه «مملكة السماوات». وفي هذا الكتاب الذي يقال انه ممتع جداً فصل يبحث فيه المؤلف عن حركة الارض ، ويثبت فيه ان من المستحيل أن تثبت بطريقة علمية قاطعة ان الأرض تدور ... اذن فنحن لا ندري من شأن الارض شيئاً . أدائرة هي ام ساكنة ؛ وكل هذه الأدلة الكثيرة المختلفة الّتي جمعها العلماء منذ حوكم «جاليله» Galilée الى الآن ليثبتوا بها ان الارض تدور ، كل هذه الأدلة فاسدة او غير منتجة ؛ بل يذهب الاستاذ «نورمان» Nordmann صاحب الكتاب المذكور ، الى ابعد من هذا جداً ، فيزعم ان دوران الارض شيء ليس الى اثباته او نفيه من سبيل . واذن

فقد قضي علينا ان صحّت آراء الأستاذ «نورمان» ان نجهل ابداً شأن الارض فلا نعلم أساكنة هي ام دائرة. سنقول: واي شيء يصيبنا ان علمنا بأن الارض دائرة او ساكنة او جهلنا دورانها وسكونها؟ ربما لم يصبنا شيء، فسنأكل ونشرب وننام ونستمتع باللذات ونتجرع مرارة الآلام سواء أكانت الارض ساكنة أم دائرة، ولكن: ماذا تقول في اولئك العلماء الذين يبحثون عن العلم للعلم، لا تعنيهم نتائجه العملية، والذين يموت أحدهم غماً اذا ظهر خطؤه في رأي من الآراء او نظرية من النظريات؟!

كنت اقرأ في اعداد «السياسة» الأخيرة محاضرة صاحب الفضيلة استاذنا الجليل الشيخ محمد بخيت في الرد على «نورمان»، فرأيته يبذل كل ما يستطيع من قوة وجهد وينفق علمه الواسع العميق ليثبت ان الاسلام دين العلم، بل ليثبت شيئاً آخر غير هذا وهو ان القرآن الكريم لا يناقض بلفظه ولا بمعناه اصلاً من اصول العلم الحديث، بل هو فوق هذا يشتمل على اصول العلم الحديث. ورأيت الاستاذ يستنبط من القرآن الكريم كروية الارض وحركتها حول الشمس وحول نفسها واختلاف الفصول واختلاف الليل والنهار فأعجبت بهذا الجهد العنيف الذي لا مصدر له الا البر والتقوى. ومن قبل ذلك قرأت اشياء كثيرة للأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله حاول الاستاذ

الشيخ محمد بخيت . والناس في مصر وفي الشرق يعجبون بمثل هذه المحاولة ؛ لأنها تظهرهم في منزلة من الحضارة ليست اقل ولا ادنى من منزلة الأوربيين الذين اخترعوا العلم الحديث . وان كنت انا لا احب هذه المحاولة ولا اتكلفها وربما كرهتها ونفرت منها ، لأنها تفسد النصوص وتحمل على الغلو في التأويل . كنت اذن اقرا محاضرة الأستاذ الشيخ بخيت واعجب بها ؛ فلما قرات ما قرأت اليوم تحدثت الى نفسي بما يأتي :

لو صح ما ذهب اليه الأستاذ « نورمان » وأقره العلماء وأصبح الاجماع منعقداً على أن الارض لا تدور كما كان منعقداً على ذلك منذ قرون وحين أنزل القرآن الكريم ، فأين يذهب هذا الجهد العنيف الذي بذله الأستاذ الشيخ بخيت والأستاذ الشيخ محمد عبده ليثبتا أن القرآن يدل على أن الارض تدور ؟ وهل يبذل الأستاذ الشيخ محمد بخيت وخلفاء الأستاذ الشيخ محمد عبده جهداً عنيفا ليثبتوا أن القرآن يدل على ان الارض لا تدور ؟ واذن فكيف نستطيع أن نفهم دلالة القرآن على أن الأرض تدور وعلى أن الارض لا تدور ؟

ليس هناك من شك في ان المسلمين في العصور الأولى كانوا يعتقدون أن الأرض لا تدور ، وأن القرآن يدل على انها لا تدور . لأن الاجماع كان منعقداً يومئذ على انها لا تدور ؛ ثم جاء علماء أوربا وشياطينهم فزعموا أن

الأرض تــدور ، وكانت حرب بينهم وبين عامة الناس وزعماء الديانات ، ثم انعقد الاجماع على أن الأرض تدور، وجاء قسيس من دعائم « الفاتيكان » الذي حكم عــلى « جاليله » فجمع أدلة لا تحصى على أن الارض تدور ، ثم جاء الأستاذ « نورمان » وشيطانه فزعما لنا ان الأرض قد لا تدور ، وربما جاء العلماء وشياطينهم فأقروا صاحبنا وشيطانه على أن الأرض لا تدور أو على أنه من المستحيل أن نجزم بأنها تدور أو بأنها لا تدور ، واذن ! واذن فما قيمة الشك وما قيمة اليقين ومــا قيمة العلم وما قيمة النص وما قيمة التأويل ؟ أليس من الخير ألا نغلو في الشك ولا نغلــو في اليقين ؟ أليس من الخير أن نكتفي بالترجيح ؟ ثم أليس من الخير ألا نحمل نصوص القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية أوزار الشك وأوزار اليقين وهذه النتائج الكثيرة المختلفة المضطربة المتناقضة التي تنشأ عن أمزجتنا المختلفة المضطربة المتناقضة والتي تنشأ عمــا نأكل وما نشرب وما نرى وما نسمع وما نحس ؟ أليس من الخير ان نجعل القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية في حصن مقدس منيع لا تصل اليه أبخرة العدس والفول والزيت والطعمية وغير ذلك مما نأكل لنهضمه مرة ولا نهضمه أخرى ، وينشأ عن سهولة الهضم وعسره حسن تفكيرنا أو سوؤه ، اللهم اني أعتقد أن الأرض قد تدور وقد لا تدور ، وأنها قد تكون كرة أو سطحاً أو كمثرى،

وأن الزمان قد يوجد وقد لا يوجد ؛ وأن المكان قـد يوجد وقد لا يوجد وان « نيوتن » «Newton» قـد يصيب وقد يخطيء ، وأن « انشتين » Enstein قد يحق وقد يبطل . كل هذا ممكن ولكن هناك شيئاً لا أحب أن يحتمل أوزار هذا الامكان وهذا التناقض وهذا التردد ، وهو القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية . انا لنحسن الاحسان كله اذا رفعنا الدين ونصوصه عن اضطراب العلم وتناقضه فماذا يرى العلماء ؟

باريس في ٢٧ ابريل سنة ١٩٢٣

٥

العلم والثروة

في مصر أغنياء كثيرون ، ولكن معظمهم أشد بؤسا من الفقراء المعوزين ، لأنهم لا يفقهون الثروة ولا يقدرونها، ولا يفهمون ما ينبغي أن توجد هذه الثروة من صلة بينهم وبين مواطنيهم . وهم أغنياء ، وكل حظهم من ثروتهم أن يأكلوا كثيراً ، ويستمتعوا بلذات مادية لا تتجاوز الحس الى القلب ، أو الى العقل . ثروتهم مقصورة على أجسامهم، فان وصلت الى نفوسهم فهي لا تمس منهـا الا موضع الضعف والغرور ، تمس الفخر والتيـه ، تمس العجب والخيلاء ، لكنها لا تمس الذكاء ، ولا تمس عاطفـة الرحمة بالبائس ، ولا تمس عاطفة الاعانة على الخير .

في مصر أغنياء كثيرون ، ولكنهم أشد بؤسا من الفقراء

المعوزين . لا ينتفعون بثروتهم أحياء . ولا ينتفع الناس بثروتهم بعد موتهم . هم لا يملكون الثروة وانما يحملونها على ظهورهم ، لينقلوها من جيل الى جيل . يحملون الثروة عن آبائهم لينقلوها الى أبنائهم . ليعبروا بها النهر ، وكثيراً ما تنوء بهم هذه الثروة فتغرق ويغرقون معها ، . ولا يظفر أبناؤهم منها الا بالتعس والبؤس وسوء الحال .

في مصر أغنياء كثيرون ، ولكنهم في الحق معوزون !

وفي أوروبا أغنياء ، ولكنهم أبعد الناس عن الفقر . وادناهم الى الغنى حقاً ، لأنهم يفهمون الثروة ، ويحسنون الانتفاع بها في حياتهم الخاصة ، وفي حياة أممهم ومدنهم وقراهم وأسرهم . فهم يتمتعون بالثروة حقـاً ، يجنون منها لذة الجسم ، ولذة القلب ، ولذة العقل . بل يجنون منها اللذة الصحيحة في الحياة وتخليد الاسم بعد الموت . ينفعون وينتفعون ، ليسوا عالةعلى قومهم ، وليس قومهم عليهم عالة . انما هم يفهمون أن الثروة اداة من أدوات المنفعة العامة المشتركة التي ينبغي أن يستمتع بها الناس جميعاً ، كل على القدر الذي يتاح له . هم يملكون الثروة ويحسنون التصرف فيها ، لا يشترون بها الطعام والشراب واللباس فحسب ، وانما يشترون بها أيضاً الحب والعطف والاجلال وحسن الأحدوثة في الحياة وبعد الموت . ليسوا أنعاماً ينقلون أثقال الثروة من جيل الى جيل ، وانما هم ناس يملكون الثروة ويستثمرونها فيفيدون ويستفيدون . ليسوا عبيداً للمادة ،

وانما هـم سادتها ، يملكونهـا ويسخرونها لحياة الانسان والترفيه عليه .

اقرأ في جريدة « الطان » أن رجلاً اهدى الى جامعة باريس عشرة ملايين ، لاقامة حي خـاص يسكنه الطلبة الذين يدرسون في هذة الجامعة ، بحيث يتاح لهؤلاء الطلبة ان يعيشوا في منازل صحية يجدون فيها ما يمكنهم مـن الدرس النافع بين ضروب الراحة والنعيم . واقرأ في جريدة « الطان » ان امرأة اوصت بثروتها كلها لجامعة باريس وثروتها تكاد تبلغ الخمسة عشر مليونا . واقرأ في جريدة « الطان » ان هذه المرأة قبل ان تموت أهدت الى كثير من الجامعات مقادير مختلفة من المال وانها اهدت مرة الى جامعة باريس مقداراً من المال تنفقه في طبع الرسائل التي يقدمها الطلبة الفقراء لنيل الدكتوراه . واهدت مرة اخرى الى جامعة باريس ما يمكنها من انشاء درس لادب القرن الثامن عشر وتاريخه . وأن امراة اخرى اهدت الى جامعة باريس ثروة تغل عليها (٣٥,٠٠٠) فرنك في السنة لترقية البحث عن « الراديوم » في الطب . وان رجلاً ترك لها نصف مليون . وان استاذاً في مدرسة ثانوية ترك ثروته التي تبلغ (٧٦,٤٠٨) فرنكات لاعانة طلبة التاريخ الحديث؛ وان امراة تركت مليوناً لاعانة المؤرخين على بحثهم التاريخي. واقرا في الصحف المختلفة ان دور التمثيل والموسيقى ومنازل اللهو واللعب قد خصصت جزءاً من دخلها في يوم مـن

الأيام لاعانة العلماء على تأسيس المعامل العلمية المختلفة . بل اقرأ ما هو أغرب من هـــذا . اقرا تعاون الفقراء والمعوزين وافتنانهم في جمع المقادير المختلفة من المال لاعانة العلماء على تأسيس المعامل وتكميلها . واقرأ في الوقت نفسه مقالات طويلة مرة ملؤها السخط والغضب والغيظ ، لأن العلماء يشكون فقر المعامل ونقصها ويستعينون الجمهور فلا يعينهم ولا يمنحهم من المال ما ينبغي ان يمنحهم . هذا الجود وهذا البذل اللذان اشرت اليهما في اول هـــذه الكلمة لا يرضيان ولا يقنعان ومع ذلك ففقر العلم في فرنسا اضافي جداً لأن الدولة والأفراد والجماعات يخصونه بعناية عظمى ، وآية ذلك ما وصلت اليه فرنسا من الرقي العلمي الذي لا يزال مطمح امم كثيرة في اوربا بعد .

كتبت في غير هذا المقال منذ اشهر ان العلم مهما اشتد غناه وعظمت ثروته فهو فقير محتاج الى المعونة. لأنه يحيى ، وحاجـــة من عاش لا تنقضي ، فسيظل العلماء يشكون وسيظل الناس يبذلون . هـــذا في فرنسا ، أما في مصر فالثروة كثيرة ضخمة تنوء بالأغنياء ، ولسنا نستطيع ان نذكر فقر العلم او حاجته الى المعونة لأنـــا لا نستطيع ان نذكر العلم في مصر ، فليس لمصر علم وانما هي في علمها عالة على اوربا وامريكا تستعير منهما كل شيء ، وهي لا تحسن الاستعارة ولا تستطيع ان تستعير منهما ما هي في حاجة اليه او جزءاً موفوراً مما هي في حاجة اليه ، لأنها

لا تجد من المال ما يمكنها من ان تستعير هذا المقدار العلمي الذي هي محتاجة اليه لتعيش ، اما اذا احتاجت الى السيارات والدراجات والحلي وفاخر اللباس وبديع الأداة والآنية ، فما اكثر المال وما ايسر البذل : هنا تظهر ثروة الأغنياء ويظهر سخاؤهم فتكثر في مصر هذه الأدوات المختلفة التي يفيد قليلها ويضر كثيرها . نعم ، نحن اغنياء اجواد اذا احتجنا الى متاع الدنيا ، فأما اذا احتجنا الى غذاء العقل والقلب ففقرنا لا يعدله فقر . هناك علوم مزهرة في اوروبا وامريكا ونحن لا نسمع بها في مصر ، اما لأننا لا نحاول ان نسمع بها ، واما لأننا نضع اصابعنا في آذاننا حتى لا نسمع بها فنحتاج الى ان ننفق المال في جلبها الى بلادنا . ولكني واثق بأن لونا من الــوان البدع في الحلي او الملابس او السيارات او الأزرار لا يكــاد يظهر في باريس او في نيويورك حتى نسمع به ، ونرغب فيه ، ونتهالك عليه . والنتيجة اننا في حياتنا الظاهرة كأرقي الشعوب مدنية وحضارة ، وربما كنا افخر لباسا وزينة من اغنياء باريس ونيويورك ولندرا فاذا رآنا الأوربي خيل اليه اننا ناس مثله نلبس كما يلبس بل خيرا مما يلبس ، ونزدان كما يزدان بل خيراً مما يزدان ، ونتصرف في فنون الحياة المادية كما يتصرف بل خيرا مما يتصرف . يحسبنا مثله اذا رآنا ولكنه لا يكاد يمتحننا ويخبرنا حتى يشعر بأن وراء هــذه الزينة وهذه المظاهر الفناء او شيئا يشبه الفناء ، وماذا تريد من قوم

يجلبون من اوروبا كل ما ييسر عليهم الحياة المادية ويمكنهم من الاستمتاع بلذاتها المادية ، فاذا ذكر العــلم والأدب والفن هزوا الرؤوس والأكتاف ، بل هم يفعلون شراً من هذا ، فالعلم في بلادهم ولكنهم يعمون او يتعامون عنه ، لا يرونه ولا يشعرون به ، ويحســه الأوربيون والأمريكيون على بعد الشقة فيسعون اليه ويحملونه الى بلادهم حتى اذا نبه منا نابه فأحس كما يحس الناس ، واشتاق الى ما يشتاق اليه الناس ، واراد ان يكون مصرياً يعرف مصر كما يعرف الفرنسي فرنسا ، اضطر الى ان يبحث عن مصر في باريس او لندرا او برلين ، يا للخزي ! بل قد يحتاج الى ان يبحث عن مصر في أثينا !!!

لقد قلنا هذه الاشياء وقلناها وسنقولها ونقولها : فلم يحفل بنا احد ولن يحفل بنا احد ، اللهم الا جماعة الراغبين اليائسين وهم قليلون ، فاما القادرون على ان ينفعوا، فاما القادرون على ان يفيدوا بلادهم فهم عن النفع والفائدة في شغل . وما أنت والعلم تحدثهم به وتثقل عليهم فيه وهم ارغب في هذا المتاع الباطل الذي يبهر العين ويخلب النظر ويحمل فلاناً على ان يقول : لقد رأيت سيارة فلان فأعجبتني ولأشترين مثلها ، رأيت ثوب فلان فراقني ولأصنعن مثله ، فأما ان يقول الناس : لقد رأينا عالماً مصرياً او اديباً مصرياً او فنياً مصرياً يروقنا ان يكون لدينا مثله : فذلك شيء لا يخطر لأغنيائنا على بال ، ولقد اكتب هذه الكلمة وانا

أثق الثقة كلها بأن كثيراً من اغنيائنا سيقرءونها وينالون كاتبها بالسخط والنعي لأنه يحدثهم بما لا خير فيه .

لدينا جامعة أنشئت منذ خمس عشرة سنة ، ولولا لطف الله بها لماتت ، على أنها ليست بعيدة من الموت ، ولقد أظهر اغنياؤنا ميلاً شديداً الى تأييد هذه الجامعة واعانتها، لأن ذلك كان بدعاً يومئذ وكان فيه فخر للباذلين ، فلما انقضى البدع هبطت الرغبة ، وفتر الميل ، وحبس الذين بذلوا المال اموالهم فلم يعطوا ولم يفوا بما وعدوا ان يعطوا. لاتذكر الحرب فان الحرب لم تسيء الى مصر ، ولم تنزل الفقر بأهلها ، ولقد اساءت الحرب الى فرنسا فزعزعت ثروتها وخربت جزءاً عظيماً منها ، بل زعزعت نظامها الاجتماعي فلم يزدها ذلك الا حباً للعلم وتشجيعاً للعلم واعانة للعلماء . ولم يضع عليها من ذلك شيء فقد اتاح لها العلم ان تنتصر ، اما اغنياؤنا فقد ضاعف الله عليهم ثروتهم اضعافاً مضاعفة ، فلم يزدهم دلك إلا ضناً وحبساً للمال عن وجوه الخير ، وتهالكاً على اللذات المادية . والحكـــومة والأفراد في ذلك سواء فلست انسى الوزارة النسيمية الأولى وما انفقت من المال لاصلاح سيارات الحكومة فقد كان ذلك يكاد يبلغ نصف المليون من الجنيهات ، اما الجامعة فكانت الحكومة تعينها بألفي جنيه قبل ان تبلغ ميزانيتها عشرين مليوناً ، فبلغت هذه الميزانية اربعين مليوناً ولم تزد اعانة الجامعة وانما انذرت الجامعة مرات بقطع هذه الاعانة!

وكانت وزارة الأوقاف تمنحها معونة قدرها خمسة آلاف جنيه ايام النظام القديم فلما اقبل النظام الجديد نقصت هذه الاعانة حتى بلغت ١٨٠٠ جنيه . ولست أدري أفتقرت وزارة الاوقاف ولعل افتقارها كافتقار الحكومة المصرية ؟ ثم نحن نطلب الاستقلال ، نزعم ان ليس بيننا وبين اهل اوربا فرق ، وان من حقنا ان نستمتع بنظام الحياة الذي يستمتعون به ، وقد يكون هذا حقاً ولكن يجب أن نعترف بأن اهل اوربا وامريكا لم يصلوا الى حياتهم الراقية الحرة بالتهالك على السيارات والحلى وملابس الحرير وما يشبهها وانما وصلوا اليها بالتهالك على العلم والرغبة فيه ، يجب ان نحمد الله على ان الدستور قد صدر فلئن يئسنـــا من الحكومة ومن الافراد فلن نيأس من الأمة ممثلة في البرلمان، ويقيننا ان هذا البرلمان لن يغفر في المستقبل لوزارة المعارف مثل هذه الأغلاط المنكرة ، لن يغفر لوزارة المعارف ما وصلت اليه حال التعليم في مصر من ضعف وفساد ، ولن يغفر لوزارة المعارف ان تظل مصر من الجهل والضعف بحيث توجد علوم لا تسمع بها مصر ولا يأخذ المصريون منها بنصيب .

باريس في ١١ مايو سنة ١٩٢٣

القسم الثاني

أسبوع في بلجيكا

١

مؤتمر العلوم التاريخية

كنا ألفا أو نزيد على الألف ، كلنا يعنى بالتاريخ او فن من هذه العلوم والفنون التي يحتاج اليها التاريخ ، وقد اجتمعنا من اطراف الارض على اختلاف اوطاننا ، واديانانا ، ولغاتنا ، ومناهجنا في الحياة ، لا يجمع بيننا الا شيء واحد ، هو اننا نشتغل بالتاريخ او بفن يتصل بالتاريخ .

كنا ألفا او نزيد على الألف ، وكنا مختلفين مؤتلفين ، مفترقين متفقين ، ولقد اريد ان احدثك عن هذا المؤتمر ، ولقد اريد ان احدثك عن هذا الاسبوع الذي قضيته في بلجيكا ، ولكني لا ادري كيف احدثك ، لأني لا ادري كيف ابدأ الحديث .

في نفسي اشياء كثيرة ، كثيرة جداً ، اريد ان اتحدث بها اليك ، ولكني اشعر بشيء من الاضطراب في تنظيم هذه الأشياء الكثيرة وترتيبها وتقديم بعضها على بعض ، كل هذه الاشياء خليقة ان تقال ، وكل هذه الاشياء جليلة الخطر ، فلأتحدث اليك كما تلهمني المصادفة على غير نظام . وفي غير ترتيب .

اشعر بأن كثيراً من المصريين سيسخرون من التاريخ والمؤرخين ومن المؤتمر والمؤتمرين ، لأن التاريخ ليس من هذه العلوم التي تظهر فائدتها في الحياة العملية اليومية ، وليس من العلوم التي تعين صاحبها على ان يفلسف كما يقتضي العصر الذي نعيش فيه ، وانما هو علم متواضع يزيد في تواضعه انه قد نزل في هذا العصر الحديث عن ميزة قديمة كانت ترفع شأنه وتعلي مكانته ، ذلك ان الناس كانوا يتخذون الماضي وسيلة الى فهم المستقبل ، او بعبارة اوضح وسيلة الى الاستعداد للمستقبل ، وكانوا يتخذونه وسيلة الى فهم الانسانية وتفسير ما في حياتها من غموض ، فكان التاريخ يختلط بالفلسفة او كان التاريخ فناً من فنون الفلسفة ، وكان الناس يعتقدون ان له فائدة عملية لانه يعين على حسن الاستعداد للحياة ، وكانوا يعتقدون ان له فائدة عقلية لانه يعين على فهم الحياة ، فكانوا يكلفون بالتاريخ ويتهالكون عليه ، وكانت للتاريخ مكانة عليا بين العلوم ، وكانت للمؤرخين مكانة عليا بين العلماء .

ولكن التاريخ تواضع ونزل عن هاتين الميزتين، وأصبح لا يزعم لنفسه الفضل في حسن الاستعداد للمستقبل ولا يزعم لنفسه القدرة على حل ألغاز الحيـاة ، بل اصبح التاريخ يحذر الناس من تلك الاساليب القديمة التي كانت تقيس غداً الى أمس وتفسر اليوم بما وقع منذ قرون ، اصبح التاريخ يحذر الناس من هذه الاساليب القديمة ويسخر من اولئك الذين يبحثون عن الثورة الفرنسية وما احدثت من من نظم في السياسة والاجتماع في تاريخ اليونان والرومان، ثم يرثي لأولئك الفرنسيين الذين خدعتهم هذه الاساليب في اواخر القرن الثامن عشر فظنوا انهم يحـيون بثورتهم الديمقراطية اليونانية او نظم السياسة الرومانية ، واتخذوا لهذه النظم اسماء اقتبسوها من تاريخ آثينا وتاريخ روما . اصبح التاريخ ينكر هذه الاساليب ويحذر الناس منها ويسخر من المستمسكين بها ، بل اصبح التاريخ ينكر فلسفة التاريخ ويقنع بشيء واحد متواضع ، ولكنه جليل الخطر ، وهو الوصول الى استكشاف الحقائق التي وقعت في المـاضي استكشافاً علمياً صحيحاً معتمداً على البحث لا على الفلسفة.

فهو كالكيمياء لا يزعم لنفسه القدرة على تحويـل المعادن وايجاد الذهب ، وانمـا يزعم لنفسه البحث عن الحقائق من حيث هي حقائق لا اكثر ولا أقل .

الى هذه المنزلة وصل التاريخ ، فما اسرع ما زهد فيه الناس ورغبوا عنه ، ولا سيما في مصر . ولقـد اذكر

حديثا طويلاً جرى بيني وبين أحد المصريين الأذكياء ، كان ينكر فيه قيمة التاريخ وكانت حجته في هذا الانكار أن التاريخ لا يفيد فائـــدة عملية ولا يمكّن الناس من أن يكسبوا حياتهم أو يرفهوا هذه الحياة . أذكر هذا الحديث وأحاديث أخرى فأشعر بأن ناساً كثيرين في مصر سيسخرون من التاريخ ، ومن مؤتمر التاريخ . ولكني اؤكد لك ايها القارىء أني لا أسخر من هذا ولا ذاك ، وانما أكلف بالتاريخ ، وأعجب بمؤتمر التاريخ ، وأرجو أن يكلف كثيرون بالتاريخ ، ولكننا قد نصل الى هذه المنزلة يوم نشعر بأن العلم يجب أن يطلب لأنه علم لا لأنه يمكنك من أن تعيش أو من أن تعيش عيشة مترفة .

لا أسخر من التاريخ ، وفي الارض ناس كثيرون لا يسخرون من التاريخ . فقد حدثتك في اول هذا المقال بأننا كنا ألفا او نزيد على الألف ، وكنا من جميع أقطار الأرض . ولم يكن منا من يسخر من التاريخ . ولقد كان الذين نظموا المؤتمر ودعوا اليه في دهش وحيرة لا حـــد لها . كانوا لا يطمعون في ان يبلغ عدد المؤتمرين خمسمائة فاذا عدد المؤتمرين قد تجاوز الألف ، كانوا يطمعون في ان يستجيب لهم الناس من اطراف الأرض ، وإنما كانوا ينتظرون أن يستجيب لهم أهل أوربا الغربية ، وأهل امريكا الشماليه ، فاذا القارات الخمس يستجبن لهذه الدعوة . واذا البرازيل والهند واستراليا ومصر وأفريقيا الجنوبية وأوربـــا

الشمالية والصين واليابان والروسيا ترسل من يمثلها في هذا المؤتمر . وأحب أن تلاحظ ان المانيا لم تستطع ان تشترك في المؤتمر لأنها لم تـدع اليه ، وان الروسيا لم تستطع ان تشترك في المؤتمر كما ينبغي لأنها لم تدع ، وانما اشتركت في المؤتمر الجماعات الروسية المتفرقة في انحاء اوربا . وان النمسا اعتذرت عن الاشتراك في المؤتمر لأنهـا لم تجد من المال ما يمكنها من ايفاد من يمثلها ، ومع هذا كله فقد بلغ هذا المؤتمر الخامس من الفوز ما لم يبلغه مؤتمر تاريخي من قبل . زاد عدد اعضائه على الألف وزاد عدد الخطب التي ألقيت فيه والمذكرات التي قدمت اليه على ثلثمائة . ولم يستطع المؤتمر أن يجتمع للاشتراك في البحث والمناقشة انما اضطر ان يوزع العمل ويقسم نفسه اقساماً بلغت ثلاثة عشر قسمـاً . اضطرت أقسام كثيرة الى ان تقسم نفسها وتوزع العمل فيما بينها فانقسم بعضها اربعة اقسام . ولم يكن من الممكن لعضو من اعضاء المؤتمر ان يتتبع العمل في المؤتمر وانما كان كل عضو مضطراً الى أن يتتبع العمل في القسم الذي هو فيه ، وربما أباح احدنا لنفسه ان يترك قسمه ليسمع خطبـة او مذكرة تلذه او تعنيه في قسم آخر ، فيفعل ذلك كارها لأنه يترك في قسمه خطباً ومذكرات كان يود لو يستمع لها ، ولقد كان أعضاء المؤتمر يلتقون فيسأل احدهم صاحبه : هل قدمت الى المؤتمر شيئاً ؟ نعم في موضوع كذا . فيجيبه هذا شيء لا يحتمل ! لقد كنت

اريد ان اسمع لك ولكني شغلت في قسمي بموضوع لم يكن بد من الاستماع له ، اما انا فضيق الصدر ، فقد فاتتني خطبة فلان ومذكرة فلان . وماذا تريد أن نصنع ؟ وقد ابت الطبيعة ان تستطيع تعديد اشخاصنا والاستماع في وقت واحد لكل ما نحب ان نستمع له .

وكان المؤتمر يفكر في طبع ما سيلقى فيه من الخطب او يقدم اليه من المذكرات فألفى نفسه امام مشكلة مالية لا قدرة له على حلها . وحسبك انه كان يلقى في الساعة الواحدة وفي اكثر من عشرين غرفة اكثر من عشرين خطبة . وكنا في هذا المؤتمر كالتلاميذ في المدرسة ، نجتمع في الساعة التاسعة صباحاً فما نزال مجتمعين الى الظهر ، ثم ننصرف للغداء ونعود في الساعة الثانية فما نزال مجتمعين الى الساعة الخامسة . فاذا كانت الساعة الخامسة انصرفنا الى زيارات واستقبالات قد نظمت في القصر مرة وفي البلدية مرة اخرى وعند وزير المعارف مرة ثالثة ، وفي المتاحف والمجامع العلمية مرة رابعة بحيث كان من المستحيل ان يفكر العضو في شيء غير المؤتمر واعمال المؤتمر اذا كان عضواً مخلصاً في عمله معنياً بفنه حقاً . وهنا يجب ان الاحظ ان الأعضاء لم يكونوا جميعاً على حظ واحد من الاخلاص للفن والعناية به . وذلك شيء حسن في نفسه فحسبك ثلثمائة خطبة او مذكرة وما استتبعت من البحث والمناقشة ، ولو ان الأعضاء جميعاً

خطبوا او قدموا المذكرات او اشتركوا في البحث والمناقشة لما انتهت اعمال المؤتمر في اسبوع او اسابيع .

كثير من الأعضاء اقبـــل ليسمع ويرى ،ويتعرف الى المؤرخين على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم . وكثير منهم اقبل للرياضة والسياحة ، واتخذ المؤتمر تعلة لما كان يريد .

كثيرة جداً الفوائد المختلفة التي تنتجها مثل هـــذه المؤتمرات ،فلست اذكر الفائدة الأساسية التي يستفيدها علم التاريخ وانما اذكر فوائد اخرى غير هذه ليس بينها وبين التاريخ صلة . فيكفي ان تكون فطنا دقيق الملاحظة لتجد لذات متنوعة في ملاحظة هؤلاء الناس المختلفين في الوطن والجنس والطبيعة والمزاج وما لكل واحد منهم من عادة او خلـــق او مزية او نقيصة . والحق اني قد استفدت كثيراً من الوجهة العلمية التاريخية ولكني مع هذا ضحكت كثيراً وسخطت كثيراً ، فقد كان حولي من الناس مـــن يضحك كما كان حولي منهم من يبعث السخط ، ولكني سأحدثك عن هذا كله في مقال آخر بعد ان اقص عليك طرفاً من اعمال المؤتمر .

باريس في ١٦ ابريل سنة ١٩٢٣ .

٢

لا اذكر ما كان يضطرب في نفسي من خواطر الأسى والاعجاب ومن عواطف الأسف والأمل اثناء الطريق بين باريس وبروكسل حين كنا نعبر هذه البلاد التي دمرتها الحرب تدميراً فلم تذر فيها شيئاً الا أتت عليه. والتي كان اهلها مشردين في اقطار فرنسا ، يتكلفون الوان المشقة ، ويستجدون ضروب الاحسان : ليستقروا بعد تشريد وليشبعوا بعد جوع ، فأصبحت هذه البلاد ، ولما تمض على الحرب اعوام ، عامرة ومزدهرة مستكملة او آخذة في استكمال وسائل الحياة العاملة المنتجة الناعمة المترفة . كنت آسف وكنت آمل ، كنت آسى لقسوة الانسان على الانسان ، وكنت اعجب بقدرة الانسان على اصلاح ما افسدت يد الانسان . ولكني لا اريد ان اذكر ذلك او اطيل فيه ، وانما احدثك بما وجدت حين وصلت الى مدينة بروكسل

ظهر الأحد ٨ ابريل .

كان البرد شديداً ، وكانت تعصف في المدينة ريح قوية مثلجة ، ولكن المدينة كانت هائجة مائجة ، او بعبارة اصح كانت فرحة مرحة ، كان الناس يتغنون ويضحكون ويفتنّون في اللذات البريئة . فكنت لا تسمع الا اصواتاً صافية مجلوة ، تنبىء بألفاظ الهناء والسرور . وكنت لا ترى الا اعلاماً منشورة تعبث بها الريح ، كنت لا تسمع ولا ترى الا شيئاً يسر ويرضي ويبعث البهجة في النفوس. كان اهل بلجيكا ذلك اليوم في عيد . كانوا يحتفلون بميلاد الملك ألبير ، لم يكن احتفالهم رسمياً فحسب ، لم يكن مقصوراً على قصر الملك ودواوين الحكومة . لم يكن احتفالاً تراد به المجاملة ، وانما كان احتفالاً حقا . كانت القلوب تحتفل بالملك ألبير . وكانت الألسنة تنطلق بما يملأ القلوب من فرح . وكانت الوجوه تصف ما يغمر النفوس من ابتهاج . وكانت هذه الجماعات المختلفة التي تنطلق في الشوارع منها ما ينشد النشيد البلجيكي ، ومنها ما يتغنى « بالمرسيلييز » ومنها ما يتغنى بأحدث الأغاني الباريسية التي تتردد في « مونمارتر » . اقول كانت كل هذه الجماعات آية ساطعة على ان البلجيكيين يحبون ملكهم ويعجبون به ويحتفلون ببلجيكا الناهضة حين يحتفلون بعيد ألبير . لأن البير يمثل في نفوسهم هذا الوطن الذي تألم وأهين ولقي ضروب الذلة ثم انتصر وثأر لنفسه،وهو الآن

ينهض ويستأنف الحياة قوياً نشيطاً كأقوى وانشط ما كان قبل الحرب .

نعم : كانت هذه الجماعات آية بينة على ان البلجيكين يحبون ملكهم ويرونه رمز آلامهم وآمالهم حقاً ، ومهما انس فلن انسى جماعة من الرجال والنساء صادفناها في احد الشوارع ، وقد تبادلت القلانس فلبس الرجال قلانس النساء وليس النساء قلانس الرجال وامتلأ الشارع بهم حتى وقف الترام وانقطعت الحركة وهم يتغنون : « اصعد فوق ! اصعد فوق ! فسترى مونمارتر » .

« وكن واثقاً جداً بأنك سترى شيئاً جديداً » .

« من فوق اذا كان الجو صحواً فسترى من باريس الى شارتر » .

« اذا كنت لم تر هذا فاصعد فوق ؟ اصعد فوق فسترى مونمارتر » .

بذلك كانوا يتغنون وكانت تقطع هذا الغناء من وقت الى وقت قهقهة عالية تصعد في السماء وتحملها الريح وتفرقها في انحاء المدينة . وانهم ليمضون كذلك واننا لنتبعهم واذا الغناء قد انقطع واذا الأصوات قــد خفتت واذا الرؤوس حاسرة واذا جلال مهيب قد انبسط على هذه الجماعات الفرحة ، واذا صمت رهيب يشعرك بأن هناك شيئاً جديداً . بأن هناك شيئاً مقدساً ..

كان هناك شيء جديد مقدس . كانت الجماعة قــد

وصلت الى عمود المؤتمر وهو الذي اقيم سنة ١٨٣٠ حين استقلت بلجيكا وصدر دستورها ، وهو الذي يظل قبر الجندي المجهول الذي اتخذ رمزاً لما قدمت بلجيكا من ضحايا في الحرب الماضية . وصلت الجماعة الى هذا العمود ، فتبدل فرحها ومرحها اجلالاً وتقديساً لرمز الاستقلال ورمز الجهد الوطني !

وما اشك ان هؤلاء الناس الذين كانوا يجلون استقلالهم ويقدسون رمز ضحاياهم ، كانوا يذكرون في هذه اللحظة نفسها مع الاجلال والاكبار الملك البر الذي جاهد وتألم واحتمل كل ما يمكن ان يحتمله الملك المخلص للدفاع عن وطنه اولاً وعن عرشه ثانياً ! في هذا اليوم عرفت قيمة ما يمكن ان يوجد بين الشعوب والملوك من صلات الحب والمودة والعطف .

الحب وحده مصدر هذا الابتهاج والاجلال ، فليس الملك البر مستبداً ولا راغباً في الاستبداد . وليس الشعب البلجيكي خانعاً ولا مستعداً للخنوع ، ولعل الذين قرأوا تاريخ بلجيكا يعلمون ان الصلة بين البلجيكيين وملوكهم قائمة على ان الملوك يتلقون سلطانهم من الشعب ، فهم نوابه وممثلوه ، لا سادته وزعماؤه . ومالي اذهب بعيداً وقد افتتح المؤتمر التاريخي يوم الاثنين ٩ ابريل بمحضر من الملك والملكة وولي العهد والبرنس شارل واخته البرنسيس ماري جوري ، فلما قدم رئيس المؤتمر الى الملك والملكة

والأمراء تحية المؤتمر ذكر الديمقراطية ورقيها في بلجيكا واقتناع الملك بأن لا رقي للشعوب ولا استقرار للعروش الا اذا كانت الديمقراطية الصحيحة الواسعة اساس الصلة بين الشعوب والعروش فصفق الناس جميعاً وابتسم الملك والملكـــة .

باريس في ١٧ ابريل سنة ١٩٢٣ .

٣

قلت في اول هذه الفصول : ان كثرة اعضاء المؤتمر من جهة ، وكثرة مواد العمل من جهـــة اخرى ، قد اضطرتا المؤتمر الى ان يقسم نفسه الى لجان . ولست أرى بأساً من ذكر هذه اللجان ليرى المشتغلون بالتاريخ في مصر كيف يتصور علماء اوربا التاريخ وكيف يقسمونـــه الى أقسامه المختلفة .

انقسم المؤتمر الى ثلاث عشرة لجنة وهي :

١ — تاريخ الشرق .

٢ — تاريخ اليونان والرومان .

٣ — تاريخ العصر البيزنطي .

٤ — تاريخ القرون الوسطى .

٥ — التاريخ الحديث والتاريخ العصري ، وهذه اللجنة تنقسم الى أربع لجان جزئية :

الأولى : لجنة التاريخ الحديث التي ينتهي عملهـــا الى

الثورة الفرنسية .

الثانية : لجنة التاريخ العصري الذي يبتدىء عملها من الثـورة .

الثالثة : لجنة تاريخ القارة الامريكية .

الرابعة : لجنة تاريخ الاستعمار والاستكشاف .

واحب ان تلاحظ ان هذين القسمين الأخيرين – تاريخ القارة الامريكية وتاريخ الاستعمار – لم يستقلا بالبحث وتخصص العلماء؛ الا في هذه السنين الأخيرة . وهما يوشكان ان يصبح كل واحد منهما قسماً مستقلاً استقلالاً تاماً عن غيره من بقية اقسام التاريخ .

٦– التاريخ الديني ،وهذه اللجنة تنقسم الى لجنتين جزئيتين:

الأولى : لجنة تاريخ الديانات من حيث هي؛ أي من وجهتها الفكرية والعملية .

الثانية : لجنة تاريخ الكنيسة ، وهي تنقسم الى لجنتين تبحث الأولى عن تاريخ الكنيسة منذ نشأتها الى آخر القرن الثاني عشر . وتبحث الثانية عن تاريخ الكنيسة منذ أول القرن الثالث عشر .

٧ – تاريخ الحقوق ، وهذه اللجنة تنقسم الى لجنتين:

الأولى : لجنة تاريخ الحقوق في العصر القديم .

الثانية : لجنة تاريخ الحقوق في القرون الوسطى وفي العصر الحديث .

٨ – التاريخ الاقتصادي .

٩ ـ تاريخ الحضارة ، وقد انقسمت هذه اللجنة الى ثلاث لجان :

الأولى : لجنة تاريخ الحضارة في العصر القديم .

الثانية : لجنة تاريخ الحضارة في القرون الوسطى وفي العصر الحديث .

الثالثة : لجنة تاريخ الطب .

١٠ ـ تاريخ الفن والآثار ، وتنقسم الى لجنتين :

الأولى : لجنة تاريخ الفن .

الثانية : لجنة الآثار .

١١ ـ المناهج التاريخية والعلوم المتصلة بالتاريخ ، وقد قسمت هذه اللجنة الى لجنتين :

الأولى : لجنة مناهج البحث التاريخي .

الثانية : لجنة العلوم المتصلة بالتاريخ كعلم النقوش والخطوط ، وما الى ذلك .

١٢ ـ لجنة البحث عن مصادر تاريخ العالم اثناء الحرب العظمى .

١٣ ـ لجنة المحفوظات ونشر النصوص التاريخية .

وكان المنظمون للمؤتمر قد خصصوا له قصر المجامع العلمية ، فظهر ان هذا القصر على سعته وكثرة غرفه أضيق من ان يسع هذه اللجان واضطر المنظمون الى ان يقرروا لجاناً كثيرة في مواضع مختلفة قريبة او بعيدة من قصر المؤتمر .

وكانوا قد اجمعوا ان يفتتح المؤتمر بعد ظهر الاثنين ٩ ابريل وان يشرع في اعماله بعد ذلك . ولكـــن كثرة الأعمال وكثرة ما كان يجب ان يلقى من الخطب ويقدم من المذكرات ، اضطر المؤتمر الى ان يبدأ في عمله قبل ان يفتتح رسمياً . فاجتمعت اللجان وبدأت بسماع الخطب والمذكرات صباح الاثنين ، اي قبل ان يفتتح المؤتمـــر رسميـــاً .

وكنا قد ذهبنا يوم الأحد الى سكرتارية المؤتمر فوجد كل منا طائفة من الاوراق تنتظره . وقد كتب عليها اسمه. وهذه الاوراق عبارة عن برنامج اعمال المؤتمر ومختصر ما كان قد قدم من المذكرات وبطاقات الدعوة الى القصر ، وعند وزير المعارف ، وفي الجامعة ، وفي البلدية ، ثم بطاقة شخصية تثبت ان صاحبها عضوٌ في المؤتمر ، ثم علامة من المعدن يعلقها العضو في صدره ليتميزه الناس ، وليستغني بها عن اظهار بطاقته كلما اراد ان يدخل داراً من دور المؤتمر .

وعلمنا حينئذ اننا سنبدأ أعمالنا صبـــاح الاثنين قبل الافتتاح الرسمي ، فلما كان يوم الاثنين ذهبنا جميعاً الى الاماكن التي خصصت للجان التي يجب ان يشترك فيها كل منا . ذهبت الى لجنة المحفوظات ونشر النصوص التاريخية. وفي هذه اللجنة قدمت مذكرتي صباح الاثنين ، وكان موضوعها « نص معاهدة دفاعية هجوميـــة » عقدت سنة

٦٩٢ للهجرة (١٢٩٢ للمسيح) بين الملك الأشرف خليل ابن قلاوون وابن جايم الثاني ملك أراجون وأخويه وصهريه. وكلهم ملوك لاسبانيا المسيحية . وجدت نص هذه المعاهدة العربي في الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى ، وفي هذا النص اضطراب كثير ، وضروب من التحريف غريبة ، فكنت امام صعوبتين : الاولى تصحيح هذا النص وتقويم ما فيه من الاضطراب والتحريف ، الثانية اثبات ان هذا النص صحيح من الوجهة التاريخية ، وان هناك معاهدة عقدت حقـاً بين مصر واسبانيا المسيحية في ذلك العصر .

وقد وفقت الى تذليل هاتين الصعوبتين بواسطة استكشاف النص او الترجمة الاسبانية اللاتينية لهذه المعاهدة التي لم يكن نصها العربي معروفاً للمؤرخين قبل اليوم . ولم يكن هذا البحث يسيراً ولا سهلاً . فحسبك ان القلقشندي الذي روى نص هذه المعاهدة عن كتاب لابن المكرم سماه «تذكرة اللبيب ونزهة الأديب» قد روى هذا النص دون ان يفهم قيمته التاريخية، بل دون ان يفهمه بوجه ما، فحرّف وبدل ولم يصف المعاهدة الا بأنها حسنة الانشاء . وحسبك ان أسماء الملوك والبلاد كانت من التحريف بحيث كان يكفي ان تقرأها لتشك في صحة المعاهدة . فملك أراجون جايم الثاني يسمى في المعاهدة «دون حاكم» ولفظ حاكم لفظ عربي خالص لا يمكن ان يكون اسماً لملك مسيحي من ملوك اسبانيا،

وتحريفه ظاهر سهل ولكن بشرط ان تصـــل الى اصله المسيحي . ولست ادري على من تلقى تبعة هذا التحريف، أعلى المؤلف أم على الناسخ أم على المصحح ؟ ولكني اعلم أن هذا الكتاب الجليل الذي سأخصه بفصل او فصلين لو انه صحح تصحيحاً علمياً متيناً ، وأشرف على طبعه ناس يتقنون هذا الفن ويلمّون باصوله وباللغـــات الاجنبية ، ويستطيعون ان يتصرفوا في هذه اللغات كتابة وترجمة ، لخرج من المطبعة الأميرية نافعاً حقاً ميسّراً للباحثين ، من المصريين وغير المصريين ، سبل البحث عن التاريخ . ولكن الذين اشرفوا على طبع هذا الكتاب على حسن نيتهم واتقانهم للغة العربية وما اليها ، وتصحيح الحروف ، يجهلون التصحيح العلمي وما يحتاج اليه من بحث وتنظيم جهلاً تاماً . وهم الى ذلك لا يعرفون لغة اجنبية ، واحسب انهم لم يدرسوا التاريخ ولا يستطيعون التصرف فيه ولا تأول نصوصـــه وتفسيرها . ولهذا كان نفع الكتاب قليلاً وعسيراً جداً بنوع خاص . وحسبك انك لا تجد فيه ثبتاً بأسماء الاشخاص والأمكنة ، فأنت مضطر الى ان تقرأ الكتـــاب كله او تتصفحه على أقل تقدير لتعرف : أألم الكتاب بالموضوع الذي تبحث عنه ام لم يلم ؟ ومع هذا فأنا اعتقد ان هذا الكتاب انفع كتاب تاريخي طبع باللغة العربية، لمن اراد ان يدرس النظم السياسية في البلاد الاسلامية عامة وفي مصر خاصة ، ولمن اراد ان يدرس العلاقات الدولية بين المسلمين

من جهة، وبينهم وبين غيرهم من جهة اخرى . ولكن ضبح الأعشى أنساني ما كنت فيه من قصص المؤتمر .

سمعت في هذه اللجنة يوم الاثنين مذكرة قدمها احد المندوبين «لتشيكوسلوفاكيا» عما كان من تبادل المحفوظات الرسمية بين النمسا و«تشيكوسلوفاكيا» بمقتضى معاهدة سان جرمان بعد الحرب العظمى ، ودارت حول هذه المذكرة مناقشة قيّمة اتخذت اللجنة بعدها قراراً لو عمل به لاستفادت منه مصر . وخلاصة هذا القرار ان المحفوظات في كل بلد تتبع هذا البلد فهي حق من حقوقه لا يصح ان يعتدي عليه معتد بحكم الفتح او بأي سبب آخر . وانما يجب ان تبقى هذه المحفوظات ملكاً للبلد ، الذي هي فيه . وليس يتناول هذا القرار المحفوظات التي تمس الادارة والشئون السياسية وحدها ، وانما يتناول المحفوظات جميعاً ادارية كانت او سياسية او فنية او علمية ومهما يكن تاريخها .

أقول لو عنيت الدول بهذا القرار الذي اتخذه العلماء لاستفادت مصر فائدة عظيمة جداً ، فنحن نعلم ان من حقنا ان نطالب تركيا وانجلترا بمحفوظات كثيرة نقلت الى قسطنطينية والى لندرا في عصور وظروف مختلفة . ولعلك تعلم ان من يريد ان يدرس التاريخ السياسي الدولي لمصر في القرن التاسع عشر مضطر الى ان يذهب الى لنـــدرا ويراجع محفوظات كثيرة في وزارة الخارجية الانجليزية . وهناك اشياء نجهلها وقد نعلمهـــا في يوم من الايام حين

نُعنى بمحفوظاتنا السياسية والإدارية عناية علمية . ولعلك تعلم أن من يريد أن يدرس التاريخ السياسي والعلمي والأدبي لمصر أيام المماليك مضطر الى أن يختلف الى مكاتب القسطنطينية ، وأن دار الكتب المصرية أوفدت منذ حين سماحة السيد محمد البيلاوي ليستنسخ في مكاتب القسطنطينية كتباً عربية كثيرة . ولعلك لم تنس أن الترك حين فتحوا مصر حملوا الى قسطنطينية كنوزها العلمية والأدبية والفنية. فمن هذه الكنوز ما تبدد . ومنها ما لا يزال محفوظاً في القسطنطينية . ومن الحق أن يعود هذا كله الى مصر . ولكن أتظن ان قراراً يتخذه العلماء يستطيع ان يؤثر في رجال السياسة سواء اكانوا من الانجليز ام من الترك ؟

ثم كانت الساعة الثالثة بعد الظهر فافتتح المؤتمر رسمياً . اكتظت غرفة الاحتفالات في قصر المجامع العلمية بأعضاء المؤتمر ، واقبل الملك والملكة والأمراء فافتتح المؤتمر وقدم رئيسه التحيـة الى الملك والملكة كما ذكرت في الفصل الماضي . وهنا لا استطيع أن اخفي ابتهاجي حين سمعت لفظ مصر يذكر في كلمة التحية . فقد كنت ثاني اثنين مصريين حضرا المؤتمر . وكان الآخر جورج أفندي قطاوي العضو بالبعثة السياسية المصريـة في باريس . كان يمثل الجمعية الجغرافية الملكية . وكنت المصري الوحيد الذي يلبس الطربوش . ولم اكن اعلم بحضور مواطني في هذه الجلسة فكنت اشعر بالغربة حقاً . فلما سمعت لفظ مصر

يذكر في تحية الملكة ، بمناسبة زيارتها الأخيرة ، أحسست شيئاً من الأبتهاج والحنان . ولعلي لا اغلو اذا قلت اني احسست شيئاً من الكبرياء ايضاً .

لِمَ اخفي عليك الحق ؟ كنت قبل هذه السياحة في بلجيكا مقتصداً كل الاقتصاد في الافتخار بمصريتي اذا تحدثت الى الأجانب او جمعتني وايـاهم المجامع . ذلك لأني اشعر دائماً بما نحن فيه من ضعف ونقص قبل ان اشعر بما كان لنا من مجد وبما يدخر لنا الزمان من رقي . أستحضر دائماً ضعفنا ونقصنا الاجتماعيين ، كما استحضر دائماً ضعفي ونقصي الشخصيين . فأتواضع في الحديث واقتصد في الفخر . ولست أدري أمزية هذه أم نقيصة ، ولكني اعلم ان هذا خلق من اخلاقي .

أما الآن وقد زرت بلجيكا ، وتحدثت الى هؤلاء الناس المختلفين . وسمعت ما ذكرتْ وما تذكر به مصر . وعرفت رأي كثير من هؤلاء الناس في مصر . فقد اشعر بأن من حقي او من الحق عليّ الا اسرف في التواضع والا اغلو في الاقتصاد اذا ذُكرت مصر وذكر المصريون . ذلك ان رأي الأجانب في مصر حسن جداً . ولا سيما اذا كان هؤلاء الأجانب بعيدين عن السياسة واوزارها .. نعم ، رأي الاجانب في مصر حسن لأنهم يفهمون مصر خيراً ممـا نفهمها، يقدرون مجدها القديم لأنهم يفهمونه حقاً، ويقدرون مركزها الحديث لأنهم لا يتعصبون لمذهب سياسي ولا

يميلون مع الهوى الى حزب من الاحزاب .

يجب أن أعترف بالحق لأهله . يجب ان اثني علـى ثروت باشا وعلى تصريح ٢٨ فبراير وعلى اعلان الاستقلال في ١٥ مارس . فالناس في مصر يزدرون هذا كله ، ويسخرون منه ، ويرون أنّا غير مستقلين . وقد يكون من الحق أنا غير مستقلين بالفعل وأنّا لن نستقل بالفعل إلا يوم يجلو الأنجليز . ولكن من الحق ايضاً ان الأجانب الذين لا يشتغلون بالسياسة والذين يشتغلون بها ينظرون الى مصر كما ينظرون الى انجلترا . أي انهم يعترفون بأن مصر مستقلة كما ان انجلترا مستقلة وكما ان بولونيا مستقلة ، وهم يعجبون بمصر قديمها وحديثها . يعجبون بقديمها لأنه خليق بالاعجاب . ويعجبون بحديثها لأنه يدهشهم ويملك عليهم أهواءهم ، ولقد سمعت اكثر من عشرين اجنبياً منهم البلجيكي والفرنسي والبولوني والأمريكي يذكرون مصر الحديثة فيعجبون بها لأنها تتطور في سرعة مدهشة . ولأن نهضتها الحديثة فذة في التاريخ .

سمعت اسم مصر اذن فابتهجت وامتلأ قلبي حناناً وشعرت بشيء من الكبرياء ، لأني كنت او لأن طربوشي كان رمزاً لمصر بين هذه الرؤوس الحاسرة التي كانت تزيد على الألف .

ولكني بعـدت عن المؤتمر وغلوت في الاستطراد . وبماذا تريد ان أحدثك عن هذه الجلسة الرسمية ، التي هي

كغيرها من الجلسات الرسمية : ثناء على الملك والملكة . وتحية من الحكومة البلجيكية للمؤتمر . ثم خطبة مطولة من رئيس المؤتمر ألمّ فيهاببحث تاريخي قد اذكره في غير هذا الفصل ، ثم تلاوة قرارات اتخذت لحسن نظام الأعمال ، ثم ينصرف الأعضاء . اتصلت هذه الجلسة ساعتين . وسمع الملك والملكة والأمراء كل ما قيل وانصرفوا مع الناس دون أن يظهر عليهم ملل او ضجر . اكانوا حقاً مغتبطين بهذا الحديث الطويل الكثير الثقيل على آذان الملوك ؟ أم كانوا مجاملين ؟

باريس في ١٨ ابريل سنة ١٩٢٣ .

٤

كان لذيذاً جداً ذلك اليوم الثاني من أيام المؤتمر . كان لذيذاً وكان مفيداً . لم نكد نبدأ اعمالنا في ذلك اليوم حتى سمعت في لجنة المحفوظات مذكرة نافعة قدمها مدير المحفوظات في بلجيكا عن نظام ادارة المحفوظات ، وما يجب ان يتخذ من ضروب الحيطة ، حتى لا تضيع هذه المحفوظات ولا تتعرض للخطر . وسأحدثك عن هذه المذكرة في مقال آخر أصف فيه دار المحفوظـــات في بروكسل وألم فيه بالموضوع الماما مفيدا .

سمعت هذه المذكرت ثم تركت لجنتي وذهبت الى لجنة أخرى مجاورة هي لجنة تاريخ الحضارة في العصر القديم ، او بعبارة أصح لجنة التاريخ العقلي في العصر القديم . في هذه اللجنة كان ينتظرني دهش عظيم ولذة اعظم . لأني سمعت محاورة ما كنت اظن اني سأسمعها في يوم من الأيام.

وكانت هذه المحاورة بين عالمين خطيرين : احدهما فرنسي والآخر بلجيكي . كان موضوع هذه المحاورة غريباً ، وكانت المناقشة فيه حادة طويلة ، حتى صرفت اللجنة عن اعمالها صباح الثلاثاء . ذلك ان احد الفلاسفة البلجيكيين الأستاذ « دوبريل » ألّف منذ حين كتاباً في تاريخ الفلسفة اليونانية ، وزعم في هـــذا الكتاب ان البحث التاريخي الصحيح ينتهي بالباحث الى ان سقراط شخص خرافي لم يوجد ولم يعرفه التاريخ ، وان خلاصة حكم التاريخ فيه كخلاصة حكم التاريخ في هوميروس . كلاهما شخص آمن به القدماء واظهر التاريخ انه لم يوجد قط ، وكلاهما شخص اتُّخذ رمزاً لنوع من الآداب ، فاتخذ هوميروس رمزاً لكل الشعر القصصي الذي عرفه اليونان وتناقلوه قبل القرن السابع ، واتخذ سقراط رمزاً لهذه الفلسفة التي عرفها اليونان وافتتنوا فيها منذ اواخر القرن الخامس وطول القرن الرابع قبل المسيح .

اعترف باني دهشت الدهش كله حين قرأت عنوان هذه المحاورة قبل الذهاب الى المؤتمر . فما كنت اظن ان وجود سقراط يصل في يـــوم من الأيام الى ان يكون موضوع بحث ، فضلاً عن ان يكون موضوع انكار . ذلك لأن سقراط لم يعش في عصر جهل وبداوة ، ولا في ايام خرافة واساطير ، وانما عاش في عصر علم وحضارة ، وفي ايام تحقيق وتاريخ . والناس مجمعون منذ اوائل القرن

الرابع قبل المسيح على ان هناك آتينيا كان اسمه سقراط . وكان معروفاً طول حياته بالميل الى الفلسفة والكلف بها . وكان ممتازاً بأطوار حياته الغريبة ، ومناهج بحثه الجديدة. كان يمشي حافياً في الشوارع ويتلكأ في الميادين ، متحدثاً الى الشيوخ والشبان ، متلطفاً مع هؤلاء ، محاوراً مناقشاً سائلاً مجيباً ، حتى استحدث في الأدب اليوناني فنا جديداً، هو فن الحوار الفلسفي . وحتى رسم للعقل الانساني طريقاً جديدة لم يقطعها العقل الانساني بعد . الناس مجمعون على ذلك ، ومجمعون على ان سقراط هـذا كان له خصوم وانصار ، وعلى ان خصومه حاربوه فسخروا منه ، ثم اتهموه امام المحكمة ، وعلى أنه اساء الدفاع عن نفسه عمداً ثم سخر من القضاة فقضـوا عليه بالموت ثم انتظر الموت شهراً ثم شرب السم وظل يحاور تلاميذه في خلود النفس حتى مات، ثم تفرق تلاميذه فأنشأوا المدارس والمذاهب الفلسفية المختلفة في بلاد اليونان على اختلافها وتباعد اطرافها. وعاش من هذه المذاهب مذهب واحد هو مذهب افلاطون الذي اخذ يتطور ويستحيل حتى انتج فلسفة ارسطاطاليس، وكثيراً من المذاهب الفلسفية الأخرى التي لا تزال متاعـاً عاماً للنوع الانساني الى الآن .

الناس مجمعون على هذا كله ، ولديهـم ادلة ظاهرة تبيح لهم هذا الاجماع . فليس من شك في وجـود ارستوفان الممثل اليوناني المضحك . وليس من شك في

ان ارستوفان قدم الى الملعب الآتيني نحو سنة ٤٢٤ قبل المسيح قصة السحاب التي يتداولها الناس ، والتي تدور حول سقراط وتتخذه وسيلة الى تسلية الجمهور الآتيني واضحاكه ، وليس من شك في ان كتب التاريخ اليونانية والرومانية ذكرت موجزة او مطنبة قضية سقراط وموته والمذاهب الفلسفية التي نشأت عن حواره ومناقشته .. ليس من شك في هذا كله ، ولكن الأستاذ « دوبريل » وجد طريقاً الى الشك ، وفي الحق انه لم يخترع هذه الطريق ، فهي موجودة من قبل ، وفيها ما يبعث على الدهش والحيرة . فمن الواضح ان احداً لم يشك في وجود سقراط قبل الأستاذ « دوبريل » ولكن من الواضح ايضاً ان المحدثين من مؤرخي الفلسفة عاجزون الى الآن كل العجز عن تحقيق فلسفة سقراط ، وبيان ما كان له من مذهب في الأخلاق او في غير الأخلاق . فهم يؤمنون بوجود سقراط وبأنه ابو الفلسفة . ولكنهم لا يستطيعون ان يبينوا فلسفته . بل هناك ما هو اغرب من هذا : لا يستطيعون ان يصفوا سقراط ولا ان يتميزوا شخصيته المعنوية فلسقراط شخصيات كثيرة تختلف باختلاف تلاميذه . فأفلاطون يعطي من سقراط شخصية تخالف تلك التي يعطيها « كسنوفون Xénophon » وهذه الشخصية تخالف ما يمكن ان يستخلص من « فيدون Phédon » ، وكل هذه الشخصيات تخالف ما نجد في قصة السحاب . واذا كان

الأمر كذلك فما الذي يمنع من الشك في وجود سقراط ؟ وكيف نستطيع ان نتصور شخصاً وجد من غير شك وكان أبا الفلسفة وملهم الفلاسفة ، واحدث في العالم اليوناني خاصة والانساني عامة ضجة هائلة اعدّت العالم للضجة التي احدثها المسيح ، دون ان نتميز شخصيته او ان نتبين أصلاً واضحاً جلياً من اصول فلسفته ؟

نعم قد يجاب على هذا بأن سقراط لم يكتب شيئاً ، وانما تحدث فاختلطت احاديثه وعبث بها تلاميذه ومن هنا اختلطت شخصيته الفلسفية ، واصبح تميُّزها شيئاً عسيراً . ولكن فلاسفة كثيرين وجدوا قبل سقراط ولم يكتبوا ومع هذا فقد تميزت شخصياتهم، مع ان فلسفتهم فشلت ولم تظفر من الفوز ببعض ما ظفرت به الفلسفة التي تضاف الى سقراط . هذا مصدر الشك في وجود سقراط . وقد افتن فيه الاستاذ «دوبريل» ولم يكتفِ بتسجيله ، بل ذهب الى ما هو ابعد من هذا فأثبت او حاول ان يثبت شيئين : الأول ان شخص سقراط شخص خرافي كشخص «جحا» كان موضوع العبث والسخرية في قصص الممثلين، وان الفلاسفة الذين جاءوا في اواخر القرن الخامس وفي القرن الرابع قد اتخذوا هذا الشخص الخرافي ، الذي هو موضوع السخرية والعبث ، مثالاً للجد . ولكن للجد الحلو الذي هو اقرب الى الفكاهة منه الى الجد الخالص ليحببوا فلسفتهم الى الناس . ثم اخذ هذا الشخص الهزلي قديمـ

الجدي حديثاً ، يتطور في جده ويمعن في فلسفته ، حتى اصبح مثالاً للجد الخالص ، وابا للفلاسفة ، ورمزاً للفلسفة وحتى نسجت حوله هذه الاسطورة الغريبة التي جعلته بطلاً من ابطال الانسانية . الثاني ان فلسفة سقراط ليست جديدة ولم تنشأ كما يعتقد المؤرخون لمحاربة السوفسطائية ، وانما هي طور من اطوار الفلسفة اليونانية القديمة ، لم يستحدثها فيلسوف بعينه في عصر بعينه . ويثبت الاستاذ «دوبريل» نظريته هذه بالرجوع الى نظريات الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط وما يوجد فيها من اصول الفلسفة السقراطية . هذه نظرية الاستاذ «دوبريل» أوجزتها ايجازاً شديداً اخشى ان يكون قد افسدها وانتقص من اطرافها .

نهض لنقض هذه النظرية استاذ فرنسي هو الاستاذ «لفيفر» من علماء مدينة «ليل» ، وأعترف بأني كنت معجباً بهذا الاستاذ حين كان يتكلم . ولم اكن منفرداً بهذا الاعجاب وانما كان اعضاء اللجنة جميعاً ومنهم الاستاذ «دوبريل» نفسه يشاركونني فيه . ولم يكن مصدر هذا الاعجاب فيما اظن اقتناعنا بردود الاستاذ ، وانما كان مصدره قبل كل شيء حبنا لسقراط وحرصنا على ان يكون شخص سقراط شخصاً حقيقياً تاريخياً ، وشعورنا بان الاستاذ «لفيفر» يحاول ان يثبت لنا وجود هذا الشخص الذي نحبه ونكلف به . الحق ان الوقت لم يسمح للأستاذ « لفيفر » بمناقشة خصمه كما ينبغي . فهناك نصوص يونانية ولاتينية

لم يكن بد من تحليلها ومناقشتها . وذلك يحتاج الى كتاب لا الى محاضرة . والى أشهر لا الى ساعة . ولكن هناك شيئاً يظهر انه لا يقبل الشك وهو ان الأستاذ « دوبريل » غلا في نظريته وسلك فيها مسلك الفيلسوف لا مسلك المؤرخ. فيجب ان نلاحظ ان سبيل المؤرخ تخالف سبيل الفيلسوف، وقد تضادّها مضادة كاملة فتذهب احداهما الى الشمال وتذهب الاخرى الى الجنوب . ذلك لأن الفيلسوف يخضع في فلسفته لقواعد معينة مرسومة في ذهنه . فمن المعقول ان ينتقل من مقدمة الى مقدمة حتّى يصل الى النتيجة التي يسعى اليها ، سواء أكان بحثه صحيحاً أم غير صحيح في نفسه . فاذا رأى الاستاذ «دوبريل» ان فلسفة سقراط تكاد تكون موجودة برمتها عند الفلاسفة الذين تقدموه ، وأن شخصية سقراط غامضة متناقضة عند تلاميذه وفيما تركوا من الاسفار ، وان شخص سقراط كان موضوع العبث والسخرية عند الشعراء والممثلين كان من اليسير عليه ان يصطنع المنطق فينظم مقدماته ويرتبها حتّى يصل الى هذه النتيجة ، وهي ان سقراط شخص خرافي . هذه النتيجة مطمعة خلابة ، لأنها تخرق الاجماع أولاً . ولأنها تخيل الى صاحبها انه قد رد الأمر الى نصابه فأثبت اتصال الفلسفة ونفى انقطاعها . ولأنها بعد هذا وذاك ان أفلحت كانت خليقة ان تخلد اسم صاحبها في تاريخ الفلسفة كما خلد اسم «ولف» في تاريخ الادب اليوناني . هذه سبيل الفيلسوف.

اما سبيل المؤرخ فمخالفة كل المخالفة لهذه السبيل ، فهي لا تتبع قوانين منطقية معينة ، وانما تتبع الحياة الانسانية العملية . والحياة الانسانية العملية لا تزال تظهر لنا الى الآن مختلفة مضطربة متناقضة . لأننا لم نوفق بعد الى استكشاف قوانينها الخفية . فمن المعقول جداً أن يظهر للفيلسوف شيء يراه منتظماً منتجاً ولا يقره التاريخ . ومن المعقول ان يرجح المؤرخ شيئاً لا يقره الفيلسوف . وليس في هذا شيء من الغرابة . فالفيلسوف بطبيعته منكر لحياة الناس العاديين يزدريها ويستخفها . والناس العاديون منكرون لحياة الفلاسفة يزدريها بعضهم ويكبرها اكثرهم ، ولكنهم جميعاً يرون انها تخالف اطوارهم وعاداتهم . ومن هنا وجد التناقض بين حياة الناس وفلسفة الفلاسفة . وسبيل التاريخ ان يبحث عن حياة الناس كما يحيونها لا كما يتصورها الفيلسوف . فليس غريباً ان يؤمن المؤرخ بوجود سقراط، ويعجز في الوقت نفسه عن شخصيته وازالة ما حولها من الغموض. اضف الى هذا ان هناك اشياء يخرج الشك فيها عن طور المعقول . فالعصر القديم والقرون الوسطى والعصر الحديث لا تعرف قبل المسيو «دوبريل» نصاً يشير الى الشك في وجود سقراط . بل هناك شيء آخر ذكره الاستاذ «لفيفر» وعجز الاستاذ دوبريل عن دحضه ، وهو ان قصة سقراط تصم الآتينيين بجناية منكرة ، هي قتل هذا البطل العظيم ظلماً وفي غير انصاف . والتاريخ يثبت

ان الآتينيين كانوا يغارون على شهرتهم وحظهم من حسن الذكر . فكيف نتصور ان هؤلاء الناس وصموا انفسهم بهذه الوصمة ؟ او سكتوا عن الذين وصموهم بهذه الوصمة: عن افلاطون وكسنوفون وغيرهما من تلاميذ سقراط . ألم يكن معقولاً ان يغضب الآتينيون لهذه التهمة المنتحلة التي كان يستغلها اعداؤهم الكثيرون ؟ هناك شيء آخر وهو اننا اذا استبحنا لانفسنا الشك من غير حساب ، لم ندر الى اي حد ينتهي بنا الشك في التاريخ . فما الذي يمنع الاستاذ «دوبريل» من ان يشك غداً في وجود افلاطون وبعد غد في وجود ارسطاطاليس ؟ ومن يدري لعل شخص نابوليون بعد زمن قليل او كثير يصبح عند بعض الباحثين شخصاً خرافياً كشخص هوميروس او كشخص سقـــراط عند الاستاذ «دوبريل» . قلت لك ان سبيل المؤرخ تخالف سبيل الفيلسوف ، وان الاول يستطيع بل يجب عليـــه احياناً ان يقر ما ينكر الفيلسوف، وان ينكر ما يقر الفيلسوف.

ولقد انتقلت من هذه اللجنة الى لجنة اخرى هي لجنـــة تاريخ الديانات. وكنت غير مقتنع برأي الاستاذ «دوبريل» ، فسمعت في هذه اللجنة الثانية احد اساتذتي وهو الاستاذ «جينيبير» يتكلم؛ ورأيت الناس من حوله في هرج ومرج . ووددت حين سمعت مـــا كان يقول ، لو حضر الاستاذ «دوبريل» . ذلك لان الاستاذ «جينيبير» كان يعلن مبتسماً ساخراً ان اعداء التاريخ ثلاثة : عالم الدين ، ورجل القانون،

والفيلسوف . ضحك ناس وسخط ناس واحتج آخرون . اما انا فضحكت ولم اسخط ولم احتج ، وانما هنأت الأستاذ. وهنا اعتذر الى علماء الدين والى رجال القانون ، واسأل صديقي منصور عن رأيه في هذا : أحق ان الفيلسوف عدو التاريخ ؟

باريس في ٢٠ ابريل سنة ١٩٢٣ .

٥

فكرت في مصر ، وفي نص الدستور على السودان ، وفي وزارة الشعب ، وفي الوزارة القائمة يوم الثلاثاء ١٠ ابريل حين كنت اسمع بعد الظهر في جلسة عامة للمؤتمر خطبة قيمة دقيقة ممتعة كان يلقيها الاستاذ الفرنسي «بريمون». كانت الخطبة قيمة ممتعة ، لأنها كانت تفسر لنا لغزاً من ألغاز التاريخ — الفرنسي الانجليزي — ، وتوضح لنا القاباً وعنوانات ، نجدها في نصوص السياسة الخارجية الفرنسية والانجليزية قبل الثورة الفرنسية . وكانت دقيقة للذيذة لأنها كانت تلقي بمحضر من قوم مختلفين يمثلون أمماً مختلفة . وبمحضر كثير جداً من الانجليز ، وكثير جداً من الفرنسيين. وكان الذي يلقيها فرنسياً . وكان رئيس المؤتمر حينئذ انجليزياً . والناس يذكرون ما بين فرنسا وانجلترا من خلاف ومشادة ومنافسة في الشرق والغرب ، فلم يكن بد للاستاذ الفرنسي من ان يصطنع الدقة والتلطف وحسن المدخل؛ حتى

لا يؤذي اولئك ولا يهيج هؤلاء . ولا تقل كان المؤتمر علمياً والعلماء فوق السياسة . وانهـــم كغيرهم من الناس يخضعون للعاطفة الوطنية، ويندفعون معها. والفرق بينهم وبين العامة انهم يجتهدون في ان يزنوا هذا الاندفاع ، وألا يضحوا بالعلم في سبيل السياسة وقلما يوفقون . ولكني أثنيت على الخطبة واطلت الثناء ولم احدثك بموضوعها .

كان موضوع هذه الخطبة لقباً من ألقاب ملك انجلترا. فقد كان ملوك انجلترا يلقبون انفسهم بهـــذا اللقب وهو «ملك فرنسا»، وكانوا يصطنعون هذا اللقب ويحرصون عليه الحرص كله في علاقاتهم السياسية بملوك فرنسا . ولم يكن ملوك فرنسا يستطيعون ان يصطنعوا هذا اللقب . فكانوا يلقبون انفسهم بأصحاب الجلالة المسيحية جداً . وحـــاول لويس الرابع عشر ان يحمل ملوك انجلترا على ان ينزلوا عن هذا اللقب فلم يفلح . ولم يفلح بعده لويس الخامس عشر . وغريبة جداً الحيل التي كان يتخذها المندوبون السياسيون للويس الرابع عشر وللويس الخامس عشر، ليمحوا هذا اللقب من القاب ملك الأنجليز ، او ليخفوه دون ان يوفقوا؛ حتى لقد حاول بعضهم ان يمحو هذا اللقب من النص الفرنسي لمعاهدة بين البلدين؛ على ان يبقى في النص اللاتيني . لأن الجمهور يقرأ النصوص الفرنسية ولا يقرأ النصوص اللاتينية فلم يفلح . وحتى لقد كان احد ملوك انجلترا منفياً مخلوعاً . وكان يأوي الى فرنسا ، وكـــان

ضيفاً على لويس الرابع عشر ، وكان لويس الرابع عشر يحميه ويدفع عنه . وكان مع ذلك يلقب نفسه ملك فرنسا. ولم يوفق الفرنسيون الى محو هذا اللقب من ألقاب ملوك الانجليز الا ايام الثورة ، او بعبارة اصح ايام القنصلية . فقد اشتد الخلاف بين مفوضي الجمهورية الفرنسية ومفوضي المملكة الانجليزية، حول هذا اللقب . وكانت حجة الفرنسيين، ان الثورة قد ألغت الملكية من فرنسا؛ فهي لا تعترف بلقب يخيّل ان لفرنسا ملكاً ، كائناً من كان ، سواء أكان هذا الملك فرنسياً ام غير فرنسي ، وسواء أكان ملكاً حقاً ام لفظاً، وان الانجليز الذين يريدون ان يعترفوا بالجمهورية، يجب عليهم — ليكونوا منطقيين مع انفسهم — ان يمحوا هذا اللقب من ثبت الألقاب الملكية . وابى الانجليز ذلك فانقطعت المفاوضات واستؤنف الجهاد بين البلدين . فلما كانت القنصلية وظهر الميل الى الصلح بين الانجليز والفرنسيين. واخذ الساسة في البلدين يوطئون لمعاهدة «أميان» « Amiens »، احس الانجليز انهم اذا لم ينزلوا عن هذا اللقب ، فستنقطع المفاوضات. واحسوا في الوقت نفسه انهم ان نزلوا عن هذا اللقب بمقتضى مفاوضات بينهم وبين فرنسا ، كان هذا النزول انتصاراً لفرنسا وخزياً وطنياً للانجليز . فانتهزوا فرصة ضم ارلندا الى المملكة الانجليزية ، وصدر آخر ديسمبر سنة ١٨٠٠ مرسوم ملكي يعلـــن ان ملك انجلترا سيلقب من اول يناير سنة ١٨٠١ ملك « بريطانيا العظمى

وارلندا» ولم يذكر اللقب الذي كان عليه الخلاف ، وهو ملك فرنسا . وبهذا مُحي هذا اللقب ولم يحتج الفرنسيون ان يفاوضوا في محوه . ولم يحتج الانجليز الى ان ينخذلوا في المفاوضة . ولكن هذا لم يمنع المؤرخين الانجليز من ان يعترفوا في اواسط القرن الماضي بأن هذا النزول؛ كان خزياً وطنياً وامتهاناً لكرامة التاج .

ذكرت مصر، وذكرت نصوص الدستور على السودان. وذكرت تلقيب ملك مصر بأنه ملك السودان ، وذكرت هذه السهولة التي اظهرتها وزارة مصرية في النزول عن هذا اللقب ، ولو الى أجـــل . ذكرت ذلك فاستخذيت لوزارتنا . ومن ذا الذي يذكر هذا ولا يستخذي ؟جاهدت انجلترا قروناً لتحتفظ بلقب لا خير فيه ، فلم يكن ملك انجلترا ملكاً لفرنسا ايام لويس الرابع عشر . بل كان ملك انجلترا يخشى ملك فرنسا . ومع هذا كان يلقب نفسه ملك فرنسا . لم يكن هذا اللقب مفيداً ، بل كان مضحكاً . ومع ذلك لم تنزل عنه انجلترا الا حين اضطرت اضطراراً شديداً الى النزول عنه، اما نحن — أستغفر الله — ! — اما وزارتنا فقد نزلت عن هذا اللقب : «ملك السودان» ، وهي تعلم انه ليس لقباً لفظياً . وهي تعلم انه لقب يمثل الحق والعدل والقانون . وان الاحتفاظ به احتفـــاظ بحق مصر ، والتفريط فيه تفريط في حق مصر . نزلت عنه ولما تضحِّ في الاحتفاظ به بالقليل ولا بالكثير. نزلت عنه

لأن ممثل انجلترا قطب جبينه ولوى وجهه . ذكرتُ هذا كله وذكرت جهاد الانجليز في الاحتفاظ بلقب سخيف ثم اصرارهم على ألا تحتفظ مصر بلقب هو كما قلت مثال الحق والعدل والقانون . استخذيت لوزارتنا وسألت الله ان يمنح مصر ساسة يستطيعون ان يقاوموا ساسة الانجليز !!!
ثم سمعنا خطبتين : احداهما عن نقوش يونانية استكشفت في آسيا الصغرى ألقاها عالم انجليزي . والاخرى عن أثر الخرافات والنبوّات في سياسة الجمهورية الرومانية ألقاهـا عالم بولوني . ثم انصرفنا الى القصر. وكانت الساعة الخامسة من هذا اليوم قد ضُربت موعداً لمثول اعضاء المؤتمر بين يدي الملك والملكة . فرأيت في هذا القصر اشياء كثيرة تركت في نفسي آثاراً قوية . رأيت قبل كل شيء مظهراً من مظاهر حب العلم والتهالك عليه والافتنان في نصره . ومظهراً من مظاهر الوطنية الصادقة القوية . ومظهراً من مظاهر اجلال اوربا لعلمائها واكبارها لمكانتهم . ومفاخرتها بهم . وكان الذي يمثل هذه المظاهر رجلاً شيخاً فانياً قد تجاوز السابعة والثمانين، وانحنى على العصا فما يستقيم له ظل ، وانحلّت قواه فما يمشي الا متثاقلاً. وما يكاد يستقل بنفسه فهو محتاج ابداً الى من يعتمد عليه . وكان مبتسماً . وكان فرحاً . وكان يتلطف في الحديث الى كل من ذهب يحييه، وقد ذهبنا كلنا نحييه . وكان وحيداً ، اي لم يكن يمثل بلده سواه . وكان على كرسي في ناحية من نواحي البهو

الذي كنا ننتظر فيه وقوفاً ان يؤذن لنا بتحية الملك . هذا الشيخ الذي كانت تحوطه بلجيكا والذي كان يرعاه المؤتمر كله ، هو الاستاذ «شميت» « Schmidt » أقبل من كوبنهاجن يمثل الدانمرك في المؤتمر . والقى في لجنة الشرق خطبة عن مقدار علم المصريين القدماء بتاريخ مصر القديم ، فكان لخطبته فوز وتحدثت بها صحف بلجيكا . ذهبت الى هذا الرجل فحييته وشكرت له عنايته بتاريخ مصر . فما أشد ما اثرت فيه تحيتي وشكري . وما احسن ما اظهر ميله الى مصر واعجابه بمصر وأمله في مستقبل مصر .

أُذن لنا في الدخول ، ورتبنا حسب احرف الهجاء . فدخل اعضاء المؤتمر البلجيكيون ، ثم ممثل البرازيل ، ثم الشيخ الفاني ممثل الدانمرك وكنا اثنين يمثلان مصر . وكانت زوجي تصحبني . وكنا وراء هذا الشيخ ، فسمعنا تحية الملك له وسمعناه يتحدث بكلام كثير الى الملك لم نفهم منه شيئاً ولم يفهم الملك منه شيئاً . لأن الرجل متقدم في السن فهو لايكاد يبين اذاتكلم الفرنسية. ثم اراد الرجل ان ينصرف فزلت قدمه وكاد يسقط ثم صافح الملكة واراد ان ينصرف وكاد يسقط ولولا ان كبير الامناء كان يسنده لهوى الى الارض .

مررنا امام الملك والملكة، فصافحنا الملك، واعلن الينا انه سعيد برؤية مصري، وان الملكة كانت سعيدة جداً بما أظهر المصريون لها من الكرم وحسن الضيافة . وصافحتنا الملكة فأعلنت الينا اغتباطها بهذه السياحة البديعة التي ساحتها في

هذا البلد الذي ليس له مثيل . ثم مرت بعدنا انجلترا، فذكرتُ أنا مستقلون وانا لا نتبع تركيا وانا لا نتبع انجلترا وان تصريح ٢٨ فبراير ليس لغواً ولا حديثاً من الأحاديث . وانما هو حقيقة واقعة ليست عبثاً بالعقول كما يظن كثير منا في مصر .

خرجنا من غرفة الاستقبال وكنت اظن ان لم يبق لنا الا ان ننصرف . ولكني دهشت حين وجدت نفسي في غرفة قد مدت فيها الموائد، ووقف خدم القصر يقدمون الى اعضاء المؤتمر الشاي وانواع الحلوى والاشربة (التي يبيحها الاسلام)، وانا لفي شاي وحلوى وبرتقال يتبع بعضنا بعضاً، كلما فرغت طائفة من تحية الملك، تقدم اليها الخدم فسألوها عما تشتهي حتى انتهت المقابلة . اقول انا لفي هذا كله واذا بالملك والملكة والامراء قد خرجوا من غرفة الاستقبال واختلطوا بالناس ، وانبثوا في انحاء الغرفة يتحدثون الى المؤتمرين مع شيء من السذاجة وارتفاع الكلفة غريب . وكان الرئيس البلجيكي للمؤتمر الاستاذ «بيرين» «Pirenne» يتتبع كبار العلماء وذوي المكانة منهم ، فيقدمهم الى الملك مرة ، والى الملكة مرة اخرى ، وكان المؤتمرون البلجيكيون يتتبعون بقية الاعضاء فيقدمونهم حيناً الى ولي العهد، وحيناً آخر الى اخيه، وحيناً آخر الى اخته. وقد قدمت انا وزوجي الى هذه الاميرة الصغيرة ، وهي فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، مشرقة يتحدث وجهها بما يملؤها من قوة الشباب

وبما لا يزال يملكها من سذاجة الطفولة ونعومتها ، في زي ساذج عادي، كالذي تصطنعه الفتيات في أسر الطبقات الوسطى في اوربا وفي مصر . قُدمنا اليها على اننا نمثل مصر . وقال مقدمنا اننا نمثل بلداً غريباً ، لا لما تتكشف عنه المباحث العلمية من عجائب تاريخه القديم؛ بل لما يبهر عقول الاوروبيين من حركته المدهشة ونهضته السريعة، التي بدأت منذ سنين فقطعت في زمن قصير ما افنت اوروبا في قطعه طوال الاعوام . فسألت الأميرة زوجي عن الاميرة المصرية ومقدار رقيها ، وان زوجي لتصف لها سرعة رقي المرأة المصرية اذ اقبلت سيدة بولونية عالمة مؤرخة من اعضاء المؤتمر ، فاندفعت الى الاميرة دون ان تقدم اليها، ودون ان تستأذن . ثم اسرعت الى يد الاميرة فهزتها هزاً عنيفاً وسألت الاميرة بصوت غليظ : اتحبين التاريخ ؟ اجابت الاميرة في استحياء : نعم يا سيدتي ، واي فرع من فروع التاريخ تحبين ؟ بهتت الفتاة لحظة ثم قالت : اني لم احسن درس التاريخ ولا اعلم منه الا قليلاً ، فلا استطيع أن اؤثر فرعاً من فروعه دون الآخر . ضحكت السيدة ضحكاً عالياً، ثم هزت يد الاميرة هزاً عنيفاً وقالت في صوتها الغليظ : ادرسي تاريخ الفن فهو سهل والناس جميعاً يستطيعون ان يفهموه . ثم مضت لشأنها . وقدم الى الاميرة ناس آخرون . ولبثنا كذلك ساعة . ثم انصرف الملك والملكة والامراء فانصرف كل منا الى مأواه .

عرفت في هذه المرة ايضاً لِمَ يحب البلجيكيون ملكهم وملكتهم وامراءهم . وكيف لا افهم ذلك وقد اقبل من قدمنا الى الاميرة فصاح بي: مسيو حسين ، تعال اقدمك الى اميرتنا الصغيرة . وكيف لا افهم ذلك وقد سمعت الاستاذ «بيرين» يصيح بأعلى صوته : « برنس ليوبولد ! أين البرنس ليوبولد ؟ اين ذهب ؟ اني اريد ان اقدم اليه ...» فيجيبه احد البلجيكيين : «ها هو ذا يتحدث الى فلان» فيذهب الاستاذ بيرين ويمهل الامير حتى اذا فرغ من حديثه أخذ بذراعه ومضى حتى يقدمه الى احد العلماء. والملكة تنتقل بين صفوف المؤتمرين فتتحدث الى هذا ، وتسأل ذاك وتبسم لهذا وتصافح ذاك .

كيف لا افهم حب البلجيكيين لملكهم وملكتهم وامرائهم، وهم على هذا الحظ من الديمقراطية ؟

ألا اننا في عصر تنتصر فيه الديمقراطية انتصاراً مدهشاً لا تستقر في مجالس النواب ولا في مجالس الشيوخ ، وانما تتجاوز هذه المجالس الى قصور الملـــوك ، فينزلها هؤلاء الملوك من قصورهم احسن منزل؛ لأنهم يفهمون ان عروشهم لا تستطيع ان تقوم الا عليها . لأنهم يفهمون ان نظام الملك قد اصبح لا يلائم هذا العصر، لانه أثر قديم لا معنى له الآن الا اذا لم يكن بين الملوك ورؤساء الجمهوريات فرق ما . الا اذا اعتمدت عروش الملـــوك على قلوب الشعب؛ لا على قوة الجيش ولا على قوة السنّة القديمة .

فهمَ بعض ملوك اوربا هذا فاستقرت عروشهم ويظهر انها تريد ان تستقر ابداً . ولم يفهمه بعضهم الآخر فهم الآن يذوقون مرارة النفي على شواطىء بحيرة « ليمان » «Léman» في سويسرا .

باريس في ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٣ .

٦

اصبحنا يوم الاربعاء ١١ ابريل فتفرقنا لا في انحـاء بروكسل بل في انحاء بلجيكا . ذلك ان الذين اشرفوا على تنظيم المؤتمر لم يفكروا في جمع المؤرخين من اقطار الارض وايجاد الصلة بينهم وتمكينهم من ان يعلم كل منهم ما عند صاحبه من التاريخ . وانما فكروا مع ذلك في شيئين آخرين ، وان شئت فقل في اشياء اخرى : فكروا في أن البحث العلمي الجاف ، ثقيل حتى على انفس العلماء ؛ ولا بد من ان يتخلل بحثهم العامي شيء يسر ويرضي ويفيد ، دون ان تكون الصلة منقطعة بين هذا الشيء وبين البحث العلمي الذي يشتغل به العلماء . واي شيء ألذ وأنفع وأشد صلة بالتاريخ ، من زيارة الآثار التاريخية المختلفة التي تنبث في جميع انحاء بلجيكا بكثرة مدهشة : ولاسيما اذا لم تكن هذه الآثار تاريخية فحسب ، بل كانت مع ذلك آيات بينـات من آيات الفن الجميل على اختلافه . فكر البلجيكيون في ذلك ،

وفكروا في شيء آخر؛ وهو ان بلدهم يخرج من حرب ضروس قد اخضعته لضروب من المحن والحرمان، لم يعرفها قبل هذه الأعوام الاخيرة وهو الآن يجتهد في اصلاح ما افسدت الحرب ، وهو محتاج في هذا الاصلاح الى عطف الامم على اختلافها ، ومن هنا كان محتاجاً الى نشر الدعوة وبعث عواطف الاعجاب والاجلال والاشفاق . والفرصة سانحة فالمؤتمر يمثل اكبر امم الارض . واعضاء المؤتمر خيرة الذين يمثلون الامم ، لانهم علماء وكلهم استاذ او مؤلف . واذن فكلهم قادر على نشر الدعوة ، مـــاهر فيه ، واذن فلا بد من التأثير في هؤلاء العلماء واحياء هذه العواطف المختلفة في نفوسهم ؛ واي سبيل اهدى الى ذلك من زيارة الآيات الفنية البينة ؟!! اضف الى هذا ان تفرق المؤتمرين في انحاء بلجيكا؛ لا يخلو من فائدة اقتصادية في بلد ساء القطع فيه واشتد فيه غلاء الحياة . فكثيراً جداً من المؤتمرين قد وفدوا من بلاد غنية مثرية فهم يستطيعون ان ينفقوا عن سعة ، دون ان يخسروا كثيراً . وبلجيكا في حاجة الى ان ينفقوا وليس ينبغي ان يقتصر انفاقهم على مدينة بروكسل فهناك مدن بلجيكية اخرى تحتاج الى هذا الانفاق . واذن فيحسن ان يتفرق المؤتمرون في انحاء بلجيكا لينتفعوا هم ولتستفيد بلجيكا من الوجهة المادية والمعنوية ، لهذا كله خصص الذين نظموا المؤتمر يوم الأربعاء ١١ ابريل لسياحات تاريخية او اثرية او فنية . وعينوا مدناً مختلفة

يختارها من شاء من المؤتمرين . وندبوا في كل مدينة استاذاً او اساتذة يقودون المؤتمرين ويرشدونهم ويفسرون لهم ما يرون ، فذهب بعض المؤتمرين الى مدينة «بروج» «Bruges» وبعضهم الى «جان» «gand» وبعضهم الى «ليبج» «Liège» وآخرون الى «انفرس» «Anvers» وكثير الى المدينة الشهيدة المعذبة مدينة «لوفان» «Louvin» .

وكنا بين الذين ذهبوا الى «بروج» فوصلنا الى هذه المدينة في الساعة الثامنة من صباح يوم صحو قد صفت فيه السماء وانتشرت فيه الشمس الفاترة على هذه المدينة المشرفة على الموت ، والتي ازهرت في القرون الوسطى إزهاراً لم تعرفه مدينة بلجيكية اخرى . والتي لا تكاد تقع فيهـــا العين على شيء حديث وانما كل شيء فيها قديم . كل شيء فيها يرجع عهده الى القرن العاشر والحادي عشر ، واحدث ما فيها يرجع عهده الى القرن السادس عشر . مدينة هادئة مطمئنة لا تكاد تحس حركة ولا اضطراباً الا ما يحدثه الترام على هذه الارض التي لم يصطنع فيهـــا «الأسفلت ولا المكدام» ؛ وانما حجرت على طريقة القرون الوسطى . فالمشي فيها شاق متعب مهلك للأحذية . وللترام والعربات فيها ضجيج شديد . مدينة هادئة مطمئنة فقيرة جداً ولكنها غنية جداً . فقيرة لأن الحياة الاقتصادية الحديثة صرفت عنها الحركة التجارية والصناعية ، وغنية بما فيها من آثار الفن وبما فيها من مصادر التاريخ ، فقيرة غنية

فأهلها يعيشون من الأجانب كما حدثنا الاستاذ الذي كان يرشدنا الى الآثار في هذه المدينة . مدينة هادئة مطمئنــة لا تكاد تشعر بأنها تعيش في القرن العشرين لأنك لا تنظر فيها الا الى شيء قديم . فهي مدينة خليقة حقاً بأن يعيش فيها من يكلف بالتاريخ ومن يكلف بالفن على اختلاف ضروبه بنوع خاص . كل شيء في هذه المدينة يحببهــا الى المؤرخ ويحببها الى الفني ويحببها الى الشاعر. لأنها كلها آثار ولأنها كلها فن ولأنها كلها شعر . وهي الى هذا كله من الهدوء والطمأنينة والدعة بحيث يستطيع المؤرخ والفني والشاعر ان يستمتع فيها بتاريخه او فنه او شعره؛ دون ان تصرفه عما يحب جلبة الحياة او ضوضاء الأحياء .

تلقانا في هذه المدينة مدير المحفوظات وعالم آخر من علماء الآثار . وكنا نحو الخمسين فقضينــا اليوم كله على اقدامنا واقفين امام مشهد من المشاهد ، او منطلقين من هذا المشهد الى مشهد آخر . نخرج من كنيسة الى كنيسة، ومن دار الى دار ، ومن متحف الى متحف ونحن عجلون لأننا لن نجد من الوقت ما يمكّننا من ان نشهد كل شيء، او ان نحقق النظر في شيء. وانما نمر سراعاً امام الأشياء كأننا في دار الصور المتحركة ، الا اننا نحن الذين يتحركون بينما الصور هادئة مستقرة في اماكنها . قضينا اليوم كله على الأقدام الا ثلاث ساعات قضينا احداهــا في الفندق للغداء . واؤكد لك ان اصحاب هذا الفندق عرفوا اننا

اجانب وعرفوا كيف يستفيدون من هؤلاء الاجـــانب . واؤكد لك انهم حمدوا للذين نظموا المؤتمر هذه الفكرة التي حملتهم على ان يرسلوا بعض المؤتمرين الى مدينتهم.

يظهر انه لم يكن هناك ماء للشرب . فكنت مضطراً الى ان تشرب النبيذ او الجعة او الماء المعدني . وكل هذا يباع ويشرى . واؤكد لك ان ثمنـــه ليس بالبخس ولا بالقليل . فزجاجة الماء المعدني لم تكلفنا اقــل من ثلاث فرنكات . ولم نخرج من الفندق حتّى انفقنا انا وزوجي خمسة واربعين فرنكاً . ولم يكن الطعام رديئاً ولكنه لم يكن من الجودة بحيث يستأهل هذا الثمن الباهظ . قضينا ساعة في الفندق، وقضينا ساعتين اخريين احسبهما من اسعد ساعات الحياة ، قضيناهما في زوارق صغيرة طافت بنا حول المدينة. ذلك اني أُنسيت أن أنبئك بأن « بروج » تسمى «فينيس» الشمال لأن الماء يتخللها في جميع انحائها ، ولأنك تصطنع فيها الزوارق كما تصطنع العربات في مدينة اخرى، ولست ادري ماذا تنتج المقارنة بين مدينة «فينيس» ومدينة «بروج» فكلتا المدينتين غنية بآثارها ، وكلتا المدينتين غنية بجمال منظرها وحسن موقعها الطبيعي . ولكني احسب ان الذي يبحث عن الهدوء والدعة ، ويريد ان يستمتع بالجمال والفن في غير اضطراب ، انما يجد ذلك في هذه المدينة الشمالية الميتة او التي توشك ان تموت . في هذه المدينـــة التي لا تمنحها الشمس حظها من الضوء الا بمقدار . والتي يكاد

الضباب يجللها دائماً فيمنحها شيئاً من الروعة والجلال ما احسب انك تجدهما في «فينيس» وان وجدت مكانهما هذا الجمال المبتهج المشرق الذي تمتاز به مدن الجنوب .

لقد أريد أن أحدثك عما في هذه المدينة من الآثار ومن آيات الفن ، ولكني عاجز كل العجز عن هذا ،واحسبك لا تجهل مصدر هذا العجز ، وبمَ احدثك ؟ لقد زرنا آثاراً كبيرة وسمعنا دروساً قيمة . ولو اني ذهبت احدثك بما سمعت او بما وصف الي في اثر من الآثار او صورة من الصور ، لاحتاج ذلك الى مقال طويل وانا بعد اريد ان اجتزىء وان افرغ من نبأ المؤتمر .

في هذه المدينة اجمل ما في بلجيكا من نماذج العمارة في القرون الوسطى ، وفيها اجمل ما في بلجيكا من نماذج التصوير في القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر، وفيها الى هذا آثار مختلفة تمكــن المؤرخ من ان يتصور كيف كان يعيش اهل بلجيكا في القرون الوسطى . زرنا قصراً قديماً يسمى قصر «جريتوس» فاذا القصر نفسه اثر من ابدع آثار القرون الوسطى . ولكن ما في القصر ابدع وأجمل ، فقد اجتهدت المدينة في ان تحول قسماً منه الى متحف نظمت فيه الادوات المنزلية كما كانت منظمة في القرون الوسطى . فاذا زرت هذا المتحف عرفت كيف كان اهل البيت يجتمعون الى طعامهم ، وكيف كانــوا يعدون هذا الطعام . وكيف كانوا يجتمعون الى سمرهم ،

وماذا كانوا يتخذون في حياتهم من اداة ومتاع . واجمل ما في هذا القصر من المعروضات « الدنتلا » فقد عرضت منها ضروب غيري أقدَر على ان يصفها . ولكني اعلم انها بهرت المؤتمرين جميعاً . ولم يكن اعجاب السيدات بهـا اشد من اعجاب الرجال .

ذكرت الزوارق والطواف حول المدينة ، ولكني لم اذكر – ويظهر اني لن استطيع ان اذكر – أثر هـذا الطواف في نفسي وفي نفس غيري من المؤتمرين . يكفي ان تتخيل هذه الاقنية الضيقة تخترق المدينة في جميع ارجائها. وقد قامت على جنباتها هذه الابنية الجميلة الجليلة، واصطفت على شواطئها الخضراء اشجار طوال تكاد اغصانها تقبل الماء من مكان الى مكان، وانبعث على هذه الشواطىء وخلال هذه الاشجار اطفال كثيرون يلعبون ويمرحون ويبسمون للحياة ، وقد عقدت على هذه الاقنية من مكان الى مكان جسور بديعة قديمة لم يغير منهـا شيء . وما انسَ لا انسَ صوت الملاح يصف لنا ما كنا نمر به من الأبنيه والعمارات ثم يقطع وصفه من حين الى حين بهذه الكلمة: «رؤوسكم ايها السادة» ذلك لأنا كنا نقارب جسراً من الجسور؛ فكان يجب ان نحني رؤوسنا حتى لا تصطدم بالعقد .

أشد شيء أثر في نفسي هو اعجـاب اهل «بروج» بمدينتهم ومفاخرتهم بما فيها من جمال ، وحرصهم على ان يظهروا دقائق هذا الجمال للأجنبي حتى لا يفوته منه

شيء وابتهاجهم حين يرون اعجاب الأجنبي وحين يسمعون ثناءه وتقريظه . وهم في ذلك كله سواء . ليس هنـــاك فرق بين الاستاذين اللذين كانا يصحبانيا ، وبين الملاحين الذين كانوا يطوفون بنا حول المدينة . بل ماذا اقول ؟ لقد كنا في احد المتاحف، وكان الاستاذ يصف لنا بعض الآثار ، ولست اخفي عليك دهشي واعجابي حين رأيت الاستاذ يخطىء في تاريـــخ من التواريخ او في شيء من الاشياء؛ فينبهه الى خطئه حارس من حرس المتحف ويقبل الاستاذ منه ذلك راضياً شاكراً . ولقد كنت اذكر اثناء هذا متحفنا المصري وجهل المصريين بما في ذلك المتحف ، ولقد كنت اقارن مع شيء من الاستحياء كثير بين حرس المتاحف البلجيكية وزملائي من الاساتذة المصريين . فلم تكن المقارنة مرضية ، ويظهر انها لن تكون مرضية قبل زمن طويل ، قبل ان يمن الله على مصر برجـــال في وزارة المعارف يفهمون العلم والتعليم، ويقدّرونها ويقدرون الحاجة اليها ويشعرون بأن مناصبهم ليست مقصورة على تدبـــير الأموال وتدبير الألعاب الرياضية .

شيء آخر دهشت له واعجبت به هو وطنية هـــؤلاء الناس ، كنت لا اكاد اشك في أن احد الأستاذين اللذين كانا يصحبانيا مجنون او قريب من الجنون . ذلك لأنه كان لا يتحدث الينا الا متاثراً ثائراً شديداً فرحاً مرة حتى يبلغ الضحك . ومحزوناً مرة اخرى حتى يبلغ البكاء . ولست

أغلو فقد كان الأستاذ يضحك ويبكي . وكنا في عجب من أمره ثم علمنا انه عاش في مدينته اثناء الحرب وأنه كان بطلاً من ابطال هذه المدينة ، وأنه جاهـد جهاداً عنيفاً ليحتفظ بآثار هذه المدينة وآياتها من غارات الألمانيين الذين كانوا يريدون أن يستأثروا بكل شيء . ولقد أثر في نفسي صوت هذا الرجل حين كان يقول لنا : «تعالوا أيها السادة الى الميدان الكبير فستسمعون فيه صوت جرسنا العتيق الذي لا يجهله مؤرخ . واذكروا ايها السادة حين تسمعون صوت هذا الجرس اني انقذته في آخر لحظة حين كان الألمان يريدون ان يرسلوه الى المسبك » . ذهبنا الى الميدان الكبير وسمعنا صوت الجرس : صوتاً يملأ المدينة . وليس في ذلك غرابة فهو قد انشيء لذلك ، سمعنا صوت الجرس يوقع الحاناً موسيقية مختلفة ، وإننا لكذلك واذا الرءوس حاسرة لأن الجرس كان يوقع النشيد البلجيكي وإذا الأستاذ ينتحب ويقول في صوت متهدج : « معذرة ايها السادة فاني بلجيكي » ولم يكن الأستاذ يبكي وحده وانما بكى معه بعض المؤتمرين .

باريس في ٥ مايو سنة ١٩٢٣

٧

عدنا الى العمل صباح الخميس ١٢ ابريل ، فسمعت محاضرات كثيرة مختلفة لا اعرض لها لأن الصحف السيارة لا تتسع لمثلها . ولكني اذكر محاضرة واحدة سمعتها في لجنة تاريخ الديانات . لأن الذي ألقاها صديق لكثير من المصريين وهو الأستاذ «لويس ماسينيون» (Louis Massinion) ولأن هذة المحاضرة اثارت مناقشة طويلة حادة ، ولأن موضوع هذه المحاضرة يمس الاسلام وهو «اثر التصوف في تكوين العقائد الدينية عند المسلمين» . والحق اني لم افهم الغرض الذي رمى اليه المحاضر وان كنت قد اشتركت في المناقشة ، لم افهم هذا الغرض لأنه لم يكن بيناً ، ولأن اساس البحث الذي ذهب اليـــه المحاضر خطأ فيما اعتقد ، فكثير من المستشرقين امثـــال الأستاذ «لويس ماسينيون» على مهارتهم وحسن بلائهم في فهم اللغة العربية وخدمتها ، يخطئون في فهم هذه اللغة احياناً ويقيمون على

اغلاطهم نظريات طويلة عريضة عميقة ، ولكنها ليست بذات غناء . لم افهم الغرض الذي رمى اليه الأستاذ ، واحسب ان كثيراً من الأعضاء لم يفهم هذا الغرض ، ومع هذا فقد تناقشنا كثيراً ، ولكن موضوع المناقشة لم يكن ما اراد الأستاذ ان يثبت من تأثير التصوف في تكوين العقائد الدينية عند المسلمين . فلم يحفل احد من الأعضاء بهذه النظرية وانما كان موضوع المناقشة هو أن التصوف العربي اثر خالص من آثار العرب او شيء للعرب فيه حظ، ولكن معظمه موروث عن الأمم الأخرى . اما الأستاذ « ماسينيون » فكان يعتقد أن هذا التصوف عربي خالص او يوشك ان يكون عربياً خالصاً ، وأن ما يمكن ان نجد فيه من موافقة لما عند الأمم الأخرى لم يؤخذ عن هذه الأمم وانما هي المصادفـــة وتوارد الخواطر ووحدة النظام العقلي في التفكير مهما تختلف الأمم ومهما تختلف البيئات . فليس حتماً اذا فكر العربي كــما فكر اليوناني ان يكون العربي قد اخذ عن اليوناني ، ولكن من المعقول جداً ان يكون اليوناني والعربي قد فكرا بطريقة واحدة فاهتديا الى نتيجة واحدة واذن فيجب ألا نغلو في القول بأن العرب قد اخذوا عن غيرهم هذه النظرية او تلك .

هنا اشتدت المناقشة فمن الظاهر ان توارد الخواطر ممكن. بل انه واقع . بل ان هناك نظريات تشترك فيها امم مختلفة دون ان تكون احداها قد اخذتها عن الأخرى ، ولكن

امكان الشيء غير وجوده بالفعل ، وليس يستطيع التاريخ ان يكتفي بالامكان والفرض فذلك شيء قد يكتفي به الفلاسفة والمفكرون . فأما المؤرخون فيريدون الحقائق الواقعة ولا يلجأون الى الافتراض الا لتفسير هذه الحقائق تفسيراً مؤقتاً حتى يتاح لهم استكشاف الحقائق الواقعة التي تفسر ما لديهم . فاذا رأينا عند العرب فكرة صوفية او غير صوفية توافق ما رأينا عند اليونان او عند الفرس، كان لنا أن نفترض توارد الخواطر ، وكان لنا ان نفترض ان العرب قد اخذوا عن اليونان أو عن الفرس . كان لنا ان نفترض الأمرين جميعاً وان نبحث عما يرجح هذا الفرض او ذاك ، وهنا تظهر قيمة المؤرخ وتظهر قيمة التاريخ . وليس يجب ان نجد النص التاريخي الذي لا يحتمل الشك على ان العرب قد اخذوا عن اليونان او عن الفرس لننفي توارد الخواطر ، فكثيراً ما تضيع النصوص دون ان يكون ضياعها مصدراً لضياع الحقيقة . وليست النصوص كل شيء في التاريخ فهناك الصلات التي تختلف قوة وضعفاً وتتفاوت متانة ووهنا بين الأمم . وهذه الصلات اذا ثبتت ثبوتاً تاريخياً كافياً اباحت للمؤرخ ان يرجح تأثير الامم بعضها في بعض . وليس يجب ان يكون هذا التأثير ظاهراً يعلمه الناس جميعاً، يعلمه من أثر ومن تأثر، فأشد انواع التأثير عملاً في الحياة الاجتماعية بل في الحياة الدولية — ان صح هذا التعبير — هو ما كان خفياً يجهله مصدره

كما يجهله قابله . فاذا ثبت ان اليونان مثلاً كانوا يرون هــذا الرأي بعينه وكان فلاسفتهم يشرحونه ويفسرونه ويدرّسونه في المدارس المختلفه ، وأن اليونان قد وصلوا الى الشرق ونقلوا اليه علمهم وفلسفتهم وتركوا فيه عادات وضروباً من التفكير ليس الى انكارها من سبيل . واذا ثبت ان هذه الآراء او هذا الرأي لا يلائم ما نعرف عن بداوة العرب ولا عن صدر الاسلام ، كان من الحق ان يرجح المؤرخ ان ظهور هذا الرأي أو هــذه الآراء في الفلسفة العربية او في التصوف العربي — بعد ان اختلط العرب بالأمم التي خضعت لتأثير اليونان، وبعد ان تعربت هذه الأمم فكتبت علمها وفلسفتها بالعربية ، بعد ان كانت تكتبها باليونانية — أثر من آثار الفلسفة اليونانية والعــلم اليوناني لا نتيجة من نتائج الابتكار العربي . وقــل مثل هذا في الفقه ، فنحن نعلم ان العرب لم يترجموا فقــه الرومان ولم يدرسوه درساً منظماً ، ولكننا لا نشك في ان الفقه الاسلامي قد تأثر بالفقه الروماني قليلا او كثيراً سواء أعلم بذلك الفقهاء ام لم يعلموا . ذلك لأن البلاد الأسلامية قد خضعت لحكم الرومان وقوانينهم دهراً ، ولأن هــذه القوانين قد درست درساً مزهراً في الشام والجزيرة ومصر. فيجب ان يترك حكم الرومان وقوانينهم ودرس هــذه القوانين آثاراً قوية في حياة الشعوب التي خضعت لها، وان تتكون من هذه الآثار الحياة الاجتماعية لهذه الشعوب

والعرب لم يهدموا كل شيء ، وانما صبغوا اكثر الاشياء التي وجدوها بالصبغة الاسلامية ، فليس غريباً بل ليس من شك في ان كثيراً من احكام الفقه الروماني قد اصطبغت بالصبغة الاسلامية دون ان يشعر الفقهاء بذلك . فنحن نحسب هذه الأحكام اسلامية خالصة حين هي اسلامية رومانية . لا يغضب العلماء فأنا اذكر الفروع لا الأصول، ولعلهم لا ينكرون ان الفقهاء يعتبرون العرف في كثير من مسائل الفقه ، وأن هذا العرف انما يكون من النظام اليوناني والروماني والفارسي ، هذه النظم التي تعاقبت على الشام ومصر والجزيرة، واذن فهناك تأثير خفي قد يكون أشد واقوى من التأثير الواضح الذي تحدثه الأمم بعضها في بعض . ومن الإسراف ان نقطع بأن هذا الرأي او هذه النظرية اثر عربي خالص او اثر يوناني خالص ، وانما سبيل القصد في ذلك ــ اذا لم توجد النصوص ــ هو ترجيح تأثير الأمم بعضها في بعض حتى يظهر ما يبين خطأ هذا الترجيح .

حول هذه النقطة دارت المناقشة ولم يستطع الأستاذ « ماسينيون » ان ينكر صحة هذا الاستدلال . ولكن الذي اعجبني في هذا كله ان خمسة او ستة اشتركوا في هذه المناقشة غير الاستاذ « ماسينيون » وغيري . وكان منهم الفرنسي والانجليزي وكانوا جميعاً يلمون بتاريخ الدين

الاسلامي الماما حسنا يمكنهم من المناقشة والاستدلال ببعض النصوص ؛ بل ان أحدهم كان يستدل بنصوص لا نستطيع نحن في مصر ان نستدل بها مع انها نصوص اسلامية لأنها نصوص فارسية ولأن علماء الدين الاسلامي في مصر يكتفون بدرس شيء من الكتب العربية . وليس منهم من يتخصص بدرس تاريخ الدين الاسلامي عند الفرس أو عند الهنود، وبقراءة ما كتب الفرس أو ما كتب الهنود في الدين . وحسبك ان المئات من علماء الاسلام في مصر لا يعرفون الا اللغة العربية ، ولست اطالب العلماء بدرس اللغة الفرنسية والانجليزية فقد يكون ذلك واجباً محتوماً ، وانما اطالبهم بشيء آخر اشد من هذا وجوباً ، وهو ان يدرسوا الدين الاسلامي كما ينبغي . والدين الاسلامي عربي ولكن أمماً غير العربية قد اعتنقته ودرسته وكتبت فيه ، وأؤكد للعلماء ان الدين الاسلامي قد اثر في هذه الأمم كثيراً وتاثر بها كثيراً ، واذن ؟ واذن فمن الحق على علماء الاسلام ان يدرسوا تاريخ الاسلام لا في مصر والشام وحدهما، بل فيهما وفي بلاد الاسلام الأخرى . ولو اني من علماء الاسلام ، ولو ان لي كلمة مسموعة بين علمـــاء الاسلام ، لاقترحت وألححت في الاقتراح ان تدرس اللغات الأجنبية الاسلامية في الأزهر الشريف وأن تكون هناك فصول تتخصص في درس الفارسية وأخرى في درس التركية وأخرى في درس اللغات الاسلامية التي ليست تركية ولا فارسية . فمن المؤلم

ومن المخزي ان تدرس كتب الدين التي كتبت بالفارسية او بالتركية او بلغة اخرى من لغات الهند مثلاً ، في فرنسا وانجلترا والمانيا وامريكا ، وان يجهلها علمــاء الاسلام في الأزهر الشريف . والأزهر الشريف بعــد هو الجامعــة الاسلامية الكبرى !!!

هلموا ايها السادة العلماء طالبوا بأن تدرس اللغــات الاسلامية في جامعتكم الاسلامية درساً مفصلاً نافعاً فانكم ان لم تفعلوا اضعتم على الأزهر حقه في ان يكون الجامعة الاسلامية الكبرى . وليس ينبغي ان تكون مدرسة اللغات الشرقية في باريس انفع من الأزهر الشريف .

أليست المطالبة بهذا والالحاح فيه أوفق بعلماء الدين ، واجدى عليهم وعلى الدين من مطالبة من كان يطالب بأن تكون المعاهد الدينية فوق الدستور ؟

اما مساء الخميس فقد كان لذيذاً لأنا قضينا شطراً منه نستمتع بلذة الموسيقى ، وقضينا الشطر الآخر في بيت وزير المعارف . اجتمعنا الساعة الثانية في كنيسة اثرية كبرى في بروكسل هي كنيسة «سانت جودول» ، وكنا قد دعينا الى هذا الاجتماع لا للصلاة ولا للتقديس ، ولكــن للدرس والتاريخ في لذة ومنفعة . هنا خطبنا قسيس فلم يتحدث الينا في دين المسيح ولم يفسر لنا اصحاحاً من الانجيل او آية من التوراة . وإنما تحدث الينا في الفن ، وتحدث الينا في الآثار ، ذلك ان هذه الكنيسة قديمة بعيدة العهد بالتاريخ ،

بدىء في انشائها في القرن الثاني عشر واختلفت عليهـــا اطوار الفن والعمارة الى آخر القرن السابع عشر . فخطبنا هذا القسيس ساعة وبعض ساعة مبيناً لنـــا هذه الاطوار المختلفة التي مرت بها الكنيسة مقارناً بين هذه الكنيسة وبين ما يشبهها من كنائس فرنسا والمانيا من الوجهة الخالصة ، مناقشاً آراء بعض الفنيين والأثريين من الالمان والفرنسيين، لان هذه الكنيسة لا تزال تشغل الباحثين الى اليوم والى الغد ، اعترف بأني لم اكن افهم شيئاً كثيراً من خطبة القسيس لاني لست اثرياً ولا فنياً ولا اكـــاد اتصور فن العمارة ، ولكني مع هذا كنت اعجب بهذا القسيس اعجاباً شديداً لا يعدله الا اعجابي بقسيس آخر خطبنا في المؤتمر خطبة ليس بينها وبين الدين صلة، لأنها كانت تتناول نسخة قديمة يختلف العلماء في تحديد العصر الذي نسخت فيه ، فيرى بعضهم انها نسخت في القرن العاشر ، وبعضهم بعد ذلك؛ ويحكم القسيس بين هؤلاء العلماء المختلفين . كنت اذن اعجب بهذين القسيسين، ولعل مصدر اعجابي بهما لا يخفى على السادة العلماء . وانا اعتذر الى السادة العلماء ، فلست اريد ان اغضبهم وما ابغي بهذا الحديث الا الخير لهم ولنا. ذلك لأن علماءنا لا يستبدون بملك انفسهم فلنا عليهم بعض الحقوق لأننا نريد ان يكون علماء الدين فينا أئمة وفخراً في وقت واحد . ويؤلمني جداً ان اقارن بينهم وبين رجال الدين في أوربا ، لأن هذه المقارنة لا تسرهم ولا ترضيهم

كما انها لا تسرنا ولا ترضينا وكما انها تدل على ان الفرق عظيم جداً بين علماء الدين اليوم وبينهم منذ قرون .

هذا قسيس قد درس دينه فأتقنه وهو يؤدي واجبه الديني . واؤكد لك ان الواجب الديني الذي يؤديه القسيس أشق واعسر واشد استغراقاً للوقت من الواجب الديني الذي يؤديه العالم المسلم ، لأن الاسلام دين هين لين سهل لا كلفة فيه ولا تعقيد . وحسبك ان صلاة المسلم تستغرق دقائق ، وان صلاة القسيس المسيحي لا تقاس بالدقائق . وحسبك ان العالم الديني عندنا اذا صلى وأدى واجباته الدينيـــة الشخصية والقى درسه او درسيه فهو حر . وان القسيس ليس له من الحرية مثل هذا المقدار العظيم . ومع ذلك فالقسيسون في اوروبا لا يكتفون بدرس الدين واداء واجباتهم الدينية . وانما كثير منهم رجال دين ورجال علم ،وكثير منهم رجال دين ورجال فن . وكثير منهم يستطيع ان يناهض العلماء والفنيين الذين اختصوا بالعلم والفن فينهضهم ويتفوق عليهم . وهذان القسيسان اللذان ذكرتهما قد اختص احدهما بفن العمارة واختص الآخر بعلم من علوم التاريخ . واؤكد لك أن لجنة من لجان المؤتمر لم تكن تخلو من قسيس وان اللجنة التي كنت فيها كان يرأسها قسيس ، وانه اظهر عناية شديدة بصبح الاعشى وما يشتمل عليه صبح الاعشى ، واؤكد لك شيئاً آخر وهو ان الفلاسفة اذا ائتمروا فسيشترك معهم القسيسون ، وان علماء الكيمياء

اذا ائتمروا فسيشترك معهم القسيسون ، وقل مثل ذلك في الاطباء وقل مثل ذلك في علماء الحياة ، وقل مثل ذلك في علماء الرياضة . وما لي اذهب بعيداً وفي مصر مدارس اليسوعيين ومدارس الفرير ، وفي فرنسا جامعات تقوم على رجال الدين ويدرس فيها ابناء الارستقراطية المحافظة ، فإذاً تقدموا الى الامتحانات العامة في الجامعات الحكومية لم يكونوا اقل نجاحاً من غيرهم وربما كانوا اكثر منهم فوزاً.

فأحب الآن ان تحدثني عن علمائنا في مصر ، مع من يستطيعون ان يأتمروا؟ أمع المؤرخين وهم يجهلون جهلاً تاماً تاريخ اوروبا وامريكا بل تاريخ الشرق بل تاريخ اليونان والرومان . واستحي ان اذكر تاريخ الاسلام ؟ أمع الجغرافيين ام مع الرياضيين ام مع علماء الحياة ؟ سينعقد في مصر مؤتمر جغرافي بعد سنتين ، فهل يشترك فيه علماء الدين ؟ ذلك لأني لقيت في بروكسل اسقفاً فرنسياً سألني عن جمعيتنا الجغرافية الملكية وعلمت منه انه سيشترك في مؤتمرنا الجغرافي ، وثق بأنه لن يكون الوحيد من رجال الدين المسيحي في هذا المؤتمر .

أليس يحسن ؟ أليس يجب على علماء الاسلام في مصر ان يبذلوا ما يملكون من جهد وقوة ليكونوا كغيرهم من رجال الدين ؟ ليكون منهم المؤرخ والجغرافي وعالم الكيمياء وعالم الطبيعة والفلكي (وانما اريد الفلكي الحديث) كما اريد اذا ذكرت المشتغل بالطبيعة من لا يكتفي بدرسها في

اشارات ابن سينا .

أيشعر علماء الدين عندنا بهذا البون الذي يباعد بينهم وبين علماء الدين في اوروبا ؟ ايشعرون بأنهم يحسنون الى انفسهم ان أزالوا هذا البعد ؟ ويحسنون الى أمتهم ايضاً لأنها تستطيع يومئذٍ ان تعتز بهم حقاً وان تأتمّ بهم حقاً في دينها ودنياها ؟

سمعنا خطبة القسيس ، ثم سمعنا بعدها ضروباً من الموسيقى الدينية القديمة التي احدثُها يرجع الى القرن الخامس عشر . وأشهد اني اعجبت بهذه الموسيقى واشهد اني طربت لهذا الغناء اللاتيني الجميل . ولكني لا اطالب بأن اسمع موسيقى او غناء في مساجدنا ، فأنا اعلم ان مساجدنا انما أنشئت لذكر الله ، ولذكر الله في سذاجة وسهولة . لا اطالب بذلك ولا افكر فيه ، وحسبي ان التذكر في المسجد بترتيل القرآن الكريم . وانما اطالب بشيء وألح فيه الالحاح كله ، اطالب بأن يكون من بين علمائنا من يستطيع ان يحدثنا عن تاريخ الأزهر الشريف ، وجامع قلاوون وجامع برقوق ، من الوجهة الفنية كما استطاع قسيس بروكسل ان يحدثنا عن كنيسة «سانتُ جودول» .

سمعنا الموسيقى وطربنا لها ، ثم اردنا ان ننصرف فاذا اكليل من الزهر ضخم بديع قد وضع ناحية في الكنيسة . واذا قوم من جماعة المؤرخين قد تقدموا فحملوه ومضوا فتبعهم المؤتمرون في وقار واجلال ، وما هي الا دقائق

حتى وصلنا الى قبر الجندي المجهول ، فاذا هذا الاكليل يمثل تحية مؤتمر العلوم التاريخية لأبناء بلجيكا الذين قضوا في الدفاع عن وطنهم .

اما ليلتنا عند وزير المعارف فلا احدثك عنها الا بشيء واحد وهو ان جميع المؤتمرين كانوا في قصر الوزير ، وكان معهم سفراؤهم او وزراؤهم المفوضون الا مصر ، فلم يكن لها سفير ولم يكن لها وزير مفوض ، ولم يكن لحكومتها مندوب وانما كان هناك طربوش حائر بين هذه الجماعات . ولولا ان وزير المعارف كان قد أنبيء بمكان هذا الطربوش لما شعر به احد . ولكن الوزير اقبل ومعه رئيس مكتبه فحياني تحية حسنة ودعاني مندوب مصر فلم اصلح خطأه . ثم لقيت اثناء السهرة مؤرخاً شاباً بولونياً تعرّف اليّ لأن زوجه تعرفت الى زوجي ودعاها الى هذا التعرف الطربوش ،وكان هذا العالم البولوني الشاب مندوب عصبة الامم في مؤتمر العلوم التاريخية . لأن عصبة الامم قد مثلت نفسها في مؤتمر العلوم التاريخية وكيف لا تفعل وقد انشأت لجنة علمية سمتها لجنة التعاون العلمي ؟

صافحني هذا الشاب وقال : هناك مسألة تحيرني ولعلك تجيبني عليها ، ما بال مصر لم تمثل في عصبة الامم ومتى تطلب هذا التمثيل ! هنا اعترف ايها القارىء بأني كذبت ولم يكن مصدر الكذب الا الحياء ، ذلك لأني اجبت سائلي على الفور : « ستطلب مصر الانضمام الى عصبة

الأمم في هذه السنة » . قال صاحبي : اذن فسيرد طلبها قبل انعقاد الجمعية العمومية ؟ قلت : اعتقد ذلك .

فهل لرئيس الوزراء ان يعفيني من خزي هذه الكذبة التي لم يضطرني اليها الا تقصير حكوماتنا وتفريطها في الاستمتاع بما لنا من حق ؟

باريس في ٧ مايو سنة ١٩٢٣ .

٨

كان يوم الجمعة ١٣ ابريل يوم الشرق في المؤتمر وبعبارة اخرى يوم مصر . ولم يكن يوم الشرق او يوم مصر في المؤتمر وحده بل كان في بروكسل كلها . فقد اشترك كثير جداً من اهل هذه المدينة رجالاً ونساءً في جلسة المؤتمر العامة التي عقدت بعد الظهر لسماع خطيبين تكلم احدهما عن استكشافات فرنسية على شاطىء الفرات، وتكلم الآخر عن مقبرة توت عنخ أمون ، وكان كلا الخطيبين يصطنع الفانوس السحري لعرض صور مما استكشف على شاطىء الفرات او في مصر ، وكانت الصحف قد اعلنت هاتين الخطبتين وتحدثت بهما ، فاسرع المؤتمرون وغير المؤتمرين الى استماعهما ، وما اشك اننا كنا آلافاً من الساعة الثانية الى الساعة الخامسة بعد الظهر . على ان صباح هذا اليوم قد انفق في اعمال هادئة فاجتمعت اللجان وسمعت

ما ألقي فيها من الخطب وما قدم اليها من المذكرات .
وسمعت انا في صباح هذا اليوم مذكرات ثلاثاً ممتعات :
احداها في نقد بعض الطبعات لمحفوظات رسمية فرنسية تتصل بما قبل الثورة ، والاخرى في اظهار تزوير كتب رسمية نشرها احد السفراء الرسميين للويس الرابع عشر عن اعمال قام بها في انجلترا وهولندا باسم لويس الرابع عشر، والثالثة فيما كان من تبادل المحفوظات الرسمية بين النمسا وبولونيا بعد الحرب الكبرى . ولكني لا اطيل في ذكر هذه المحاضرات وقيمتها فقد لا تصلح الصحف السيارة لمثل هذه المباحث العلمية الجافة التي ليس بينها وبين مصر صلة ما .

عدنا الى الاجتماع اذن بعد الظهر وكأن رئيس المؤتمر كان يشعر بشوق الناس الى استماع هاتين الخطبتين . وكان يجد لذة شيطانية في ممانعة هذا الشوق ، فقدم الى الخطابة عالماً روسياً تحدث عن التاريخ الروماني وعما كان من الأزمة الاجتماعية في الامبراطورية الرومانية اثناء القرن الثالث بعد المسيح وكانت خطبته لذيذة مفيدة ؛ وكان الناس يستمعون لها في شيء من الضجر والسأم لانهم لم يحضروا لاستماعها وانما حضروا لشيء آخر . ومع انه أطال فلم يكتف رئيس المؤتمر بخطبته بل قدم امريكيا تكلم عن اخلاق «كاترين دي ميديسيس» وكان يتكلم بالانجليزية فلم يفهمه الا قليلون ؛ ثم قدم الرئيس خطيباً ايطالياً تكلم

عن نقوش مسيحية استكشفت في ايطاليا وعن جمعية ايطالية اسست للبحث عن النقوش المسيحية التي نقشت بعد انتهاء عصر التاريخ القديم ، وقدم الى المؤتمر مجلدات نشرتها هذه الجمعية مشتملة على بعض هذه النقوش . ثم قدم الاستاذ « كيمون » فتحدث عن الاستكشافات الفرنسية على شاطىء الفرات ، هنا ابتهج الناس واظهروا سرورا ما اظن الا انه ساء الخطباء الاولين . وكانت خطبه الاستاذ « كيمون » ألذ ما سمعت في المؤتمر ، بل اعترف بأنها لذتني اكثر من الخطبة التي تلتها عن مقبرة فرعون .

ذلك لأن هذه الخطبة التي تناولت استكشاف الفرات كانت تتناول موضوعا افهمه واستطيع ان استفيد منه فائدة ما . ولم يكن هذا الموضوع ضئيلاً ولا قليل الخطر ، وانما كان عظيم الخطر جداً . وحسبك ان هـــذه المدينة التي استكشفت ،وهي مدينة «دورا» ، كانت من اعمال «تدمر» وكانت ملتقى لحضارات ثلاث ، كلها تعنينا ، وكلهـــا نستطيع ان نفهمها ، ونستطيع ان نبحث عنها ونخرج من البحث بشيء من الفائدة . كانت ملتقى الحضارة السامية والحضارة اليونانية والحضارة الرومانية . وقد استكشفت هذه المدينة اثناء الحرب ؛ ولكن استكشافها والبحث عنها لم يتمّا الا في ديسمبر الماضي . فاذا الآثار اليونانية والسامية والرومانية متجاورة يفسر بعضها بعضاً ويضيف بعضها الى بعض . واذا نقوش سامية ويونانية ولاتينية توجد في المعابد

وعلى الجدران . واذا الفن اليوناني والسامي يمتزجان ويؤثر كلاهما في صاحبه . واذا الساميون يتعلمون اليونانية ويصطنعون الفن اليوناني ، ويتسمّون بالاسمـــاء اليونانية ويؤدون العبادة لآلهتهم السامية في ضروب ليست بالسامية الخالصة ، ولا باليونانية الخالصة ، وانما هي مزيج مما ألف الجنسان . واذا الساميون ينحتون التماثيل لآلهتهم فيدخلون في فنهـــم شيئاً من رقة الفن اليوناني . واذا اليونانيون ينحتون التماثيل لآلهتهم فيدخلون في فنهم شيئاً من غلظة الفن السامي . وكان اجمل ما عرض فأعجب الناس ، صورة فوتوغرافية لتمثال الزهرة الهة الحب . فاذا هي صورة سامية ، واذا الالهة تمثل امرأة شرقية ، تمتاز بما كان يمتاز به مثال الجمال الشرقي في هذه القرون الاولى للتاريخ المسيحي، من الضخامة والفخامة وكثرة الحلى والميل الى شيء من النعومة والاسراف في الترف ، يخالف ما ألف الناس في الفن اليوناني من صور « افروديت» الهة الحب والجمال ، التي كانت – على انها مصدر الفتنة – لا تخلو من قوة وشهامة توشك ان تكون حربية . واذا هذه المدينة الصغيرة التي لم يتم درسها بعدُ تمثل ما كان من الجهاد ، بين الامبراطورية الرومانية وبين الامبراطورية التدمرية . فقد نرى ان الساميين واليونانيين قد وجد بينهم اختلاط شديد ، بل امتزاج شديد ، فكان بينهم الإصهار والتزاوج . واثر هذا الامتزاج في فنيهم ، فأخذ من جديد ، يوجد فن ليس هو بالسامي القديم ، ولا

باليوناني القديم . ولكن الاثار الرومانية منفصلة،أو تكاد تكون منفصلة ، انفصالاً تاماً عن الآثار اليونانية السامية .

أعجبت بهذه المحاضرة ؛ لاني الـم بشيء من التاريخ اليوناني ، وبشيء من التاريخ الروماني ، وبشيء من الجهاد بين « تدمر » وروما ، ولان اسم تدمر يذكرني الزباء ؛ وما روي عنها في امثال العرب من هذه الاساطير اللذيذة التي تفيض حكمة وتملؤها الامثال السائرة . ولكني لما سمعت خطبة الاستاذ « كابار » الذي رافق ملكة بلجيكا في مصر ؛ لم اجد ما كنت انتظر ان اجد من اللذة . وبينما كان الناس يعجبون ويصفقون كنت انا هادئا مطمئناً . ولعلي اعرف سبب هذا الهدوء والاطمئنان . فأنا اولاً أجهل التاريخ المصري القديم ، ولا اعرف منه او لا اكاد اعرف منه شيئاً . فاذا سمعت اخبار توت عنخ آمون أو غيره من فراعنة مصر ، لم تحدث هذه الاخبار في نفسي هـــذه الحركة العلمية التي تحدثها اخبار اليونان والرومان والعرب ، فتمكنني من ان اصل شيئاً بشيء ، وانتقل من شيء الى شيء ، أو تمكنني من ان استفيد فائده علمية ما . ومثل هذا يستطيع ان يقوله الذين يعلمون تاريخ مصر القديم ، ويجهلون تاريخ الرومان واليونان والعرب ، وان كان هؤلاء الناس لا يكادون يوجدون . فاذا وجد مصري يجهل تاريخ مصر ، فقد لا يوجد أجنبي يجهل تاريخ اليونان والرومان . فاذا اضاف اليها تاريخ مصر استطاع ان يعجب بمحاضرة

الاستاذ « كيمون » ، وبمحاضرة الاستـــاذ « كابار » . فاذا سألت عن مصدر هذا النقص الذي يجده المصري في نفسه حين يشعر بجهل تاريخ مصر ، وحين يسمع محاضرة في تاريخ مصر فلا يلذ لها كما يلذ لها الانجليزي والفرنسي فالجواب يسير ، وهو تقصير الحكومـــة المصرية او وزارة المعارف المصرية في نشر التاريخ المصري . فلو ان التاريخ المصري القديم يدرس في مصر كما ينبغي ؛ لكان لكل مصري متعلم حظ من الاعجاب بما استكشف اللورد كارنارفون . ولكن ماذا نقول وفي مصر اساتذة في الادب والحقوق والفلسفة والطب يجهلون تاريخ مصر ولا يعرفون من امر توت عنخ آمون الا ما يقرءون في الصحف ، وكثير منهم لا يقرءون ما تنشره الصحف . يجب ان نحمد الله على صدور الدستور فلن يغفر البرلمان في المستقبل لوزارة المعارف المصرية مثل هذه الجرائم .

وهناك سبب آخر حال بيني وبين الاعجاب بخطبة الاستاذ « كابار » ، وهو ان الاستاذ لم يقل شيئاً جديداً اكثر مما نشرته « التيمس » و « السياسة » . فكان من المعقول وقد قرأت هذا وذاك ألا يشتد اعجابي به حين يعاد . وهل استطيع ان اضيف سبباً ثالثاً اعترف بأنه لا يليق بعضو في مؤتمر علمي ؛ وهو ان الاستاذ « كابار » كان شديد الميل في محاضرته الى الانكليز ، وكان يسرف في الثناء عليهم وعلى ما بذلوا من جهد ، وما ادوا الى مصر والى العلم من

خدمة . وكنت احب ان تذكر مصر بشيء من الخير وان لم تكن اهلاً له في هذا الموضوع ، لانها لم تعمل شيئاً في استكشاف مقبرة توت عنخ آمون . ومهما يكن من شيء فقد خرجت عن طور العلماء وضاق صدري بهذا الثناء الكثير يهدى الى الانجليز . كنت متأثراً بالسياسة أكثر مما كنت متأثراً بالعلم .

كان اعجاب الناس شديداً جداً بهذه الصور الفوتوغرافية التي عرضها الاستاذ « كابار » ولا سيما السيدات ، فقد كانت هذه الصور وصور الجواهر بنوع خاص تفتنهن فتنة شديدة ، فيصفقن ويتهامسن ويجتهدن في أن يملأن أعينهن بهذه الصور التي لن تلبث ان تلهم الصاغة واصحاب الفن ؛ فتعرض جواهر على مثالها في الاسواق والمحال التجارية . ولعل كثيراً من هؤلاء السيدات كن يتحدثن الى أنفسهن باليوم الذي يستطعن فيه أن يتخذن من الحلى والآنية ما يشبه الحلى والآنية التي وجدت في مقبرة توت عنخ آمون .

كانت هذه الجلسة جلسة مصر اعجب فيها الناس اعجاباً شديداً بمصر القديمة وذكروا فيها مصر الحديثة . وكانت هذه الجلسة آخر الجلسات العلمية للمؤتمر . فنستطيع ان نقول ان هذا المؤتمر ابتدىء بذكر مصر في تحية الملكة وختم بذكر مصر في خطبة الأستاذ « كابار » .

ذهبنا بعد ذلك الى قصر البلدية فتناولنا هناك الشاي

وكنت أحب ان اصف لك ما في هذا القصر من آيات الفن ولكني مع الأسف قاصر عن هذا كل القصور . ثم كان يوم السبت فانقسم قسمين : اما الصباح فخصص لزيارة دار المحفوظات (الدفترخانة) وأما المساء فخصص للتفرق في انحاء بلجيكا القريبة من بروكسل والتي تمثل فائدة تاريخية ما . اريد ان أذكر دار المحفوظات هذه واريد ان اقارن بينها وبين دار المحفوظات في مصر . ولكن اصول المقارنة تنقصني ، لأني اجهل نظام الدفترخانة المصرية ،ولا اعلم من امرها الا ان زيارتها مستحيلة على العلماء والباحثين ؛ الا بعد عناء ومشقة واذن من وزير المالية قلما يظفر به من يطمع فيه . فالدفترخانة المصرية ديوان من دواوين الحكومة ، تنتفع به الحكومة وحدها في اعمالها الرسمية ، ولا ينتفع به العلماء والمؤرخون . بل لست ادري علام تشتمل الدفترخانة المصرية ؟ وهل فيها حقاً ما يفيد المؤرخ اذا أراد ان يبحث عما قبل العصر الحديث الذي نعيش فيه ؟ والى اي عصر من عصور مصر التاريخية يرجع اقدم ما في الدفترخانة المصرية من المحفوظات . لا اعلم من هذا شيئاً ، كما اني لا اعلم شيئاً من النظام الذي يصطنع في الدفترخانة المصرية ، ولا مما يتخذ فيها من وسائل الاحتياط لوقاية الأوراق والمحفوظات القديمة ، ولا شيئاً من النظام الذي يتخذ لتسجيل هذه المحفوظات واتخاذ فهارس وأثبات تسهل البحث على من يريد ان ينتفع بها . اجهل اذن مقدار المحفوظات

المصرية وقيمتها ونظم حمايتها والانتفاع بها . ولكني اعلم ان قسماً واحداً من اقسام الدفترخانة البلجيكية يشتمل على اكثر من ٥٠٠٠٠ر٥٠ دفتر من دفاتر الحساب والقرارات التي كانت تتخذها الحكومات المختلفة منذ القرن الثالث عشر الى الآن . وأعلم ان هذه الدفترخانة البلجيكية كغيرها من دور المحفوظات في اوربا مباحة للعلماء والباحثين . قد اتخذت فيها كل الوسائل التي تمكن العلماء من البحث وتسهل عليهم أسبابه ، فاتخذت فيها الأثبات المتقنة والفهارس البديعة . واختص بكل قسم من اقسامها نفر لا اقول من الموظفين وانما اقول من العلماء النابهين، يقومون على حفظه وتنظيمه والاستفادة منه وتسهيل الاستفادة على من ارادها سواء اكان بلجيكياً أم اجنبياً . ولكن في دار المحفوظات البلجيكية شيئاً أعجبت به حقاً ،وأتمنى على الحكومة المصرية ان توجد لنا مثله في مصر لأنه يفيد فائدة لا تقدر ، سواء في ذلك الدفترخانة ودور الكتب المختلفة . وجدت في دار المحفوظات البلجيكية معملاً واسعاً فيه كثير من العمال يشتغلون في اشياء مختلفة غريبة ، يشتغلون مثلاً في تنظيف الاوراق القديمة التي بعد بها العهد وافسدها الزمان فطمست الأحرف التي فيها ، ويشتغلون بتقوية الاوراق التي بعد بها العهد وافسدها الزمان ، فوهت ورثت حتى اصبحت لا تحتمل لمس الايدي ، ويشتغلون بما يشبه هذا مما يمكن من الاستفادة بكل ورقة قديمة مخطوطة مهما تكن اعراض البلى

التي اصابتها . ولقد رأينا العمال يشتغلون في ذلك . رايناهم قد اخذوا اوراقاً قذرة لا تكاد تقرأ بل لا تقرأ ، فما زالوا بها في غسل وتنظيف حتى زال عنها الدنس وبدت احرفها جلية واضحة للقارىء ، ورأيناهم يتخذون اوراقاً بالية لا تكاد تمس ، فما يزالون بها يسلطون عليها بعض مواد الكيمياء حتى تقوى وتثبت وتستطيع ان تتناولها وتقلبها كما تقلب ورقـــة صنعت امس . أليس مثل هذا المعمل مفيداً في مصر ؟ أليس الاستاذ لطفي بك السيد محتاجاً الى مثله في دار الكتب المصرية ؟

شيء آخر اعجبني هو استفادة دار المحفوظات البلجيكية استفادة تجارية بما يوجد فيها من المحفوظات . ففيهـــا نماذج لا تكاد تحصى لأختام الملوك والامـــراء والقواد والأباطرة والرؤساء عـلى اختلافهم منذ القرون الوسطى . فهي تنتفع بهذه النماذج فتتخذها على المعدن او على الجبس او على غير ذلك وتعرضها للبيع . واؤكد لك ان تهافت الناس عليها شديد ، ولا سيما العلماء واصحاب الفن والآثار الذين يريدون ان يدرسوا هذه النماذج كل من وجهتـــه الخاصة . فهم لا يطلبون الدفاتر والأوراق وهم ان استطاعوا ينظروا الى هذه الدفاتر والاوراق ، لا يستطيعون ان ينقلوها ولا ان يستعيروها ولا ان يخرجوها من دارها فضلاً عن بلجيكا . بينما هذه النماذج المصنوعة مباحة لهم يصنعون بها ما يشاؤون ، وهذه النماذج ليست سهلة ولا يسيرة فلا

بد من ان تتخذ بطريقة علمية . ولا بــد من ان تنظم وترتب وتتخذ لها الفهارس والاثبات . ولست انسى محاضرة ألقتها علينا في دار المحفوظات فتاة بلجيكية هي القائمة بالقسم العلمي من ادارة هذه النماذج . ولست انسى مناقشة كانت بينها وبين عــالم فرنسي في نظام «الفيش» الذي يجب ان يتخذ لهذه النماذج . لا انسى هذه الفتاة ولا انسى محاضرتها ولا مناقشتها . واتمنى على الله ان اجد بين فتياتنا بل بين كهولنا من يستطيع ان يقوم في دار المحفوظات المصرية او في دار الكتب المصرية مقام هذه الفتاة البلجيكية.

تفرقنا بعد الظهر فاخترت الذهاب الى «واترلو» ولكن لا استطيع ان اذكر لك من امرها شيئــاً . فقد تغيرت فيها المعالم ، ومحيت فيها آثار هذا اليوم العظيم الذي اندك فيه عرش نابوليون . وكل ما هو قائم فيها الآن صناعي متكلف الا القليل .

ولكني لاحظت شيئاً له قيمته في هذه الايام وهو ان الذين ذهبوا الى واترلو؛ كانوا جميعاً من الانجليز ولم يكن منهم فرنسي واحد الا زوجي . اما الفرنسيون فتفرقوا الى الجهات الاخرى حول بروكسل .

ثم اجتمعنا يوم الأحد في الجلسة الأخيرة للمؤتمر ، فاتخذت قرارات مختلفة اهمها هذا القرار الذي اتمنى ألا تهمله مصر ، وهو تأليف جمعية تاريخية دولية دائمة تشترك فيها الامم على اختلافها الا المانيا طبعاً . اتخذ هذا القرار وظل مجلس

ادارة المؤتمر باقياً بعد انحلال المؤتمر لوضع نظام هذه الجمعية.
فهل تتصل بها مصر ؟ وهل تقوم بما عليها . وبما لها من الحق في خدمة التاريخ ونشر التاريخ ؟

الكلمة في ذلك الى وزارة المعارف .

باريس في ١٠ مايو سنة ١٩٢٣ ..

القسم الثالث

خواطر سائح

١

في الطريق

كانت السفينة تجري في بحر هادىء مطمئن . وكانت نفوس السفر هادئة مطمئنة ايضاً ، وكان قد شمل السفينة ومن فيها شيء من الدعة والأمن لا يكاد يوصف كأنما اشترك في تكوينه هدوء البحر وجماله ، وصفو السماء واشراقها ونزوع المسافرين جميعاً الى هذا الامل الذي كانوا يترقبونه منذ حين، والذي هم مشرفون عليه الآن، وهو الراحة بعد تعب ، والهدوء بعد اضطراب. وكنت أشد الناس اطمئناناً واكثرهم دعة واعظمهم اغتباطاً بالحياة ، افكر فيما تركت من ألم، واتمثل ما استقبل من لذة ، واعبث من حين الى حين مع هذين الطفلين المبتسمين اللذين لا يعرفان من الحياة الا صفواً وابتهاجاً . كنت اقص على ابنتي ألواناً من احاديث «هوميروس» في «الأودسا» فأجد منها ابتهاجاً

للقصص واستعذاباً للحديث فأمضي في القصص والحديث وتغرق هي في اللذة والابتهاج ، ثم تسألني أحــق هذا الحديث ام انت تمزح : فلا اجد لهذا السؤال جواباً . لست امزح وانما اقص شيئاً قرأته وابتهجت له ، وقرأته الاجيال من قبلي وابتهجت له ، وسمعته اجيال قبل هذه الاجيال فابتهجت له وآمنت به ، واتخذته يقيناً بل اتخذتــه ديناً . وهل كان يخطر لأحد من اولئــك اليونان الذين كانوا يستمعون لأقاصيص الاودسا وأعاجيبهــا ان يسأل المنشد : أحق هذا الحديث ام انت تمزح ؟ كلا ! لقد كان هؤلاء الناس يؤمنون بأعاجيب الاودسا واساطيرها كما تؤمن انت وانــا بالبخار والكهربــاء . وكانوا يتخذون من احاديث الاودسا واعاجيبها مقاييس للخير والشر، ونماذج ينظمون عليها حياتهم الخاصة والعامة؛ كما نبحث نحن عن هذه المقاييس والنماذج في علم الاخلاق والاجتماع الآن . ثم تتابعت الاجيال واتصلت العصور، وتطور العقل الانساني حتى اصبحت هذه الطفلة في السابعة من عمرها تسألني حين اقص عليها احاديث الاودسا واعاجيبها واخبار السندبــاد البحري : أحق هذا الحديث ام انت تمــزح ؟ وكنت اترك ابنتي تلاعب اخاها وتلهو مع اترابها وانصرف الى قرينتي ، فنأخذ في ألوان من الحديث منها الجد والهزل وربما انتهزنا غفلة الطفلين فقرأنا فصلاً من كتاب او مقالاً من صحيفة؛ حتى اذا اقبل الليل جلس السفر بعضهم الى بعض

يتحدثون ، وانصرفت طوائف منهم الى «البيانو » . فنهم من يعزف ومنهم من يرقص . وانصرفت طوائف اخرى الى ألوان من اللعب بين نرد وشطرنج وورق حتى يتقدم الليل . وعلى هذا النحو قضينا اربعة ايام وبعض يوم لم تخل من بهجة لا تعدلها بهجة حين ظهرت السواحل الايطالية ، وحين مضت السفينة بنا في مضيق «مسينا» فالناس جميعاً ينظرون ، منهم من يعجب بالساحل وجماله ومنهم من يذكر كوارث مسينا ومنهم من يمضي في الذكرى الى عهد بعيد فيتمثل الحياة اليونانية والرومانية والفينيقية على هذه السواحل وفي هذا البحر ، ويذكر ما امتلأت به هذه الحياة القديمة من لذة وألم ومن جمال وكآبة ، ويذكر ما تغنى به الشعراء القدماء من الوان هذه الحياة . ثم تحدث الناس اننا سنصبح في مرسيليا وانصرف الناس عن حديثهم ولهوهم الى حقائبهم يحزمونها والى متاعهم يعدونه . ولكن السفينة التي كانت هادئة مطمئنة اخذت تضطرب قليلاً قليلاً ؛ وما هي الا ساعات حتى كان اضطراب البحر قد انتهى الى اقصاه ، وحتى كان الناس لا يكاد يسمع بعضهم بعضاً اذا تحدث بعضهم الى بعض . فالموج مصطخب والريح تعصف عصفاً ، والسفينة لا تتمايل وانما يتقاذفها الموج . وقضينا الليل في هذا الهول واصبحنا وقد اشرفنا على الساحل الفرنسي بل بلغناه ، فهذه ابنية مرسيليا يراها الناس ويشيرون اليها ، وليس من شك في اننا سنترك السفينة

بعد ساعة او ساعتين . كلا ! لن نترك السفينة بعد ساعة او ساعتين ولا ساعات . لماذا ؟ تستطيع ان تبحث وان تتكلف العناء في البحث دون ان تجد جواباً على هذا السؤال، فيحسن ان اجيبك انا .

كان بين اهل السفينة شرقي اخذه حر شديد، بينما كانت السفينة تجتاز القناة فما هي الا ان رأى بطيخ مصر فاندفع اليه اندفاعاً وأكل بطيخة بأسرها ، ثم كأن البطيخة لم تنقع غلته، فعمد الى ماء مثلج فشرب منه ما أذن الله لــه ان يشرب . ولم تكد السفينة تتجاوز مصر حتى ، اخذ صاحبنا قيء ومشاء، ودعي الطبيب فلم يؤمن للبطيخ ولا للماء المثلج، لا سيما ؛ وقد حسنت حال صاحبنا بعد يوم وليلة، فلم يبق من قيئه ومشائه الا بطن منتفخ ، ولم يشك الطبيب في ان الرجل مطعون ... وكان هذا الرجل في الدرجة الرابعة فلا احدثك عن عناية الطبيب به واشفاقه عليه . فانظر اليه تحوطه عناية الطبيب والخدم وانظر اليه في سرير نظيف نقي؛ وانظر اليه تقدم اليه الوان الطعام مختارة منتقاة؛ وانظر اليه يحمل من حين الى حين الى حيث يتنسم هواء البحر وكأن الرجل قد استعذب هذه الحياة واستلذها فتمارض وأمعن في الشكوى، وشك الطبيب وامعن في الشك فأبرق الى مرسيليا أن قد ظهر الطاعون في السفينة، وكتم الطبيب وربان السفينة الخبر عن المسافرين حتى لا يأخذهم وهمٌ ولا وجل . فلما اشرفت السفينة على مرسيليا أُنبئنا ان السفينة ملوثــة

وأن لا بد من الحجر الصحي، واننا ستمكث على بعد من الساحل خمسة ايام نرى الأرض ولا نستطيع ان نطأها . تستطيع أنت ان تتمثل نفسية المسافرين كما يقولون عندما وقع عليهم هذا النبأ وقع الصاعقة؛ ولكن المسافرين ولا سيما الذين ابحروا من مصر ليسوا شيئاً الى جانب البحارة، والذين ابحروا من اقصى الشرق، فقد كان هؤلاء الناس قد قضوا في البحر شهرين او اكثر من شهرين؛ وكـــانوا يتحرقون شوقاً الى فراق البحر، واذا هم يقضى عليهم ان يحجزوا في السفينة خمسة ايام. وقضينا ساعات في هذا الاضطراب، ثم اقبلت زوارق تحمل الاطباء، وذاع النبأ ان هؤلاء الاطباء قد اقبلوا ليمتحنوا المسافرين واحداً واحداً، فمن رأوه بريئاً أذن له بترك السفينة، ومن رأوه مريضاً او كالمريض حجزوه. ولكن الاطباء لم يمتحنوا احداً، وانما قضوا ساعات يدفعون الى المسافرين جوازات صحية، ويكلفونهم ان يقدموا هذه الجوازات في امد لا يتجاوز خمسة ايام الى عمدة المدينة او القرية التي يقصدون اليها؛ ليتحقق هذا العمدة من أمر المسافرين أمطعونون هم ام بارئون من الطاعون ؟ وكانوا كلما دفعوا الى مسافر جوازاً كتبوا كتاباً الى عمدة المدينة او القرية، ينبئونه بأن فلاناً قادم الى مدينته او قريته، وان حالته الصحية تدعو الى الحذر والاحتياط، فلا بد من امتحانه والاحتياط لأمره . وانقضى اكثر النهار في هذا العبث الصيني كما يقول الفرنسيون . وأذن للمسافرين جميعاً ان

يطئوا الارض الا البحارة وعمال السفينة فقد قضي عليهم بالحجر خمسة ايام. وبلغنا القرية التي كنا نقصد اليها، وذهبنا في اليوم الخامس الى العمدة، وكنت اتحدث بأن لا نذهب؛ ولكن الجواز الصحي الذي دفع الينا كـــان يشتمل على طائفة من مواد القانون الصحي؛ تبين العقوبات او الغرامات التي نتعرض لها اذا اهملنا . فذهبنا ولم نر العمدة وانمـــا رأينا سكرتير العمدة . وسكرتير العمدة في معظم القرى الفرنسية؛ هو معلم القرية وهو يشبه فقيه الكتاب عندنا . رأينا هذا المعلم وقصصنا عليه قصتنا فلم يكد يسمع اول الحديث حتى اظهر عناية ، لأنه تسلم كتاب الأطباء منذ ايام واخذ يبحث عن هؤلاء المسافرين الذين يوشكون ان يحملوا الطاعون الى قريته دون ان يوفق اليهم ، فلما رآنا خيل اليه ان قد ظفر بطلبته . وأؤكد لك اننا قد تكلمنا كثيراً لنقنعه بأنه ليس في حاجة الى احالتنا على الطبيب . على هذا النحو انتهت رحلتنا، وما كنت لأقص عليك هذا القصص لولا ان فيه عبرة لا بأس بالتفكير فيها . أرأيت الى مئات من المسافرين يضطربون ويحزنون يوماً كاملاً ؟ ارأيت الى مصلحة الصحة في مرسيليا تضطرب وتعنى هذه العناية وتتكلف هذه النفقات ؟ أرأيت الى مئات من العمد في قرى فرنسا يضطربون ويشفقون من الطاعون ان يصيب قراهم ؟ كل ذلك لأن رجلاً ظمىء فأكل بطيخة وشرب اقداحاً من الماء المثلج !!

أشهد ان هذه الحياة لا تخلو من عبث ، بل اشهد ان هذه الحياة كلها لون من ألوان العبث ، وفن من فنون المزاح ، تضحك حيناً وتحزن حيناً ، وهي مضحكة حين تحزن ومحزنة حين تضحك ، هي عبث كلهـا . نعم ! اني لأفكر في امر هذه البطيخة التي استتبعت ما استتبعت من الأحداث فلا اضحك ولا امزح ، وكثيراً ما ضحكت ومزحت حين كنت افكر في امرها . ولا اضحـك الآن ولا امزح، وانما افكر في هذا الأمر مع حزن شديد، لأني ارى ان الحياة كلها تجري على نحو مـا جرى امر هذه البطيخة . ذلك ان انباء مصر قد وصلت الي، فقرأت فيها ما قرأت وابتسمت فيها لأشياء، وبكيت فيها لأشياء،ولم يبق لي من هذا البكاء وذلك الابتسام الا اني تركت اصدقاء كنت اتمنى لقاءهم بعد عودتي، واتحدث بما سأجد من لذة حين ألقاهم واستأنف معهم صلات الصفاء . وتركت كذلك خصوماً كنت افكر في اني سأعود الى خصومتهم وسألقى منهم شراً ، وسيلقون مني شراً ، فاذا أنـا الآن مقتنع بهذه الحقيقة المؤلمة ؛ وهي اني لن اجد هؤلاء الاصدقاء، ولن اجد هؤلاء الخصـوم . لن اصافي اولئك ، ولـن اخاصم هؤلاء ، لأن الله قد آثرهم بالحياة في تلك الدار التي لا تجري فيها الامور على نحو ما تجري عليه في حياتنا من اللهو والعبث .

* * *

انتهى بنا سفر طويل لم يخل من مشقة إلى هذا البلد الصغير، الذي قضينا فيه اسابيع، ما اظن اني قضيت مثلها في بلد قبله . ليس بالقرية ولا بالمدينة ، ولكنه شيء بين بين ، فيه حضارة المدن، ولا سيما في الصيف حين يأوي اليه الناس من كل صوب يلتمسون الراحة ويستمتعون بالطبيعة التي تريك فنوناً من الجمال؛ قلما تظفر بهـا في غير هذه البيئة من فرنسا ، فيه حضارة المدن وفيه سذاجة القرى ؛ فأنت تجد فيه من العادات والخصال ما يذكرك بما كنت تقرأ من تاريخ هذا القسم من فرنسا قبل ان تبلغ اوروبا ما بلغت من هذا الرقي الحديث . تجد قوماً يحتفظون بأزيائهم القديمة، ويتحدثون لهجتهم الخاصة التي لا يفهمها الفرنسيون من غير هذا الاقليم ، فاذا تحدثوا الفرنسية فلهم فيهـا لهجة تميزهم من غيرهم من الناس . ولهم عاداتهم في عباداتهم وفي غير عباداتهم من مظاهر حياتهم العامة . ولكني لم اكتب لأحدثك عن هؤلاء الناس ، ولا لأحدثك عن هذا البلد فلست اكتب رحلة وانما هي خواطر خطرت لي اتحدث بها اليك من حين الى حين .

لا اعرف مكاناً كهذا المكان يدعو الى التفكير والتأمل ويبعث فيك نشاطاً نفسياً غريباً ينطقك بالشعر ان كنت شاعراً، ويحبب اليك قراءة الشعراء ان لم يكن لك حظ من الخيال . لا أغلو ولا أبالغ فأنت لا تكاد تخطو في هذا البلد او حوله خطوة الا سمعت هذه الانغام الموسيقية اللذيذة؛

التي تختلف ليناً وعنفاً وتتباين نحافة وضخامة، والتي تتغنى بها هذه الغدران المتدفقة من اعلى الجبل . في كل مكان غدير ينحدر او نهير يجري او سيل يتدفق . هنا غدير هادىء يسعى في لين ورقة فيسمعك نغماً رقيقاً عذباً ، وهنا نهير ليس بالهادىء ولا بالثائر تسمع له فلا تستنيم وتضطرب ، وانما تقف وقد استعذبت الحياة وودت لو تستزيد منها ، وهنالك سيل ثائر ينحدر في عنف ويدفع بين يديه صغار الأحجار وضخامها، ويسمعك هديراً كقصف الرعد يأخذ عليك سمعك ثم يأخذ عليك نفسك، ثم يبهرك فاذا أنت لا تسمع من حولك ، واذا انت كلك اعجاب بهذا الجلال الذي لا حد له . وكل هذه الغدران والنهيرات والسيول تسعى وتجري وتتدفق شاقة غابات تختلف كثافة ونحافة، وتأخذ جوانبها من كل مكان ؛ وقد اختلفت فيها الاشجار وانبثت في أرضها انواع من العشب والزهر لا يبلغها الاحصاء ولا ينالها العد ، وامتلأ الجو من عبير هذه الأزهار، وأنفاس هذه الاشجار، وريح هذه الأعشاب بشيء من العطر لا تستطيع ان تميزه ، ولا ان تحلله الى اجزائه ؛ ولكنك تستمتع به استمتاعاً غريباً وتكاد تلمس بيديك ما يبعث في جسمك من الحياة . والى هذا النغم المائي ، والى عبير هذه الغابات تضيف الطير ، ألحانها المختلفة التي تصل الى اذنيك في سهولة ويسر اذا كنت الى غدير هادىء او نهير غير ثائر ، والتي لا يصل الى سمعك منها الا اطراف

خفية دقيقة مختلفة اذا كنت الى سيل ثائر مضطرب . ثم انت لا تسعى في هذه الأرض على مكان سهل منبسط وانما انت مصعد ابداً او منحدر ابداً . ويظهر ان الذين يبصرون يجدون في هذا التصعيد والانحدار روعة لا تعدلها روعة ، يشرفون فيروعهم منظر ثم ينحدرون فيروعهم منظر آخر . ويظهر ان هذه المناظر المختلفة الرائعة تتباين الى غير حد؛ باختلاف الجو صفواً وكدراً ، وباختلاف ما ترسل الشمس من اشعتها على هذه القمم المحيطة بك والتي يجللها الثلج ابداً، والتي تقدم اليك من مختلف الالوان نماذج ساحرة .

واجمل ما يكون هذا المكان واشد ما تكون فيه تأثراً وشعوراً بضآلة الانسان وجلال الطبيعـــة، حين يظلم الجو وتكفهر السماء وتتكاثف السحب بعضها فوق بعض : منها ما هو تحت قدميك ومنها ما يكاد يحاذيك . ثم يضطرب هذا كله ويصطدم فاذا رعد يقصف قصفاً رائعاً مهيباً ، واذا برق يأخذ انحاء الجو، واذا الجبال المحيطة تردد اصداء هذا الرعد القاصف، واذا هذه السحب قد انشقت فانهمر المطر انهماراً ، واذا هي ساعة او بعض ساعة، وقد هدأ كل شيء واستنار كل شيء : وظهرت الشمس ساطعة بهية، ومر بهذه الغابات والازهار والاعشاب نسيم عليل بليل يحمل اليك عطراً ندياً .

في هذا البلد «ارجليس» «جازو» قضينا ثلاثة اسابيع، وفيه فكرت كثيراً وتأملت كثيراً ووددت كثيراً لو استطعت

ان اكتب ولكن الله اراد ألا أكتب ، وكنت قد اردت ذلك ايضاً .

نعم كنت قد بلغت من التعب حظاً عظيماً قبل ان أترك مصر ، وكنت قد انتهيت من ذلك الى ان كرهت القراءة والكتابة ، وكل ما يقرأ وكل مـــا يكتب ، فاعتزمت اذا اتاح الله لي السفر ان اقضي شهراً كاملاً لا اقرأ فيه ولا املي ولا اسمع بقراءة ولا امـــلاء . وقد تم لي ذلك . وأُقسم لقد كنت به شقياً كل الشقاء ، ذلك انا نخطىء الخطأ كله في تقدير آلامنا وفي تقدير لذاتنـــا وفي تقدير حاجاتنا . يبلغ بنا الألم اقصاه احياناً فيخيل الينا انه قد بلغ بنا اقصاه حقاً ، وانا لن نستطيع ان نحتمل الماً فوق ما احتملنا ، ثم نتمنى الراحة ونطمح الى اللـــذة فنقيس الراحة التي نتمناها واللذه التي نطمح اليها بمقياس التعب الذي لقيناه والالم الذي احتملناه ، نتمنى راحة مطلقة ولذة لا حد لها ، فاذا اتيح لنا ان نستريح فما اسرع ما نمل اللذة وما اسرع ما نتمنى الألم ! كذلك كنت في «ارجليس» ضيق الذرع بهذه الراحة التي اضطررت نفسي اليها ، شديد السأم لهذه اللذة التي طالما طمعت فيها ، عظيم التمني لذلك الالم الذي طالما شكوت منه ، وكانت زوجي تضحك مني وتتخذني سخرية ، وربما رقت لي فقرأت علي فصـــلاً او فصولاً من كتاب ولكنها كـــانت قد آلت كما آليت ان استريح فلا احدثك عن هذه الراحة الثقيلة .

هناك خاطر يخطر لي في كثير من الأحيان ، ولست ادري أيخطر لغيري من الناس او هـو مقصور عليّ لأن حالي الطبيعية هي التي تضطرني اليـه .. ذلك اني أبغض نفسي أشد البغض وأبغض معهـا الحياة وأرى كل شيء سيئاً مرذولا فأسأم كل شيء وأزهد في كل شيء ، وانما تعرض لي هذه العلة اذا اتصلت خلوتي الى نفسي، كما اتصلت في هذه الراحة التي أكرهت نفسي عليها ، اذا اتصلت خلوتي الى نفسي فلم اقرأ ولم اكتب ولم أشترك في الحياة العامة ، وانما انقطعت الى نفسي أحيا هذه الحياة الخاصة الفاترة التي تكاد تنحصر في الحياة الجسمية ، في هذا الطور من أطوار الحياة يخلو الانسان الى نفسه حقـاً واذا كان العقل الانساني لا يعرف الراحة ولا يستطيعها وانما هـو مفكر أبداً مشتغل أبداً، فان العقـل في أول هذه الخلوة يمضي في عمله وتفكيره معتمداً على ما بقي لـه من المادة الفكرية اثناء العمل وقبل الراحة . فاذا فرغ من هـذه المادة بحثا وتفكيراً احتاج الى تجديدها ، احتاج الى الغذاء المعنوي كما يحتاج الجسم الى الغذاء المادي . ولكنه قد أكره نفسه على الراحة واخذ نفسه بألا يقرأ ولا يعمل وهو مع ذلك مضطر الى التفكير بطبيعته ، وهنا الشر كل الشر ، فهو يبدأ في أن يفكر تفكيراً خطراً ، يبدأ في أن يتخذ نفسه موضوعاً للتفكير كما تبدأ المعدة الخالية في هضـم

نفسها . يفكر الانسان في نفسه فيحللها ويبالغ في تحليلها ويدرس الدقائق من عواطفه ومشاعره وأهوائه درساً مفصلاً دقيقاً ، فلا يرى من هذا كله الا مـــا يشعره بأنه ضئيل ضعيف ، بأنه ليس شيئاً يذكر ، بأنه ليس شيئاً يستحق الحياة . وربما فكر في الحياة فرأى أنها ليست شيئاً يستحق العناية ، واذن فالسأم يقـــوى شيئاً فشيئاً حتى ينتهي الى السخط والى ســـوء الخلق والى التشاؤم ، وماأظن الا أن كثيراً من هؤلاء الفلاسفة المتشائمين قـــد اتخذوا مذهب التشاؤم ديناً لهم لأنهم فكروا في انفسهم وحللوها ودرسوها أكثر مما ينبغي . لا أميل الى أن يفكر الانسان في نفسه كثيراً فالانسان لا يستحق هذا التفكير ، وانما أميل الى ان يشغل الانسان نفسه عن نفسه بالقراءة والحديث والعمل والاستمتاع بلذات الحياة التي أباحها الله والأخلاق . ولولا هذه اللذات التي قدمت لك وصفهـــا في أول الكلمة ، ولولا أني كنت أشغل بها نفسي عن نفسي كلما أحسست الحاجة الى التفكير لأصابني شيء من ســـوء الخلق غير قليل . لذلك تعبت في « أرجليس » ولم أسترح . فلم أقض يوماً هادئاً ولعلي لم أقض ساعات متصلـــة في اطمئنان وهدوء ، وانما كنت طوال الوقت أضطرب في الأرض وأهيم في أنحائها متنقلاً من غابة الى غابة ، ومن شاطىء الى شاطىء ومن قرية الى قرية ، أترك هذا المرج لأسعى الى

مرج آخر،وأدع هذه القرية لأزور قرية أخرى . وكذلك قضيت هذه الأسابيع لم يحس عقلي جوعاً ولم يستمتع جسمي براحة . وكان من بين القرى أو المدن التي قضيت فيها يوماً وفكرت فيها كثيراً مدينة « لورد » .

(البوليجين) في ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٤ .

٢

مدينة لورد Lourdes

يجب ان نعدو مع الطير لندرك القطار الأول ولنبلغ « لورد » في مبتدأ النهار . وغدونا مع الطير فاذا جو بارد يلفح الوجه زمهريره وينسيك انك في اواخر شهر يوليه . واذا الحاجة ماسة شديدة الى المعطف ، واذن لا بد من اخفاء اليدين ومن ستر العنق والوجه . ولكنا أبينا ان نصطنع من ذلك شيئاً عناداً لهذا الجو ولهذه الطبيعة التي تريد ان تغير الأشياء فتقر الشتاء مكان الصيف . أبينا الا ان نحتفظ بلباس المصطافين ومضينا في طريقنا لا نحفل بهذا الهواء البارد ، ولا نحفل بهذا المطر الذي اخذ ينهمر بعد حين والذي ما اسرع ما اخترق ثيابنا الصيفية وبعث فينا اضطراب العصفور بلله القطر . ولكننا مضينا في عنادنا ولم

نحفل بهذا الاضطراب،وأبينا الا ان نعتبر انفسنا في الصيف. ولم لا ؟ الم نتعود في مصر ضروبــاً من الصبر والمقاومة وألواناً من الجلد والاحتمال ؟ ومضى القطار بنا حتى بلغنا « لورد » قبل الساعة التاسعة صباحاً . فاذا مدينة كأحسن ما نعرف من المدن الفرنسية موقعاً ، يشرف عليها الجبل ويجري من تحتها النهر ، يتردد فيها هواء خفيف ولكنه ممتلىء حياة ونشاطاً ، لا يكاد يمسك حتى يجعلك حياة ونشاطاً، فاذا أنت أقدر ما تكون على الحركــة وأرغب ما تكون فيها ، واذا انت اقدر ما تكون على التفكير وأشوق ما تكون اليه . ولم نكد نترك المحطة ونندفع في الشارع الذي ينتهي الى المغارة حتى احاطت بنا جموع من الرجال والنساء كلهم يعرض بضاعته وكلهم يلح في عرضها وكلهم يتملقك ويترضاك . وما هذه البضاعة الا الفنادق والا الغرف في منازل بعض السيدات اللاتي نزلن في هذا الفصل عن بعض حجرهن وغرفهن واتخذنها تجارة ومصدرا للكسب . يتقدم اليك هذا السائق ليأخذ متاعك الى سيارته الفخمة التي ستنتهي بك ان شئت الى فندق كــذا ، وهو ليس غالياً ولا مسرفاً في الشطط ؛ على ان فيه كل ما تحتاج اليه من اسباب الراحة ووسائل النعيم . ويتقدم اليك هذا السائق ليأخذ متاعك الى عربته التي ستنتهي بك الى فندق كذا ، وهو فندق حسن الموقع تشرف منه على مناظر بديعة ، وليس بينه وبين الغار الا دقائق ، أما الأجر فقليل . وتتقدم اليك هــذه

السيدة باشة مبتسمة تعرض عليك غرفة جميلة واسعة حسنة الأثاث تشرف منها على الغار ، أما الأجر فنستطيع ان نتفق عليه ، وثق بأن ستكون مسروراً . ولكننا نجتهد في ان نخلص من هؤلاء الناس جميعاً ، فلم نأت « لورد » لنأوي الى فندق او خان ، ولا لنمكث فيها أياماً ، وانما أتيناها لنمكث فيها ساعات ثم نعود ادراجنا . فقد زرنا « لورد » وزرناها واكثرنا من زيارتها . ولولا شيء سمعناه امس لما فكرنا هذه السنة في ان نراها . ولكننا نتحدث فيما بيننا ونحن نشق صفوف هذه الجموع المزدحمة أمام المحطة بأن الفصل سيء هذه السنة في « لورد » ، وأن تجار هذه المدينة سيشقون بهذا الصيف . فقد كانت « لورد » دائماً شديدة الغلاء ولا سيا في شهري يوليه واغسطس حيث يزدحم عليها الحجيج من كل صوب ، وحيث تضيق بالأجيال المختلفة التي تؤمها من اقطار الأرض المسيحية كلها . نعم ! الفصل سيء في هذه السنة ؛ فالحجيج قليل والفنادق بعيدة كل البعد عن أن تسترد شيئاً من نفقاتها الضخمة ، وهذه الحوانيت الكثيرة التي لا تكاد تحصى والتي تكتظ بألوان البضائع المختلفة ؛ ولا سيا هذه البضائع التي تخصص للتقوى والعبادة . هذه الحوانيت محزونة كئيبة تحس الكساد وتألم له ، فالناس لا يزدحمون عليها ، وهم لا يستبقون الى الصلبان والسبح والتمائم ، وانما يمرون بهذا كله معرضين عنه زاهدين فيه . وما مصدر هذا الكساد؟

وما علة هذا الاحجام عن الحج في هذا العام ؟ أما أنا فضحكت وعللت ذلك بانتصار حزب الشمال في الانتخابات الفرنسية الأخيرة . فأنت تعلم ان حزب الشمال الفرنسي ملحد مسرف في الالحاد الى حد أنه يتخذ الالحاد دينا . واذ قد انتصر هذا الحزب وانتصر بالطرق الديمقراطية الصحيحة اي برضا الفرنسيين وارادتهم، فلا بد من ان يكون هناك اتصال بين انتصار الالحاد وكساد التجارة في «لورد» واحجام الناس عن الحج اليها . وأما زوجي فضحكت وسخرت مني ومن حزب الشمال ومن احزاب اليمين أيضاً وأخذت تلتمس العلة لهذا الكساد واحجام الناس عن الحج الى « لورد » في ظروف الحياة الاقتصادية التي ارتفعت لها حاجات الناس ارتفاعاً شديداً . ألم ترتفع اجور السكك الحديدية ارتفاعاً فاحشاً احجم له الناس لا عن الحج الى « لورد » وحدها ؛ بل عن الحج الى هذه المواقع الطبيعية البديعة في الجبل وعلى سواحل البحر ! فالفصل ليس سيئاً في « لورد » وحدها وانما هو سيء في هذا الاقليم كله، وما أحسب الا انه سيء في جميع مواضع الراحة في فرنسا. ومن هم الذين يحجون الى « لورد » ، ألم تكن كثرتهم المطلقة من الفقراء والذين يشبهون الفقراء والذين يحتاجون الى الحساب والتدقيق في الحساب ليعيشوا فضلاً عن ان يستمتعوا بشيء من اللهو والراحة ، أو أن يبيحوا لأنفسهم سياحة من السياحات ؟! الظروف الاقتصادية اذن هي التي

صرفت الناس عـــن « لورد » لا الظروف الدينية ولا الظروف السياسية . ومهما يكن من شيء فقد زرنا «لورد» ومضينا في شوارعها وانتهينا الى الغار والى الينبوع ، فاذا حولهما جماعات من الناس لا تذكر بالقياس الى تلك الجماعات التي كنا نراها من قبل ، ولكنها مع ذلك كثيرة ولكنها مع ذلك بائسة ، ولكنها مع ذلك تملأ القلوب حزنا وحسرة ، ولكنها مع ذلك تدعو العقل الى التفكير ، وتبعث الانسان اذا كان جافياً غليظ الطبع على أن يسخر من الانسان ، وتبعثه ان كان رقيقاً حساساً على أن يعطف على الانسان.

انظر الى هؤلاء الناس الذين انبثـــوا حول الغار والينبوع حاسرين يصلون ويضرعون ويتوسلون ويتمسّحون بالأحجار ، ويغمسون أيديهم في الماء ويشربون منه ، وفيهم المكفوف وفيهم المقعد وفيهم من اصابته ضروب الشلل ، وفيهم من الح عليهم الجذام وفيهم من أنهكتهم العلل المتباينة ، وفيهم الأصحاء أقبلوا يتضرعون لأبنائهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم واخوانهم وأخواتهم .. كل هؤلاء منبثون حول الغـــار والينبوع لا يضحكون ولا يلهون ولا يحفلون بجمال الطبيعة ولا يستمتعون بروعة المنظر ولا يكترثون لهذا الجو الذي قد يبرد حتى يبعث الرعدة وقد يسخن حتى يتصبب له العرق ؛ وهم منصرفون عن هذا كله الى صلاتهم يبتهلون الى العذراء التي ظهرت في هذا المكان سنة ١٨٥٨ للفتاة « برناديت » ، وأوحت اليها أن تأمر الناس باقامة كنيسة لها

في هذا المكان وأثبتت ظهورها بإخراج هذا الينبوع الذي تفجر عنه الصخر أمام هذه الفتاة الراعية فرآه الناس وآمنوا له ، وصدقوا الفتاة ، وتحولت له هذه القرية التي كانت خاملة الى مدينة ضخمة فيهـــا من اسباب الترف وألوان النعيم ما لم تبلغه مدن كثيرة قديمة العهد بالنمو في هـذا الاقليم . يبتهل هؤلاء الناس الى هذه العــذراء ان تشفي مرضاهم وينتظرون الساعة المعينة التي يقوم فيها رجـــال الدين بحركاتهم اليومية فيغمسون المرضى في الماء المقدس ، ماء الينبوع ، ويصلون ويبتهلون وينتظرون المعجزة فتواتيهم حيناً وتخلفهم حيناً . ومن سوء حظ «لورد» ورجال الدين في هذا العام أن العذراء لم تحدث معجزة. منذ ابتدأ الفصل وهم يبتهلون ويتضرعون ويلحون في الابتهال والتضرع ويغمسون المرضى في الماء ويخرجونهم منه ثم يردونهم اليه ويخرجونهم منه ، والأساقفة يترددون على المدينة ويشرفون على هذه الحفلات والصلوات ، ولكن العذراء عنهم معرضة لا تسمع لهم ولا تلتفت اليهم ، وكانت قد عودتهم أن تحدث لهم في كل عام معجزة أو معجزات ، فما لها هذا العـــام قد تركت مدينتها وأعرضت عن عبادها ؟ أما انا فضحكت هذه المرة كما ضحكت في المرة الأولى وقلت ان العذراء مغضبة لأن حزب الشمال قد انتصر في الانتخاب، ولو قد انتصر حزب اليمين لما تصرم يوم من أيام هذا الفصل دون ان تحدث العذراء معجزة تضطرب لها أرجاء

الأرض ؛ واو قد انتصر حزب الوسط الذي ليس هو بالمؤمن ولا بالملحد، ولكنه على كل حال قد استأنف العلاقات السياسية مع «البابا» ، لما رضيت العذراء أن يتصرم الفصل او جزء عظيم منه دون ان تحدث معجزة أو معجزات . ولكن زوجي زجرتني زجراً شديداً وهي تقول : ما يصلح هذا الموضع لمثل هذا الهذيان فأرجئه الى حيث تخلو الى نفسك فلا تؤذ به احداً .. فسكت . ولكني لم احدثك الى الآن عن السبب الذي من اجله فكرت في ان ازور «لورد» هذا العام ، وهو سبب لا يحتاج الى أن يكون موضوعاً للحديث ، ولكنه مع ذلك كلفني هـذه السياحة القصيرة؛ وأزعجني عن مضجعي ولما تشرق الشمس . ذلك اني سمعت القسيس يخطب الناس في « ارجليس » ،ويقرأ عليهم منشوراً أصدره « البابا » رفع به « برنديت » هذه الفتاة الراعية التي ظهرت لها العذراء في « لورد » الى منزلة السعداء التي ليس فوقها الا منزلة واحدة فيما أظن هي منزلة القديسين. قرأ القسيس هذا المنشور ثم انتقل منه الى حياة «برنديت» ، فذكرها مفصلة ، حتى اذا بلـغ ظهور العذراء لهذه الفتاة الراعية ، أخذ يلح في اثبات ذلك بالأدلة المختلفة ثم أخـذ يسرد المعجزات أو طائفة من المعجزات التي أحدثتها العذراء في « لورد » ، فان هذه المعجزات لا يمكن ان تحصى . وأخذ يذكر لنا معجزات قائمة بين ايدينـا لا سبيل الى جحودها ، فهذه السيدة التي تتردد في الكنيسة لتجلس الناس،

وتتقاضى منهم أجور الكراسي وتتقاضى منهم الصدقات ، هذه السيدة التي ترونها جميعاً في حركتها ونشاطها وخفتها ، هذه السيدة انظروا اليها .تسعى بينكم . ليس بينها وبين أشدكم قوة فرق . انظروا اليها لقد كانت مقعدة فأطلقت العذراء ساقيها في « لورد » . وأنتم أهل هذه المدينة تعرفون فلانة وتعرفون علتها التي أعيت الأطباء أعواماً . لقد شفتها العذراء في العام الماضي ، وما أظن أن منكم من يجرؤ على انكار هذه الواقعة .. وفي الحق إن أهل المدينة لا ينكرون هذه الواقعة ، ولا الواقعة التي سبقتها ؛ ولكن في الحق ايضاً اني رأيت امرأتين احداهما بدالة تبيع ألوان البقل وضروباً من المتاع . وهي عرجاء اصابها ألم في القدم منذ سنين وعجز الأطباء عن شفائه ، ولم تغن فيه المياه المعدنية المختلفة شيئاً ، وهذه المرأة تتردد كل عام الى « لورد » ، فتشرب من ينبوعها وتستحم في احواضها كما كانت تتردد الى المدن والقرى التي تمتاز بمياهها المعدنية الحارة والباردة وتصلي الى العذراء وتبتهل دون ان تحدث العذراء فيها معجزة وهي غير يائسة ولا قانطة ، بل هي تعتزم السفر الى لورد بعد أيام . والأخرى امرأة عرجاء ايضاً ، ولدت معوجة الساقين فهي لا تمشي وانما تحجل وتجد في ذلك مشقة شديدة . رأيتها في بعض الرياضات لأنها مكلفة ان تحرس ممر القطار في طريق مسلوكة ؛ وكنا قد أخطأنا الطريق الى المدينة فما زالت معنا حتى اهتدينا ، وقد قطعت بنا

طرقاً مجهولة شاقة ،فتحدثنا اليها أكثر من نصف ساعـــة ؛ وعرفنا علتها،وعرفنا انها ألحت على العذراء وشربت كثيراً من ينبوع « لورد » ،وانغمست كثيراً في احواض «لورد» ، ولكن العذراء لم تلتفت اليها ، فيئست من العذراء وجحدت « لورد » وسخرت منها ، ورضيت علتها واطمأنت اليها . رأيت هاتين المرأتين .. ولكنها فيما يظهر لا تصلحان حجة على انصار «لورد» ، فالعذراء ليست مكلفة أن تشفي كل مريض وانما هي تشفي من تريد ان تشفي — ومن يدري؟ لعلها تشفي المرأتين في يوم من الأيام . سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت فاشتقت الى زيارة « لورد » وطمعت في أن تظهر معجزة يوم زيارتي ، ولست أمزح ولا ألهو فان المعجزات قد ظهرت في « لورد » ، وما أظن الا انها ستظهر أيضاً ، غير ان العلماء يعللون هذه المعجزات تعليلا ، ويعللها القسيسون تعليلاً آخر ، وأنت حر في ان تصدق العلماء أو في أن تصدق القسيسين . أما أنا فقد طمعت في ان أرى المعجزة ولكني لم ار شيئاً . ثم طمعت في ان اسمع بالمعجزة أثناء اقامتي في «أرجليس » ،على مسافة قصيرة من «لورد» ، ولكني لم أسمع شيئاً . ثم سافرت من أرجليس واني لفي القطار الى حيث أقيم الآن ، واذا سيدتان تتحدثان ... ماذ أسمع . أصغيت ثم استعدت السيدتين حديثهما .

ظهرت المعجزة في لورد منذ يومين اثنين ، ذلك ان أسرة أسبانية اقبلت الى لورد ومعها فتاة مقعدة ؛ فلم يكد

رجال الدين يغمسون هذه الفتاة في الحوض؛ويفرغون من صلاتهم ودعائهم حتى نهضت الفتاة معتدلة القوام ، لا أقول تسعى بل تجري .. ظهرت المعجزة في لورد وذاع أمرها وتحقق الناس صحتها ،واعترف بذلك مكتب الاثبات الطبي الذي أقيم في لورد؛ليثبت صحة المعجزات او ينكرها. واذن فسيحسن الفصل في لورد هذا العام ، ولكني آسف الأسف كله لأني لم أسمع بهذه المعجزة الا في القطار على بعد عشر ساعات من لورد ..

بوليجان (فرنسا) في ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٤ .

٣

الخيل ! الخيل!

دوى هذا النداء في ارجاء الغابة ، وما أسرع ما استجاب له الفرسان يهرعون من كل صوب حتى بلغوا جيادهم فامتطوها ، وما هي الا أن أخذت تعدو بهم عدواً سريعاً، ولكنه منسجم تنظمه ألحان الموسيقى التي لا تخلو من عذوبة ساذجة ، ولا تبعث على حرب ولا تدعو الى قتال . ذلك أن هؤلاء الفرسان لم يكونوا رجالاً ، وانما كانوا أطفالا ، وأن هذه الخيل لم تكن جياداً مطهمة كريمة النسب ، وانما كانت جياداً من الخشب .

دعا الداعي : الخيل ! الخيل ! فأسرع الأطفال الى الخيل فامتطوها وأسرعت الخيل فدارت بهؤلاء الاطفال ، وأسرعت الموسيقى فعزفت لهم ألحانها ، ووقف الكبار من

رجال ونساء ينظرون ويبسمون فرحين مبتهجين؛ بما يستمتع به أبناؤهم من هذا اللهو البريء ، ثم انتهت دورة الخيل وآن دفع الأجر ، وتقدم الناس يؤدون هذا الأجر عن أبنائهم ، فاذا هذا الأجر مضاعف هذا المساء ، واذا الذي يتقاضاه من الناس قسيس يزدان بلباسه التيلي ، واذا الناس يبذلون ما يطلب اليهم عن طيب نفس وقرة عين ، واذا القسيس يستأنف دعاءه بصوته الضخم : الخيل ! الخيل ! واذا الأطفال يسرعون الى هذه الخيل فيمتطونها واذا الموسيقى تستأنف لحنها . وقضى القسيس مساءه على هذه الحال يدعو الى الخيل ، ويشرف على دورة الخيل ويتقاضى أجور الخيل .

وعلى مسافة قصيرة من هذا القسيس الذي وقف مساءه على تلهية الأطفال وجمع المال طائفة من السيدات ، من خيرة السيدات ، من ذوات المكانة في المدينة ، قد اتخذن لباس الخدم وطفن على الناس ، يقدمن اليهم ألوان الحلوى وصنوف الفاكهة وأكؤس الشاي ، ويقدمن مع هذه الأطعمة والأشربة بسمات عذبة وضحكات حلوة ولحظات فتانة ، ويتقاضين أجر هذا كله أضعافاً مضاعفة . وعلى مسافة من هؤلاء السيدات طائفة أخرى من الفتيات الناشئات يطفن على الناس بأوراق النصيب ، والناس يتهافتون على هذا كله يطعمون ويشربون ويشترون الورق ويمزحون ويفتنون في اللهو النزيه افتنان الأطفال في اللهو البريء . ذلك أن المدينة قد أقامت

في هذا اليوم حفلاً لعمل من أعمال البر ، فأدى كل واحد من اهل المدينة ما للبر عليه من حق .. دفـع هذا ماله ووقف هذا وقته وآثر هذا بلهوه هذا العمل الخيري . وليس في هذا الأمر بدع فحفلات البر مألوفـة في اوربا ومصر ، وأسواق البر معروفة هنا وهنـاك ، والخلقيون يختلفون اختلافاً شديداً في الحكم عـلى هذه الحفلات والأسواق ، قوم يحمدونها لأنها تؤدي الى الخير وقـوم يمقتونها لأنها لا تخلو من لهو وتكلف ، ولان الخير خليق أن يصدر عن الانسان كما تصدر الاشياء الفطرية في غير حيلة ولا تصنع ..ليس في هذه الحفلات بدع اذن ، وما كنت لأحدثك عنها لولا أن رأيت هذا القسيس قد اختار لنفسه هذا النوع من العمل ، فقضى ساعات من نهاره لا يقدس الله ولا يقرأ الانجيل ولا يتغنى بهذه الاغاني التي يقصر عليها القسيسون ظهر يوم الاحد عادة في كنائسهم، وانما يشرف على لهو الاطفال ودورة الخيل ويصيح بأعلى صوته مـن حين الى حين : الخيل ! الخيل ! ويتوسم وجوه الناس فيأخذ منهم أجر الخيل متناسباً مع ما توسم في وجوههم من ثراء أو عسر . لولا أني رأيت هـذا القسيس وسمعته لما فكرت في ان أتحدث اليك بشيء عن هذا الحفل ، بل لقد كنت أود لو لم أكتب بهذا الحديث الى « السياسة » ولا الى صحيفة سيارة . كنت أود لو جعلت هذا الحديث موضوع رسالة خاصة ابعث بها الى

صديق من أصدقائي علماء الدين الاسلامي في مصر ، أبعث بها الى الاستاذ الزنكلوني مثلا ! ولكني احببت ان تكون هذه الرسالة ذائعة يقرؤها الازهريون جميعاً ويفكرون فيها قليلاً أو كثيراً .

لست أخفي على الأزهريين وعلى علماء الدين خاصة، اني أعجبت بهذا القسيس وتمنيت لو أرى علماء الدين عندنا يشرفون على مثل هذه الخيل ويدعون اليها مثل هؤلاء الأطفال ، ويتقاضون على ذلك مثل هذا الاجر يضاعفونه ما شاءت لهم حاجة الاعمال الخيرية ، التي يدعو اليها الدين أو التي تمس اليها حاجة الفقراء والبائسين في مصر .

أعتقد ان علماء الدين في حاجة شديدة الى الوقار والمهابة، وأن حاجتهم الى الوقار والمهابة تحظر عليهم حركات ومواقف تباح لغيرهم من الناس ، ولكني اعتقد ان هذا القسيس الذي كان يدعو الاطفال الى الخيل لم ينزل من وقاره عن قليل ولا كثير وانما اضاف الى هيبته هيبة ، والى وقاره وقاراً ، وادى عمله الديني كما ينبغي ان يؤديه حين سلك الى الخير هذه السبيل الخصبه التي تجمع له من المال ما يحتاج اليه دون ان يتكلف استجداء أو يتحمل العناء في دعوة الناس الى الصدقة والاحسان . فما الذي يمنع رجال الدين في مصر ان يسلكوا مثل هذه السبل ؟ ما الذي يمنع رجال الدين ؟ يمنعهم انهم يعيشون في عصرهم هذا دون ان يكونوا من أهله ، ودون ان يشعروا شعوراً

صحيحاً بحاجاته وضروراته ووسائل العيش فيه . ثم يمنعهم ان الدولة تدر عليهم أرزاقاً قد لا تكون كثيرة ولا غزيرة ولكنها الآن أكثر وأغزر منها منذ عشر سنين . هي بحيث تمكنهم من الحياة الهادئة المطمئنة ، وما احسبهم يطمعون مع الأسف الشديد في أكثر من الحياة المطمئنة . ثم يمنعهم شيء آخر هو أجلّ هذا كله خطراً، وأنا قائله ومعتذر الى علماء الدين من هذه الصراحة في القول ، يمنعهم أن الواجب الذي يشعرون به ويعتقدون أنهم مكلفون أداءه في هذه الحياة ضيق جداً أضيق من الواجب الحقيقي الذي يفرضه عليهم الدين وحاجة الاجتماع . هم يعتقدون أنهم علماء أي أن الله قد أودعهم علوم الدين؛ فهم يبذلون هذه العلوم للناس في الأزهر وملحقاته ، وهم يصلون ويشرفون على اقامة الشعائر الدينية الرسمية . واذا القوا دروسهم وأدوا صلواتهم وألقى بعضهم من حين الى حين خطب الوعظ، فقد أدوا ما يجب عليهم لله والناس. وإذ كان الناس لا يطمعون في علوم الدين اليوم كما كانوا يطمعون فيها في القرن الماضي ، واذ كان الناس لا يختلفون الى المساجد في هذه الأيام كما كانوا يختلفون اليها في الأيام الماضية ، فقد أصبح نفع العلماء للهيئة الاجتماعية كما يقولون محدوداً ، قليلاً ، وسيشتد قلة مع مضي الزمن. لأن اختلاف الناس الى الأزهر سيقل غداً كما قلّ اليوم . ومن هنا يزيد العلماء على حاجة الاجتماع ، وتصبح طائفتهم بعد زمان طويل

أو قصير طائفة لا تشتد الحاجة اليها . إذن فالعلماء بين اثنتين ، اما أن يقاربوا بين أنفسهم وبين الذي يعيشون فيه، وأن يصبحوا كغيرهم من الناس يشعرون بما يشعر به معاصروهم ، واما أن يستعدوا لهذا اليوم الذي ليس منه بدّ ، والذي يصبحون فيه عالة على الجماعة المصرية لا يرجى منهم خير ولا يعتمد عليهم في نفع .

نعم ! يتصور العلماء واجبهم تصوراً ضيقاً جداً ، فهم مكلفون شيئاً آخر غير القاء الدروس واقامة الصلوات ، هم مكلفون ان يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ولم يقل احد ان القاء الدروس وإقامة الصلاة هما كل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . هم مكلفون ان يشتركوا في جميع اعمال الخير . هم مكلفون ان يحتملوا الوان العناء في كشف الضر عن البائسين . هم مكلفون ألا تخلو منهم جماعة خيرية . هم مكلفون ألا تخلو محلة في مصر من آثارهم الخيرية . هم مكلفون أن يتصوروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصوراً صحيحاً واسعاً يجعلهم عضواً نافعاً في الجماعة .

لو يعلم رجال الدين عندنا ماذا يصنع رجال الدين في اوربا من هذه الناحية لدهشوا دهشاً عظيماً ، ولعلموا انهم بعيدون كل البعد عن اداء واجبهم الديني . كتبت من اوربا في السنة الماضية فصولاً عن رجال الدين الغربيين ، وعن هذا الجهد العظيم الذي يبذلونه ليكون حظهم من العلم

والفن كحظ غيرهم من رجال العلم والفن ، وذكرت هذا الأسقف الذي اشترك في مؤتمر التاريخ في بروكسل، وذكرت هؤلاء القسيسين الذين قدموا الى هذا المؤتمر مذكرات قيمة تمس فروع التاريخ على اختلافها، وتمنيت لو استطاع عالم من علماء الدين عندنا ان يشترك في المؤتمر الجغرافي الذي سيقام في مصر في العام المقبل . اما في هذا الفصل فلست اذكر علم رجال الدين الغربيين، ولا اجتهادهم في تحصيل العلم ، وانما اذكر تصورهم لواجبهم الديني وهو مع الأسف الشديد اصح وارقى من تصور علمائنا لواجبهم .

إذهب الى اصغر قرية وأحقرها من قرى اوربا، وتبين عمل القسيس في هذه القرية تجده عظيماً شديد التشعب ، فهو يؤدي قبل كل شيء واجبه الديني المعقد في الكنيسة، يقيم هذه الصلوات الكثيرة المتنوعة، ويتقبل اعترافات المؤمنين الى غير ذلك من اعمال الكنيسة . وهو يعنى بكنيسته عناية مادية؛ فيشرف لا على ان تكون نظيفة حسنة النظام بل على أن تزدان بما استطاع ان يزينها به من آثار الفن ، ثم هو بعد هذا استاذ ديني لأطفال القرية جميعاً يختلفون اليه في كل يوم ، يأخذون عنه مبادىء الدين واصوله ، ثم هو موسيقي بحكم عمله الديني وهو استاذ للموسيقي في قريته، ثم هو متغلغل في حياة القرية لا يفلت من يده مولود ولا ميت ، يتلقى المولود ليعمده ويزور المحتضر ليصلي عليه ويلهمه كلمة الدين ، وهو يجود بنفسه ، ويودعه الى قبره،

ثم هو بعد هذا كله مكلف بحكم الدين ان يبحث عن الضعفاء وذوي الحاجة فيواسيهم ويعزيهم، ويلقى ألوان العناء في حمل الناس على الصدقات؛ يأخذ من اغنيائهم ما يرده على فقرائهم ، ثم هو بعد هذا وذاك رجل طُلَعة يريد أن يتعلم ، فهو يختص بدرس نوع من انواع العلم او لون من الوان الفن .

هذه خلاصة حياة القسيس في قرى اوربا ومدنها . فأين منها حياة رجال الدين في الشرق الاسلامي ؟ ومن هنا انتهت اوربا الى ما انتهت اليه من الالحاد والكفر ورفض الدين ، ولكنها لم تستطع ولن تستطيع ان تخلص من القسيسين . ذلك لأن القسيسين يتطورون مع اوربا ويحتالون في ألا تفوتهم الجماعات ، او تفلت من ايديهم. ويسلكون السبل المختلفة ليصلوا الى قلوب الناس من طريق الدين ان كانوا مؤمنين ، ومن طريق العلم ان كانوا علماء ومن طريق الفن ان كانوا فنيين ، ومن طريق الخير ان كان شيء من هذا لا يعنيهم . ومن هنا كان القسيس في أوربا جزءاً غير منفصل من الجماعات؛ لا يستغني عن الجماعة ولا تستغني الجماعة عنه . ومن هنا انفصلت الكنيسة عن الدولة في فرنسا مثلاً ، وانقطعت معونة الدولة للكنيسة فما انهارت الكنيسة ولا افتقر رجالها؛ وانما أدى الناس الى الكنيسة ورجالها أضعاف ما كانت تؤديه اليهم الدولة . وهذه مدارس الكنيسة في فرنسا تزاحم مدارس الدولة فتزحمها.

فأين رجال الدين في الشرق الاسلامي من رجال الدين في الغرب المسيحي : وماذا يرى الأستاذ الزنكلوني والأستاذ أبو العيون وأصحابهما في هذا كله، وأيهما أجدى وأليق بالكرامة: أنْ يعمل رجال الدين حتى يكرهوا الدولة والأمة على أن يشعروا بالحاجة اليهم، أم لا يعملوا وانما يلحون في الطلب ويبالغون في الالحاح ، ويحرصون على أن يتدخلوا في كل شيء دون أن يشعر الناس بنفعهم حين يتدخلون في كل شيء ؟ أما اني أتمنى على الاساتذة علماء الدين أن يفكروا في هذا ويطيلوا التفكير فيه فقد يجدون فيه عظة وعبرة . ثم لا أخفي عليهم اني معجب بهذا القسيس الذي سمعته يدعو الأطفال الى الخيل ، وأتمنى أن أجد بين شيوخنا من يستطيع في يوم من الأيام أن يدعو الأطفال الى الخيل دون أن يجد من جبته أو عمامته ما يصرفه عن ذلك اويزهده فيه.

بوليجان في ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٤ .

٤

بـاريس

أريد أن أكتب عن باريس ، ولكني لا أدري ماذا أقول عن باريس ، لا لأن الكـلام يعوزني ، ولا لأن الخواطر تنقصني ، بل لأن لدي خواطر لا أستطيع أن أحصيها ولا أن انظمها ، ولأن لدي كلاماً لا أستطيع أن يؤثر بعضه على بعض ، فما أكثر ما أريد أن أقول ، وما أشد عجزي عن تسطير ما أريد أن أقول . وماذا تريد أن أفعل ؟ ولست من الفن ورقة القلب بحيث كان الكاتب الفرنسي «رينان» الذي زار عاصمـة العالم القديم فقدم الى آلهتها هذه الآية الفنية الخالدة التي هي صلاته ، الى آلهـة الحكمة في أتينا . ماذا تريد أن أفعل وليس لي حظ «رينان» من الفن ولا من رقة القلب ، وقد حرمني الله كل خيال

أو قدرة على التصرف في الخيال . ومع ذلك ففي باريس آلهة يستحقون أن يتقدم اليهم الانسان بالصـلاة كما تقدم «رينان» الى آلهة الحكمة في مدينة أتينا .

في باريس علم لا يقاس اليه علم الأتينيين ، وفي باريس فلسفة لا تقاس اليها فلسفة الأتينيين ، وفي باريس حرية لا تذكر معها حرية الأتينيين ، وفي باريس حضارة تهينها ان قرنت اليها حضارة الأتينيين ، وفي باريس حياة يعجز الفرد مهما تكن قوته عن فهمها والاحاطة بها والتعمق في تحليلها ، ثم يعجز الفرد مهما تكن قوته عن أن يعطيك منها صورة صحيحة او مقاربة . ليس بين أتينا وباريس الا شبه واحد وهو أن أتينا كانت عاصمة العالم القديم ، وان باريس عاصمة العالم الحديث . فاذا قررنا هذا الشبه فيجب أن نقرر ما بين المدينتين من فرق وهو عظيم أعظم من أن نتصوره ، هو الفرق بين العالم القديم والعالم الحديث .

أنا مفتون بأتينا وفلسفتها وفلاسفتها وحريتها وزعمائها، ولكني على هذه الفتنة لا أستطيع أن أقيس أتينـا الى باريس.

علم الأتينيين وفلسفتهم ، ماذا كانا بالقياس الى ما في باريس من علم وفلسفة ؟ كانا محاولة ساذجة غليظة فيها ضعف الاطفال وغرورهم لفهم الحياة وتفسيرها . حرية الأتينيين ماذا كانت بالقياس الى الحرية في بـاريس ؟ كانت نوعاً من الامتياز لطائفة من الناس وضرباً من التسلط والاحتكار، انتهى بمصادرة حرية الرأي وبالحكم على سقراط

بالموت . اما باريس فيكفي ان تصل اليها وأن تعيش فيها يوماً أو بعض يوم لتشعر بما لها من عظمة وجلال وحق في الخلود. لست في حاجة الى أن تفهم ، ولست في حاجة الى أن تحلل، ولست في حاجة الى أن تكون عالماً أو أديباً لتكبر باريس أو تقدر مكانتها في الحياة الحديثة. وانما يكفي أن تكون قادراً على أن ترى وقادراً على أن تسمع وقادراً على أن تتنسم الهواء ، وأنا زعيم لك بأنك ستقدر باريس وتكبرها وتحبها .

ليس لي حظ «رينان» من الفـــن لأقدم الى باريس الخالدة مثل ما قدم هو الى أتينا الخالدة ، وليس لي حظ هذا الصديق المسافر الذي يرسل مذكراته الى « السياسة » من حين الى حين والذي أحسبه عـــاد الآن الى مصر . أقول، ليس لي حظ من حلاوة الفكاهة ودقة الملاحظة وخفة الروح وسلامة الذوق لأحدثك عن باريس بشيء يشبه ما حدثك به عنها ، وانما أنا بعيد كل البعد عن هذه الخصال التي امتاز بها هذا الصديق فجعلت فصوله ومقالاته حلوة عذبة أو جعلتها الحلاوة والعذوبة نفسها ، ولكن لي وجهاً خاصاً في حب باريس والاعجاب بها والحياة فيهـــا . وأحسب ان لكل انسان يحب باريس وجهاً خاصاً في حبه لهذه المدينة ، فأنت لا تستطيع أن تحبها من كل وجـــه لأنها أوسع من حياتك واعظم من قدرتك على الحب وأرفع وأجل من أن يحيط بها حب فرد أو أفراد . أما حين

كنت مقيماً في الجبل اخرج مـــن حين الى حين للرياضة فأزور القرى وأتبين ما فيها من جمال طبيعي او انساني ، فقد كنت لا اصل الى قرية او محلة الا حاولت ان اشرب من مائها ، وكان يخيل اليّ اني متى ذقت هذا الماء الذي ينحدر الى هذه القرية او المحلة ويعيش منه اهلهـــا فقد اتصلت نفسي بهذه القرية او المحلة ، وشاركت اهلها في شيء من الاشياء . كذلك كنت ، وأحسبني سأكون ابدا ، لا ابلغ مكاناً الا حاولت ان تكون بيني وبينه صلة قوية او ضعيفة . اما اذا بلغت باريس فلست اطمع في ان اشرب من مائها لاوجد الصلة بيني وبين اهلها ، وانما اطمع في اشياء اخرى بها توجد هذه الصلة . ولا اعتقد اني في باريس حقاً ، الا اذا ارضيت نفسي من هذه الاشياء . يجب ان اشتري كتاباً في العلم او في الادب وان اقرأ منه فصلاً او فصولاً ، ويجب ان اذهب الى ملعب من ملاعب التمثيل الهازل او الجاد وان اصفــق مع المصفقين واضحك مع الضاحكين او ابكي مع الباكين . ثم يجب ان اذهب الى مكان من هذه الامكنة التي يختلف فيها الباريسيون الى آيات الموسيقى ، فأستمع لهذا اللحن البديع ، وانسى امامه نفسي ساعة او ساعتين . فاذا اشتريت كتاباً وقرأت ، واذا ذهبت الى ملعب التمثيل وتأثرت ، واذا سمعت الموسيقى وذهلت لها فأنا في باريس حقاً ، اشعر بما يشعر به الباريسيون ، وقد وجدت بيني وبينهم هذه الصلة التي احب ان توجد بيني

وبين كل مدينة او قرية ازورها .

ولغيري وجوه أخرى في حب باريس . هناك من يحب باريس لما يجد فيها من هذه الحركة العنيفة ، حركة الحياة العملية . وهناك من يحب باريس لأن فيها « مونمارتر » . وهناك من يحب باريس لأن فيها للفرد حرية لا تعدلها حرية ، وضروباً من اللذات منها المباح ومنها المنكر ، منها ما يستطيع الانسان ان يعلنه الى الناس جميعاً ، ومنها ما يحب الانسان أن يخفيه حتى على نفسه . وهناك وجوه أخرى لا يكاد يبلغها الاحصاء . ولكنها كلها تنتهي الى نتيجة واحدة وهي ان شعوب الارض جميعاً قد تحب فرنسا وقد تكرهها ، وقد تكون سلما لها أو حرباً عليها؛ ولكنها كلها مجمعة على حب باريس ، وايثار الاقامة فيها حيناً من الدهر او شطراً من العمر .

ولقد قرأت منذ أسابيع فصلاً نقلته جريدة « الطان » عن احدى الصحف الأمريكية الكبرى ، حاول فيه كاتبه ان يتقصى الأسباب التي تحمل الناس جميعاً على ان يحبوا فرنسا ويؤثروا الاقامة فيها وفي باريس خاصة ؛ فأعجبني هذا الفصل لانه لا يخلو من صواب ولا من طرافة ، ولكنه بعيد كل البعد عن ان يحيط بأطراف المسألة حقاً . يظهر ان الامريكيين يحبون فرنسا عامة وباريس خاصة ، لأن فيها سهولة العيش ولين الحياة وضروباً من اللذة لا يجدونها في

بلادهم ، أهمها لذة الطعام والشراب . فيظهر ان الله لم يرزق بلداً من البلاد من المهارة في اجادة الطعام ما رزق فرنسا . ويظهر انــه لم يرزق بلداً من البلاد من جودة الاشربة ما رزق فرنسا . فكثير من الأجانب الذين يهرعون الى فرنسا في جميع اجزاء السنة انما يهرعون اليها لأنهــم يأكلــون فيها فيجدون الاكل ، ويشربون فيها فيجدون الشراب . وكثير منهم يهرعون الى فرنسا والى باريس خاصة لأنهم يجدون في الشعب الفرنسي والباريسي لينا في الخلق، وصفاء في الطبع ورفقاً في المعاملة وحلاوة في الصلات ، لا يجدونها في بلد آخر . وكثير منهم يهرعون الى فرنسا والى باريس ، لأنهم يجدون في فرنسا وفي باريس شيئاً من الفرح والابتهاج والابتسام للحياة مهما تكن صروفها ، ومهما تكن خطوبها ، لا يجدونه في غير فرنسا وفي غير باريس . وهناك اسباب اخرى ذكرها هذا الكاتب واسباب لم يذكرها. وماذا يعنينا أن نوفق الى احصاء الاسباب التي تحبب فرنسا الى الناس وتحملهم على ان يهرعوا الى باريس كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً . ماذا يعنينا من هذا كله ونحن لا نكتب تاريخاً ولا فلسفة ، وانما نلاحظ حقيقة لا تحتمل شكا ولا انكارا : وهي ان الناس جميعاً مهما تختلف اهواؤهم بالقياس الى فرنسا فهم يحبونها ويحبون منها باريس بنوع خاص .

لست كهذا العالم المصري الذي كان يحب باريس ،

وكان اذا وصل اليها تمرغ على ارضها كما كان يتمرغ قيس بن ذريح على آثار لبنى ! لست كهذا العالم . فما حدثتني نفسي في يوم من الأيام ان اهوي الى ارض باريس لثماً وتقبيلا . بل ان في باريس لأمـــاكن كثيرة يعرفها المصريون الذين اختلفوا الى هذه المدينة ولا اعرفها ولم تحدثني نفسي بأن اعرفها . وان في باريس لاماكن كثيرة اكرهها وأمقت الاختلاف اليها ، ولكني اعشق في باريس مكاناً اعتقد انه اقدس مكان في العـــالم الحديث ، وانه الرأس المفكر لهذا العالم ، لا أستثني منه بلداً ولا مكاناً ، وهو الحي اللاتيني . أنا اعشق هذا الحي وأهيم به هياما ، واعلن في ضعف وتواضع اني لا اكاد احس نفسي فيه ، ولا اكاد اشعر بأني امشي في شوارعه حتّى اشعر ان قد تجدد شبابي واستأنفت كل ما فقدت من نشاط . فأنا اتنفس في حرية ، وافكر في حرية ، واتحرك في حرية . وانا احب الحياة واحرص عليها واتمنى منها المزيد . وأقول ان هذا الحي اللاتيني هو أقدس مكان في العالم الحديث وهو الرأس المفكر لهذا العالم ، ولست اقول هذا عبثاً ، ولا يدفعني اليه الحب والاعجاب ، وانما هو الحق الذي لا يقبل شكا ولا جدالاً . واني لاشعر بشيء من المهابة والاجلال لا استطيع وصفه كلما ذهبت الى هذه الرقعة من الارض التي يقوم فيها « البنطيون » وترتفع فيها كنيسة « سانت جنفييف » . أشعر بهذه المهابة وهذا الاجلال ؛ لأن

هذه الرقعة الصغيرة من الارض كانت مصدر النور الذي انبعث في اوروبا المظلمة اثناء القرون الوسطى قبل النهضة في ايطاليا . لان هذه الرقعة كانت مهد الفلسفة ومأواها حين لم تكن فرنسا كلهـا ولا اوروبا كلها الا ميدانا تصطرع فيه المطامع والمنافع اقبح صراع واشنعه . كانت هذه الرقعة من باريس مصدر الحياة العقلية لاوروبا كلها في القرون الوسطى . ولقد تغير الزمـان ودارت الايام دوراتها المختلفة ، وعبثت الخطوب والاهوال بالعالم الحديث، وظل هذا المكان من باريس مصدر الحياة العقلية للعالم كله، أليست تقوم فيه جامعة « السربون » ؟ أليست تقوم فيه « الكوليج دي فرانس » ؟ ولقد احب ان اجد مهداً علمياً في اوروبا او امريكا اقرنه الى « السربون » والى « الكوليج دي فرانس » ، وأحصي له من الآثار في إحياء العقل الانساني وترقيته ما يقرب من آثار « السربون » و « الكوليج دي فرانس » فيعييني البحث ويخطئني ما اريد .

ان فرنسا لتستطيع ان تتعرض للأزمات المختلفة وان تتجشم من الاهوال ضروبا وصروفاً ، وان تنزل بها المحنة بعد المحنة والبلاء بعد البلاء ، وان فرنسا لتستطيع ان تبلغ من المجد ما تريد وما لا تريد ، وأن تحرز من ألوان الظفر ما تحب وما لا تحب ، وان فرنسا لتستطيع ان تنزل من قلوب الناس منزلة البغض او منزلة الحب ، تستطيع

فرنسا ان تفعل هذا كله وان تتعرض لهـــذا كله، ولكنها واثقة بالخلود ، واثقة باكبار الناس اياها وتقديسهم لها ما يبقي فيها الحي اللاتيني ، وما قامت في هذا الحي «السربون» « والكوليج دي فرانس » .

باريس في ٩ سبتمبر سنة ١٩٢٤ .

٥

في ملاهي باريس

نعم ! فقد لهوت وكانت رغبتي في اللهو من البواعث القوية التي حببت الي الذهاب الى باريس . ولمَ اخفي ذلك واكتمه ؟ وانا اعلم والناس جميعاً يعلمون ان المسافر الى باريس او غيرها من مدن اوروبا انما يتخذ اللهو غرضاً من الاغراض الاساسية في برنامج رحلته . وهل كان السفر نفسه الا ضرباً من اللهو وفناً من فنون العبث يعمد اليه المتعبون ليستريحوا ويرغب فيه المستريحون ليتعبوا ؟ وكنت متعباً . وكنت اريد ان استريح . وكنت ارى الراحة في ان ألهو عن هذه الاشياء التي قضيت فيها العام كله فأجهدتني ، وبغضت اليّ الحياة . وكنت وما زلت اعتقد ان من الحق للناس علي ، وان من الحق لي على نفسي ، ان اعود الى هذه

الاشياء التي سئمتها نفسي وسئمتني وان استأنف هذا العمل الذي اجهدني طوال العام الماضي حتى بغض الي الحياة . وكنت اعلم اني لن استطيع العودة الى هذه الاشياء واستئناف هذا العمل الا اذا استرحت ولهوت واخذت من الراحة واللهو بحظ عظيم . وقد فعلت ، وقد عدت الى مصر ، وقد استأنفت هذا العمل الشاق ، فاذا هو هين لين لا عسر فيه ولا مشقة . ولكني اعلم انه سيعسر ، وانه سيشق ، واني سأسأمه ، وانه سيسأمني واني سأنصرف عنه وانه سيزهد في ، وأني سأحتاج الى الراحة واللهو ، واني سأستريح وألهو ثم استأنف الجد والعمل . وكذلك حياتنا نتعب لنستريح ، ونستريح لنتعب ؛ حتى يأتي هذا اليوم الذي لا تعب بعده ولا راحة .

اذاً فقد لهوت في باريس ، لا اكتم ذلك ولا اخفيه. ولم اكتمه او اخفيه ، وليس فيه والحمد لله مأثم ولا مدعاة الى لوم ؟ وانما هو ضحك بريء وعبث تطمئن اليه النفس الهادئة التي لا تعبث بها الاهواء ولا تعصف بها الشهوات.

لهوت في باريس واختلفت فيها الى اندية اللهو التي هي زينة تلك المدينة وبهجتها ، ولها في رفع شأن باريس وتقديمها على غيرها من مدن الارض اثر قد لا يكون اقل من اثر « السربون » و « الكوليج دي فرانس » والمجامع العلمية المختلفة . ولم لا ؟ أليست جامعة باريس ومعاهدها العلمية ملجأ للعقل الانساني تأوي اليه ثمراته ونتائج بحثه في العلوم

والفنون المختلفة ؟ وهل أندية اللهو الباريسي البريء الا ملاجىء للعقل الانساني والشعور الانساني ؟ فيها تظهر ثمراتها الحلوة والمرة ، وفيها يتعلم الانسان من الانسان ؛ ويظهر الانسان على الانسان ، وفيها يتعلم الانسان كيف يكون حيواناً اجتماعياً كما يقول ارسططاليس او مدنياً بالطبع كما يقول فلاسفة العرب .

لست ادري أيشعر المصريون المتعبون الذين يذهبون الى باريس بمثل ما كنت اشعر به هذا الصيف ، فقد كنت شديد الميل الى اندية الهزل والضحك شديد الانصراف عن اندية الجد والعبوس . لم أكن اميل في هذا الصيف الى بيت موليير ولا الى ما يمثل فيه من جد . بل لم اكن اميل بوجه ما الى التراجيديا؛ انما كان ميلي كله الى الكوميديا من جهة والى الموسيقى من جهة اخرى .

ولقد حاولت ان اتبين في نفسي اسباب هذا الميل الى ما يضحك ويلهي، والانصراف عما يحزن ويعظ؛ فلم اوفق الا الى سبب واحد لا ادري أخطأ هو ام صواب؟ ذلك اننا «مفطومون» في مصر، كما يقول الفرنسيون، من اللهو الصريح البريء، ومن الضحك الذي يريح النفس حقاً ويجلو عن القلب اصداء الحياة العاملة . وهذه الحياة العاملة نفسها كئيبة في مصر منذ سنين ، وقد اثقلتها الهموم وأفعمتها الأحزان ،فنحن مشفقون على منافعنا العامة، نخشى ان يعبث بها الخصوم في الخارج او ان يضيعها المواطنون

في الداخل . ونحن مشفقون على منافعنا الخاصة، نخشى ان تعبث بها الخصومات الحزبية وتأتي عليها العواصف السياسية. نحن قلقون لا نطمئن الى شيء ولا نثق بشيء ولا نبسم لشيء . فليس عجيباً اذا خلصنا من هذا الجو القلق المضطرب ان نتهالك على هذه الاشياء التي حُرمناها في مصر، وحال بيننا وبينها طبعنا من جهة، واضطرابنا السياسي والاجتماعي من جهة اخرى .

نعم ! فطبعنا لا يخلو من ظلمة ، ومزاجنا أقرب الى المرارة والحزن منه الى الدعابة والابتسام .

نحن لا نلهو، لأننا لا نعرف اللهو ولأن في طباعنا نفوراً من اللهو . ولست أدري أمخطىء أنا أم مصيب في هذه الملاحظة وهي أننا كنا بعد الثورة الوطنية الأخيرة قد أخذنا نتعلم اللهو بل نسرف فيه ، فكانت الأغاني الفكاهية ذائعة عامة ، وكان التمثيل الفكاهي رائجاً ، منتشراً ، وكنت لا تكاد تمضي في الشوارع العامة الا سمعت الأطفال والشبان من العمال ومن اليهم يتغنون أغاني « كشكش » . وكنت لا تكاد تمر بين الدور في الأحياء الراقية اذا أقبل المساء او جنّ الليل الا سمعت البيانو يوقع الحان كشكش . وربما وقفت لاستماع صوت رخيم عذب يتغنى مع هذا الايقاع . وكان أصحاب الأخلاق وأهل الحرص على الآداب العامة ينكرون هذا الفساد ويشفقون منه . وكنا نقول ان هذا الانحلال الخلقي عرض من أعراض الثورة . وكنا نستبشر

به لأن الثورة الفرنسية قد استتبعت مثله ، فكان الفرنسيون يجاهدون أعداءهم الداخليين والخارجيين ، وكانوا يحتملون آلام الجوع والفاقة، ولكنهم كانوا يلهون ويسرفون في اللهو . وربما كانوا يستعينون باللهو على ما كانوا يأتون من جلائل الأعمال ويحتملون من أثقال الحياة .

كنا كذلك ، وأظن أن السلطة العامة احتاجت في بعض الأحيان الى أن تدخل في الأمر وتكفكف من غلواء المسرفين، فأقفلت أو حاولت ان تقفل بعض المراقص . أما الآن فأحسب أن هذا قد تغير وأننا قد انصرفنا عن اللهو انصرافاً واضحاً .

انصرفنا عن اللهو دون ان يعظم حظنا من الجد ، فليست حياتنا العامة والخاصة أكثر انتاجاً وأشد خصباً الآن منها حين كنا نلهو ونعبث . ولعلي لا أغلو في الخطأ اذا لاحظت أن حياتنا الدستورية هي التي صرفتنا عما كنا فيه من لهو ، وأزالت عن شفاهنا هذا الابتسام للحياة . ذلك لأننا اعتقدنا يوم نفذ الدستور وأشرف البرلمان على الحكم أن الأمر قد رُدّ الى اهله ، وأننا مقبلون على ساعات الجد والعمل، فانتظرنا وما زلنا ننتظر .

ولِمَ لا نقول كلمة الحق ؟ كانت الوزارات التي أشرفت على الحكم قبل الدستور قليلة الحظ من ثقة الجماهير فلم يكن الناس يحفلون بها ، ولا ينتظرون منها خيراً، بل كانوا يسيئون بها الظن ويتخذونها موضعاً للعبث والنقد

وكانت أعمالها وقراراتها تلهم الممثلين الهازلين والمغنين العابثين . وكان الناس يرتاحون الى الضحك منها واتخاذها سخرية وهزؤاً . أما الآن فقد اشرف على الحكم رجال كانت تحبهم الجماهير وتفتن بهم ، فلم يكن من الميسور أن تتخذهم الجماهير موضوعاً للهو والعبث . واذا لم تعبث الجماهير بحكامها ولم تسخر من وزرائها ونوابها فهي مضطرة الى الحزن والكآبة .

سلني عما يميز الديمقراطية حقاً ، أجبك بأن النظام الديمقراطي الصحيح هو الذي يتيح للجماهير أن تلهو على حساب حكوماتها بل على حساب أبطالها . فاذا أردت دليلاً ناطقاً بصدق هذا التعريف : فاذهب الى باريس واختلف الى أندية اللهو فيها واسمع الى ما يقال عن « هريو » و «دومرج» ، وعن «بوانكاريه» و «ملران» ، وانظر الى هذه الجماهير الفرنسية المختلفة تتهالك ضحكاً من وزرائها ورؤساء جمهوريتها ، أستغفر الله بل من علمائها وكتابها . ومهما أنس فلن أنسى أغنيتين سمعتهما في باريس ، ورأيت ابتهاج الجماهير لهما . في احداهما مقارنة بين أمعاء المسيو هريو رئيس الوزارة الفرنسية القائمة ، وأمعاء المسيو بوانكاريه رئيس الوزارة الفرنسية المستقيلة ، وفي الأخرى عبث بالمسيو هريو حين يعمد الى التليفون .

ولكني قد بعدت أشد البعد عما كنت أريد ان اتحدث اليك فيه ، وهو ملاهي باريس . وقد يحسن أن اعود الى

هذا الحديث .

لم أكن حسن الحظ هذا الصيف ، وما اظن أن غيري كان أحسن حظاً مني . فقد وصلنا الى باريس ايام الراحة حين يتفرق عنها الممثلون النابهون ليجوبوا اقطار الأرض الفرنسية والأجنبية، وليعرضوا فنهم على المصطافين في سواحل البحر ومدن المياه ، وحين يستريح الكتّاب استعداداً لفصل الشتاء اذ يعرضون آثارهم الجديدة على الجمهور الباريسي وقد عاد من مصايفه الى باريس ، وحين تجتهد الملاعب التمثيلية في ان تستغل ما لديها من قصص الفصل الماضي لتلهي بها السائحين الذين يمرون بباريس . ومع ذلك فقد لهوت حقاً وضحكت كثيراً .

ولقد يكون من العسير ان اذكر دون ان اضحك قصة شهدتّها في ملعب « الباليه رويال » عنوانها « قبلني » ؛ كان الممثلون يمثلونها للمرات الأخيرة ويستعدون لتمثيل قصة اخرى ظهرت اول هذا الشهر ، ومع ذلك فقد كان الملعب مكتظاً بالنظارة . والغريب من امر باريس انك تستطيع ان تزورها في أي فصل من فصول السنة وان تختلف الى ملاعبها وانديتها وبيوتها التجارية ، فستجدها دائماً مكتظة بالناس وستضطر دائماً الى ان تتخذ الحيطة لتبلغ منهـا ما تريد .

تريد أن تشهد قصة تمثيلية فيجب ان تؤجر كرسيك في الملعب قبل يوم التمثيل . تريد ان تشتري شيئـاً في

احد البيوت التجارية الكبرى فيجب ان تذهب في الصباح او ان تكن صبوراً محتملاً ان ذهبت في المساء .

ذهبت الى الملعب بعد ظهر يوم من ايام الآحاد الباريسية، ولم أكن قد احتطت وكان المطر عنيفاً ثقيلاً، فلم اجد الا كراسي فاحشة الغلاء فاتخذت منها كرسين ، واعترف بأني لم آسف على مـــا انفقت لأني ضحكت بأكثر من ستين فرنكاً !!

اسرة شريفة كانت غنية ثم اصابها الفقر ، تقيم في قصرها المرهون محتملة الواناً من الضيق ، ثم تصبح ذات يوم واذا القصر قد بيع من اجنبي ، واذا هي مضطرة الى ان تترك هذا القصر الذي تتوارثه منذ خمسة قرون . ولكن لهذه الاسرة شاباً مسرفاً في اللعب والعبث قد ادى واجبه الوطني اثناء الحرب وعرف في الخندق صديقاً من الطبقات المنحطة امه تبيع الفاكهة ، وقد انقضت الحرب واغتنى ابن بائع الفاكهة، حتى اصبح ضخم الثروة فكتب اليه صديقه الشريف يقترض منه مالاً لأنه خسر في اللعب، واقبل هذا الصديق يحمل الى صديقه ما اراد . فانظر الى هذه الاسرة النبيلة تأبى ان تقبله في القصر ، وان تضيفه اياماً. حتى اذا قبلت ذلك بعد مشقة اخذت تتبرم بالفتى وتزدريه ، لأنه لا يعرف طرائق الحياة الأرستقراطية . وكانت عمة الشاب النبيل اشد الاسرة بغضاً له وتبرماً به ، لا تكاد تلحظه ولا تكاد تحسب لوجوده حساباً . ولكن

الفتى علم ببؤس هذه الاسرة واضطرارها الى ان تترك القصر فأسرع فاشتراه سراً، ثم اخذت الاسرة تظهر شيئاً فشيئاً على هذا السر حتى علمت به ، واذا هي العوبة في يد هذا الشاب الذي تزدريه ولا تضيفه الا كارهة .ولكن هذا الشاب كريم خير ، فهو يعرض القصر على الأسرة ولا يبتغي له الا ثمناً ضئيلاً هو ان «يقبل» هذه المرأة التي تزدريه وتغلو في بغضه ، فاذا عرض عليهم هذه الصفقة اضطربوا لها اضطراباً شديداً . فأما الأسرة كلها فتقبل ، واما هذه المرأة فتأبى وتنفر ثم تذكر انها قد تطرد من القصر وان الاسرة قد تصبح مشردة ، فتضطر الى القبول مقتنعة بأنها تقدم نفسها ضحية في سبيل الاحتفاظ بالكرامة والتراث القديم . وقد استعدت لهذه التضحية كما استعدت «ايفيجيني» لتضحي على مذبح أرتميس . ثم خلت الى الفتى فوقفت موقف الجلال وقالت له في ازدراء وسخريـــة واذعان للقضاء المحتوم: «قبلني». ولكن الفتى كريم، فهو لا يريد ان يقبل هذه المرأة ، وانما يكفيه انها قد اذعنت لما يريد وهو مستعد لأن ينزل للأسرة عن هذا القصر ، ولكن المرأة قد دهشت لهذا الانصراف عن تقبيلها ، وكأنها تعجب بكرم هذا الفتى ، وكأنها في الوقت نفسه تسخط على هذا الكرم وكأنها كانت تحرص على هذه القبلة دون ان تعلم بهذا الحرص ، وكأنهـــا ترى عدول الفتى عن تقبيلها اهانة لها واصغاراً لجمالها . تشعر بهذا كله شعوراً

واضحاً غامضاً في وقت واحد .

وكنت ترى الفتى يكره هذه المرأة ويريد ان يذلها ، ولكنك تراه الآن لا يكرهها بل يكبرها ولا يريد ان يذلها بل يريد ان يجلها ، واذا هو يعلن اليها حبه في هذه اللغة الشعبية الغليظة الصريحة ، واذا هي تضطرب لهذا الحب اضطراباً عنيفاً ، واذا الحب قد ازال ما كان بينهما من مسافة مادية ومعنوية ، واذا هو يتجاوز القبلة . فاذا كان الصبح فهي آسفة نادمة تتقطع لوعة وندماً لأنها اقترفت هذا الاثم مع رجل ليس من طبقتها ، وهي تعلم ان نساء من اسرتها قد اقترفن هذه الخطيئة ولكن احداهن اقترفتها مع رجل من رجال القصر الملكي والاخرى مع كردينال. أما هي فقد اقترفتها مع رجل امه تبيع الفاكهة . وهي تريد ان تأخذ نفسها بأشد انواع العقوبة، تريد ان تزهد في الحياة وان تذهب الى الدير والفتى بين يديها يعتذر ويستغفر ويعلن اليها في ضراعة ومذلة انه سيبرح القصر حتى لا ترى وجهه البغيض ، فاذا سمعت هذه الجملة غضبت غضباً لا حد له وعنفت الفتى تعنيفاً ثقيلاً قائلة : اهكذا تريد ان تسليني عن هذه النكبة المنكرة ؟! ثم فهمنا انها تريد نوعاً آخر من انواع التسلية وفناً آخر من فنون النسيان والعزاء ... !!

ولست اتم لك تلخيص القصة ، وانما يكفي ان تعلم انها تنتهي بالزواج بين هذين المحبين لأن شريفاً انجليزياً

تبنى الفتى ومنحه ألقاب شرفه فأصبح كفئاً لعشيقته . .

ولِمَ تبنى الشريف الانكليزي هذا الفتى ؟ لا تسل عن ذلك . فقد يكون في الجواب على هذا السؤال ما يفضح أم هذا الفتى وقد ماتت . ولا ينبغي ان يذكــر الموتى الا بخير .

على أني قد زرت ملاعب اخرى وشهدت فيها قصصاً اخرى وسأتحدث عنها في فصل آخر .

٦

زوج ألين

كنت اريد أن أضحك حين ذهبت الى ملعب ميشيل لأشهد تمثيل هذه القصة « زوج ألين » ، وكنت واثقاً بأنني سأضحك وسأضحك كثيراً ، لان العنوان في نفسه مضحك ولأن القصة كانت تمثل لاول مرة ، فلم يكن النقاد قد كتبوا عنها بعد ، ولأن أسماء الممثلين الذين اشتركوا في تمثيلها كانت تدل على طائفة من الذين مهروا في الفن المضحك ، فأسرعت الى الملعب مبتهجاً ، وكأني كنت اضحك مقدماً ، وكذلك شأن الناس في باريس يذوقون مقدماً ما يبتغون من لذة لانهم يعلمون ان هذه اللذة ستكون قوية حادة ، وانهم سيظفرون منها بأكثر مما يبتغون .

ذهبنا الى الملعب ضاحكين ، ولم يكد يرفع الستار حتى اغرقنا في الضحك ، ولكن ما هي الا دقائق حتى استحال هذا الضحك الى حزن وعبوس ، وحتى احسسنا في انفسنا شعوراً غريباً ليس من اليسير تفسيره ،لأنه شيء ليس بالسرور الخالص ولا بالحزن الخالص ، او قل انه شيء أبلغ اثراً في النفس من الحزن الخالص ، ولكنه يُكرهك مع ذلك على الابتسام ، وربما اكرهك على الضحك والاغراق فيه. تبسم وانت عابس وتضحك وأنت محزون .

ذلك لأن الممثل يعرض عليك من خصال الانسان ، ما يضحكك مظهره اردت ام لم ترد ، وما يحزنك مخبره رضيت ام لم ترض .

لا يكاد يرفع الستار حتى ترى امرأة متقدمة في السن اقرب الى الشيخوخة منها الى التوسط في العمر ، لباسها ملائم لسنها وملائم لمصدرها ولطبقتها الاجتماعية ، فلا تكاد تسمع حديثها حتى تحس انها ليست من باريس ، وانما وفدت من الاقاليم ، وحتى تفهم انها من هذه الطبقة الغامضة التي لا تبلغ اوساط الناس ولا تريد ان تنحط الى سفلتهم . قد مات عنها زوجها وترك لها ابنة هي « ألين » ، وهي بارعة الجمال رشيقة القد ، عذبة الصوت ، قد ضاقت الحياة بها وبابنتها ، فلجأتا الى باريس ، وآواهما رجل موسيقي بارع في فنه ، ولكنه سيء الحظ بهذا الفن ، لا يكسب حياته الا بمشقة ، احب الفتاة فآواها وآوى أمها

وأصبح أستاذها وعشيقها والقيم على حياتها . وقد مهرت الفتاة في الغناء كما مهرت في الرقص ، وتقدمت الى احد الملاعب الباريسية ، فقبلت فيه مغنية راقصة ، وهي تبدأ عملها هذه الليلة وامها تنتظرها متأثرة ، مضطربة فرحة ، مشفقة تقدر الفوز وتريد ان تحتفل به ، فهي تعد مائدة عليها من الطعام والشراب ؛ هذه الألوان التي لا يرضاها الموسرون ولا يظفر بها المعسرون الا بعد الجهد والعناء ، وهي تتحدث بكل ما في نفسها الى خادم لها حديثة السن، خفيفة الحركة ، مسرفة في القول ، فلا تكـــاد تسمع حوارهما حتى يأخذك الضحك فتغرق فيه حين ترى هذه المرأة التي تكاد تكون شيخة، تتحدث في لهجة الجد الى هذه الفتاة التي تكاد تكون طفلة !! وهما في هذا الحديث الذي تريانه جداً ونضحك نحن منه ، اذ يدخل الموسيقي فرحاً ، قد ملأه الفرح اضطراباً ، فهو يبكي ولكن بكاءه نفسه مضحك ، وهو يعلن الى الأم فوز ابنتها ويحاول ان يمثل لها هذا الفوز ، فيجتهد في تقليد الفتاة حين غنت بعض المقطوعات التي اعجب بها الجمهور ، والأم سعيدة مغتبطة ، ولكنها مع ذلك ليست راضية لأنها تكره الملاهي وكانت تود لو استطاعت ان تجد عنها منصرفاً لابنتها ، اما الموسيقي فسعيد بهذا الفوز ولكنه مشفق منه ، مشفق لانه يخشى ان تنصرف الفتاة عنه الى هؤلاء النظارة الاغنياء الذين سيرونها في الملهى وسيتملقونها .

تحس منه ذلك ، وتحس ايضاً انه يحاول كتمان هذا الخوف ، وقد اقبلت الفتاة فرحة ، مبتهجة ، متأثرة ، فهي تقبّل امها وتضم عاشقها وتشكره ، ولكن لن يتاح لهؤلاء الناس ان يحتفلوا بهذا الفوز فيما بينهم فقد اقبل مدير الملهى واعوانه ورجل غني من زعماء الصناعة يهنئون الفتاة بهذا الفوز ، ويدعونها الى ان تنفق معهم شطراً من الليل في حانة من هذه الحانات التي يفد اليها الباريسيون اذا خرجوا من الملاعب ، فيأكلون ويشربون ويعبثون . ونحن نحس انهم عرضوا ذلك على الفتاة فقبلته قبل ان تعود الى اهلها ، ولكنها تظهر التردد الآن ، لأنها لا تريد ان تترك صاحبها. فما اسرع ما يدعو القوم صاحبها الى الذهاب معهم فيعتذر ويلحون وتظهر هي الرغبة فيقبل كارهاً . وينصرفون على ان يرسلوا اليها السيارة بعد حين . فاذا خلا العاشقان رأينا هذه الاشياء التي تُطير القلوب سروراً وتقطبها حزناً . رأينا الموسيقي يريد ان يلبس زي السمر ، فاذا ثيابه وأدواته من الرداءة والبلى بحيث يخجله ذلك ويؤذيه . ولكنه مبتسم يجتهد في أن يكون حسن الزينة ، واذا هو يفتقد أزراره، فاذا وجد واحداً اخطأه الآخر ، وصاحبته تتزين ، وقد اعارها الملعب ثوب الرقص فهي فيه خلابة بارعة . ولكن كثيراً من ادوات الزينة ينقصها وهي تشكو ذلك مغتاظة ، فاذا احست من صاحبها الألم ابتسمت وتكلفت تهوين الأمر عليه ، وصاحبها يعدها بمضاعفة العمل ليكسب لها ما تحتاج

اليه . وقد اقبلت السيارة فانظر الى الأم مبتهجة ، مفتونة بجمال ابنتها ، وانظر اليها تتبع ابنتها وقد اخذت بفضل ثوبها حتى لا يصيبه غبار السلم ، وانظر الى الخادم الطفلة تسبقهم جميعاً وفي يدها الشمعة تضيء السلم ، وانظر الى العاشق محزوناً يتكلف الابتهاج ، وبائساً يتكلف النعيم .

فاذا كان الفصل الثاني فقد تغير هذا كله ، وسترى قوماً تنكرهم لأن النعمة ألمت بهم فأزالت كل ما رأيت في الفصل الماضي من مظاهر البؤس . ذلك لأن « ألين » قد اشتهر امرها وظهر نبوغها ، فابتسمت لها الثروة واصبحت لا تشكو عسراً ولا ضيقاً ، وظهرت آثار ذلك حولها فأما أمها فليست شيخة ولا كالشيخة ، وانما هي امرأة وسط فيها قوة وشباب ، تلبس على آخر طراز ، وتزدان على آخر طراز ، وقد تغيرت لهجتهـا فهي باريسية ، وتغير صوتها فهو رخيم ، وتغيرت حركاتها فهي رشيقة ممتازة. وأما الموسيقي فقد اصبح شاباً قوياً بادي الظرف حسن الزينة رائع المنظر وقد اقترن بصاحبته . وكذلك الخادم تغيرت وامتازت . والغريب أنها ليست وحدها في البيت بل يشاركها غلام عليه العناية بغرف الاستقبال وما اليها . ولسنا في باريس ولا في ذلك البيت الذي يضـاء بالشمع ويخشى غباره على فضل الثياب ، وانما نحن في بيت انيق فخم ، في مصطاف على ساحل البحر يجمع ارقى الطبقات وأغناها اذا اقبل الصيف من كل عام . ونحن نرى مدير الملعب

وصاحبته واعوانه وذلك الرجل الغني يترددون على «ألين» فيلعبون ويصفقون ، ونحن نرى زوج « ألين » سعيداً مغتبطاً ينبىء صديقه بأن الله قد أذن له ان يكون غنياً ، وأنه يضع قصة موسيقية ستنال الجائزة من غير شك ، وانه سيكون ناقداً موسيقياً لصحيفة كبرى ، وأن كل شيء في الحياة يبسم له . ولكن انظر الى القوم قد أقبلوا ؛ وانظر الى الموسيقي قد خرج مع صديقه في بعض شأنه ، وانظر الى « ألين » قد خلت الى الرجل الغني ، بينما يجلس الآخرون أمام غرفة الاستقبال يرقبون عودة الزوج وكأنهم يلعبون . واسمع الى هذا الحديث يقع بين « ألين » وبين صاحبها الغني . فاذا هما عاشقان واذا هي تخون زوجها ، واذا هذه الخيانة مصدر ما ترى من نعيم ، ولكن هذا الرجل ضيق الصدر بهذا الزوج الغبي .

ضيق الصدر لأنه يريد أن يستأثر بصاحبته ، وهذا الزوج الغبي يحول بينه وبين ذلك .

وفي الحق أغبيٌّ هذا الزوج حقاً أم هو متغاب ؟ أليس يتكلف الغفلة ليستمتع بنعيم الحياة ؟

ذلك شيء يفترضه الغني وتأبـــاه « ألين » ، وهما في الحديث والعبث اذ يسمعان صياح اصحابهما الذين يلعبون « لقد اقبل فلان ! لقد أقبل فلان ! » .

تنبها ، فانفصلا . ودخل الموسيقي وانصرف القوم ،

وأخذ الزوجان يتحدثان ، فاذا الرجل محزون بائس ، واذا امرأته اللعوب تسأله عن مصدر هذا الحزن ؛ فيتردد ، ثم يجيبها بأنه سمع الناس يذكرونه فيقولون : « زوج ألين » ولا يسمونه باسمه ، وبأنه رآهم يشيرون اليه ويبتسمون، فهو اذن يشك . وهي تدافعه عن هذا الشك بما اوتيت من حيلة ودل ودعابة . وانظر اليه قد اخذ حقيبة امرأته ونظر فيها فاذا مقدار ضخم من المال فلا يزداد الا شكا . وانظر اليـــه يذكر أن امرأته لعبت الميسر امس وخسرت كثيراً ، ولم تنبئه بشيء وانما سمع بذلك عفوا ، فهو لا يزداد الا شكا . وانظر اليه قد استكشف عند امرأته عقداً من الجوهر لا علم له به فلا يزداد الا شكاً . ولكنها ماهرة وهو عاشق فتستطيع ان تخدعه عن أمرها وان تستميله اليها وأن تخلبه بما تبذل من لذة ، وهو اغبى من غلامه الذي يفهم كل شيء ، ويتحدث الى زميلته الخادم بكل شيء .

فاذا كان الفصل الثالث تحدث الموسيقي الى صديقه وقد استيقن كل شيء ، واصبح لا يشك في خيانة امرأته .

ذلك أن القوم اعتزموا الخروج للنزهة وتخلف هو عنهم متكلفا العمل ، ثم تبعهم وهم لا يعلمون فلم ير فيهم زوجه، ولم ير فيهم ذلك الرجل الغني ، واذن فقد كذبت عليه امرأته حين زعمت انها خارجة للنزهة وانفقت يومها مع صاحبها . ونحن نعلم ذلك لاننا سمعناه في الفصل الثاني . وانظر الى هذا الموسيقي متألماً محزوناً ولكنه متجلد صبور،

يعلن الى صديقه انه سيترك هذه الحياة كلها وسيعود الى حياته الأولى : حياة البؤس والشرف والكرامة ، ولكنه يريد ان يلهو قبل هذه العودة ، وانه للهو أليم .

اقبل القوم جميعاً من نزهتهم وفيهم «ألين» وفيهم الرجل الغني ، وكلهم يقص ما رآه ويصف جمال النزهة والموسيقي مبتهج يتحدث اليهم جميعاً حديث من لا يشك في شيء ، وانت ترى من القوم جميعاً انهم يسخرون منه ، ويرون فيه الغفلة ، وقد هموا بالانصراف ليلتقوا بعد حين الى مائدة العشاء في الحانة . واذا الموسيقي يمسك الرجل الغني ليبقى معه حيناً ، فاذا انصرف القوم وخلا الزوجان الى هذا الرجل الغني بدأت طائفة من المواقف المؤثرة التي تملؤك عطفاً على الزوج وسخطاً على امرأته واعجاباً بالكاتب والممثلين . انظر الى هذا الزوج الموتور يريد ان ينتقم لنفسه ولكرامته ، ولكنه لا يريد ان يكون سخيفاً ، ولا ضحكة ، ولا مجرماً ، فهو لا يريد العنف ولا سفك الدم، وانما يريد ان يكون مترفقاً في انتقامه . انظر اليه يعذب الخائنين عذاباً أليماً لأن موضعه الضمير . يستثير غيرة الرجل الغني بما يبدي من التلطف لامرأته ، وبما يتكلف من مداعبتها وقد ضمها اليه ، ثم اجلسها على حجره ، واخذ يداعبها هذه المداعبة المشروعة بين الزوجين ، والتي لا تكون الا في الخلوة ، والرجل ينظر ويتألم دون ان

يستطيع اعتراضاً او احتجاجاً ، والمرأة خجلة ذليلة بين هذين الرجلين اللذين يتقسمانها ،وهي تتكلف الحياء لتتخلص من هذا الموقف الأليم ولكن الزوج لا يحفل بحيائها ولا بألمها . وهو الآن ينتقل من المداعبة الى الحديث ، فيقص على صاحبه اسرار الزوجية وما تمنحه امرأته من لذة اذا خلت اليه حتى اذا قضى وطره من تعذيب الخائنين واذلالهما أطلق امرأته فذهبت لتصلح من شأنها قبل العشاء ، وخلا هو الى الخائن ، وهنا موقف ليس أقل من الموقف الذي سبقه جمالاً وتأثيراً . هذا الزوج يتحدث الى عاشق امرأته، فما هي الا أن يعلن اليه انه يعلم كل شيء ، فاذا وجم الرجل وسأله عما يريد وانتظر الكارثة ، أعلن الزوج اليه انه لا يريد شيئاً وانه راض بهذه الحال واذا الرجل الخائن شديد الازدراء لهذا الزوج الذي لا يجري الدم في عروقه والذي يرضى ان تكون امرأته شركاً بينه وبين غيره . يريد ان ينصرف فيمسكه الزوج ، اذ ليس بد من الاتفاق على اشياء وتدبير مصالح لا بد من تدبيرها . هما شريكان في المرأة وقد يمكن ان يكونا غداً شريكين في طفل تلده هذه المرأة . وما يزال هذا الزوج يرقى في تمثيل الضعة والمهانة والخيانة والأثم حتى يكشف عن أخس ما في النفس الانسانية من عاطفة . انه يلهو ، وهو يلهو بازدراء الانسان ؛ فاذا بلغ من ذلك ما يريد

اطلق الرجل ، وقد اتفق معه على ان يـأتي بعد حين ليحمل هذه المرأة في سيارته الى حيث يريد . ثم تقبل المرأة فيلقاها زوجها مبتسماً ، وتأخذ في عتابه على مـا أباح من اسرار الزوجية ، فما يزال بها حتى يعلن اليهـا انه عالم بكل شيء وراضٍ عن كل شيء ، وقابل لهذه الشركة التي تضمن لها الثروة والنعيم . واذا المرأة تزدري زوجها حقاً وتحتقره احتقاراً لا حد له ، واذا هي تتألم حقاً لأنها كانت تريد أن يحبها زوجهـا ، وان يكون شديد الغيرة عليها ، فاذا هي ترى نفسها متاعاً يتقسمه رجلان . ولكن الزوج قد اطال الصبر والتكلف وغلا في كظم عواطفه ، فهو لا يستطيع الآن صـبراً ، وانظر اليه وقد انفجر كما ينفجر البركان . فهو ثائر فائر لا يكاد يملك نفسه ، ولا يكاد يمسكها عن اغتيـال هذه المرأة ، وقد ظهر حبه قوياً عنيفاً ، وظهرت غيرته ، وكلها روع وهول وهو يصيح بامرأته « أترين فيّ ما يدلك على انني قواد ؟ » والمرأة وجلة مضطربة ولكنها سعيدة مغتبطة لانها تشهد الحب والغيرة ، ولأن زوجها لا ينظر اليها نظره الى المتاع ، وهي تريد ان تستغفر ، وتريد أن تتوب ، ولكن الزوج يحاول طردهـا ، ثم يبدو له فيطرد نفسه ، وقد انبأها أن صاحبها سيأتي بعد حين ليحملها في سيارته ، وقد انصرف وتركها تعسة ،

بائسة تنتحب وتصيح ، ولكن السيارة قد اقبلت ، وهي تدعو بالباب ، فانظر الى هذه المرأة قد نهضت متثاقلة الى المرآة فأصلحت من شعرها ووجههـا وخرجت في هدوء تجيب داعي اللهو والثروة والنعيم .

القسم الرابع

بين العلم والدين

١

الناس معنيون في هذه الايام عندنا بالخصومة بين العلم والدين . وقد بدأت عنايتهم بهذه الخصومة تشتد منذ السنة الماضية ، حين ظهر كتاب «الاسلام واصول الحكم» فنهض له رجال الدين ينكرونه ويكفرون صاحبه ، ويستعدون عليه السلطان السياسي . وزادت هذه العناية شدة حين ظهر في هذه السنة كتاب «في الشعر الجاهلي» فنهض له رجال الدين ايضاً ينكرونه ، ويكفّرون صاحبه ، ويستعدون عليه السلطان السياسي .

والحق ان هذه الخصومة بين العلم والدين – كما قلت في غير هذا الموضع – قديمة يرجع عهدها الى اول الحياة العقلية الفلسفية . والحق ايضاً ان هذه الخصومة بين العلم والدين ستظل قوية متصلة ما قام العلم وما قام الدين لأن الخلاف بينهما كما سترى اساسي جوهري لا سبيل الى

ازالته ولا الى تخفيفه الا اذا استطاع كل واحد منهما ان ينسى صاحبه نسياناً تاماً ويعرض عنه اعراضاً مطلقاً . وقد نعرض بعد قليل لهذا الموضوع في شيء من التفصيل والاسهاب . ولكن الذي نحب ان نلاحظه منذ الآن هو أن التفكير في هذه الخصومة بين العلم والدين قد حمل بعض المفكرين على ان يلتمسوا لها اسباباً قريبة او بعيدة ، وعلى ان يسألوا انفسهم أليس الى ازالتها من سبيل ؟ وقد نشأ عن هذا التفكير نوع من الفلسفة قيم كثرت فيه الكتب والمباحث . ولسنا نريد ان نعرض له الا من ناحية واحدة وهي الناحية التي تتصل بالسياسة وتحملها على ان تنتصر للعلم مرة وللدين مرة اخرى ، وعلى ان تعتز حيناً بهذا وحيناً بذاك . واذا عرضنا لهذا الموضوع فلسنا نريد الا شيئاً واحداً هو تحقيق التوازن بين هذه المؤثرات الثلاثة في حياة الأفراد والجماعات وهي العلم والسياسة والدين .

الحق ان الخصومة لم تكد تنشأ بين العلم والدين او بين العقل والدين حتى دخلت فيها السياسة فأفسدتها وانصرفت بها عن وجهها المعقول الى وجه آخر ، لم يخل من الأثم بل من الاجرام .

اول خصومة ظاهرة بين العقل والدين هي هذه التي نشأت في آخر القرن الخامس قبل المسيح حين اخذ سقراط يطوف في شوارع أثينا ومعه حواره وفاسفته يقف بهما حيناً عند هذا الحذاء ، وحيناً آخر عند الحمام ، ومرة

في احد الميادين العامة ، ومرة اخرى في نادي الألعاب الرياضية ، ويدعو اليه الشبان والكهول والشيوخ احيانـاً فيحاورهم في الحق والعدل والواجب والقصد وما الى ذلك من هذه المسائل التي كانت تشغل الشعب الأثيني في ذلك الوقت . لم يكن سقراط يتخذ عداوة الدين مذهباً ، ولا الخروج عليه غاية لفلسفته او حواره ، بـل نستطيع ان نقول انه كان من اشد معاصريه محافظة واعتدالاً ، فهو انما كان يخاصم السوفسطائية ، ويريد ان يهدم مذاهبهم في الشك ، وان يرد الى العقل سلطـانه ، ويبين ان حقائق الاشياء ثابتة ، ولكنه كان يحاور على طريقـة السوفسطائية ، وكان يتخذ الشـك سبيلاً الى اليقين ولم يكن يكره ان يضع كل شيء موضـع البحث ، وان يعرض كل شيء للشك حيناً وللانكار حيناً آخر ، فلم يسلم الدين ولا غيره مما كانت تحتفظ به الجماعة الأثينية من خطر هذا الشك والانكار . ولم يسلم الدين من خطر هذا الشك ؛ ولم يسلم منه النظام السياسي الأثيني ايضاً ، فقد كان سقراط يحاور في كل شيء ويعرض – كـما قلنا – كل شيء للشك والانكار . وكان الشعب الأثيني في آخر القرن الخامس قبل المسيح حريصاً مسرفـاً في الحرص على نظامه الديمقراطي الذي ائتمر به الارستقراطيون غير مرة فعرضوه للخطر وأزالوه حيناً ما . فلم يكن من الغريب ان يكره الشعب الأثيني كل فلسفة تمس هذا النظام

الديموقراطي ؛ او تعرضه للشك ، او لتصرف عنه الشباب قليلاً او كثيراً . ولم تكن الديموقراطية الأتينية قد وصلت الى ما وصلت اليه بعض الديموقراطيات الحديثة من الفصل بين الدولة والدين ؛ وانما كانت تقيم السياسة على الدين وترى الدين اصلاً من اصول وجودها ، واساساً من أسس حياتها ، وفصلاً من فصول نظامها السياسي . فكانت فلسفة سقراط امام الديموقراطية الاتينية آثمة من وجهين : آثمة لأنها تعرض النظام نفسه للخطر ، وآثمة لانهـا تعرض الدين للخطر . ومن هنا لم يكد خصوم سقراط يقفونه موقف القضاء من الشعب حتى ظهر تدخل السياسة في الخصومة بين العقل والدين ، وكان موقف سقراط من قضاته اثناء الدفاع وبعد الحكم محنقاً ، يثير السخط ويدعو الى القسوة . فقسا القضاة وأثمت السياسة حين قضت بالموت على ابي الفلسفة .

ومن ذلك الوقت اصبحت الخصومة بين العقل والدين، أو قل بين العلم والدين أمراً لا مندوحة عنه : يخاف الدين كل فلسفة وكل علم ، ويرتاب العلم بكل دين . ومن ذلك الوقت تحدد موقف السياسة بين هذين الخصمين، وظهر انه لن يكون موقف اصلاح بينهما ، وانما هو موقف افساد واحراج واثارة للحفيظة والحقد .

لم يقف سخط السياسة الأتينية على الفلسفة عند القضاء على سقراط وانفاذها هذا القضاء فيه ؛ وانما تجاوزه الى

اضطهاد تلاميذه والشك فيهم ؛ فتفرقوا في الارض واستخفت الفلسفة من اتينا حيناً . فلما عادت اليها وسعتها ، ولكن مع شيء كثير جداً من التحفظ والارتياب ، فما اطمأنت الديموقراطية الاتينية يوماً الى افلاطون ولا رضيت على ارسطاليس ، والناس جميعاً يعلمون ان المعلم الأول كاد يقف من القضاء موقف سقراط لولا أن هرب من أتينا .

٢

ليست الخصومة بين العلم والدين اذن مقصورة على ما نعرف من الخصومة ؛ بين الديانات السماوية والعلم والفلسفة أثناء القرون الوسطى وفي هذا العصر الحديث . وانما هي كما رأيت قديمة ، قد ظهرت بين الديانه الوثنية اليونانية وبين فلسفة سقراط وتلاميذه . ومع ذلك فقد كانت الديانة الوثنية اليونانية من ايسر الديانات وأقربها الى السذاجة وأقلها حظاً من التعصب . وحسبك ان هذه الديانة اليونانية كانت تخلو خلواً تاماً من مؤثرين عنيفين : احدهما الكلام ، والآخر الاكليروس . لم يكن للديانات اليونانية كلام أو لاهوت ، بل لم تكن للديانات اليونانية عقائد محددة ، وانما كانت هذه الديانات عبادات وطقوساً — كما يقولون — لا أكثر ولا اقل . لم تكن للآلهة صفات معروفة معينة يكفر من ينكرها او يشك فيها ، ولم يكن لليونان علم يشبه هذا العلم الذي يتقنه اليهود والنصارى والمسلمون وهو

علم اللاهوت . وكذلك لم يكن لليونان قسيسون يحتكرون هذا العلم ويقومون على حماية الدين وصيانته من عبث العابثين ، أو الحاد الملحدين ، وانما كان كل يوناني قادراً على ان يؤدي للآلهة ما يجب لهم من عبادة ، وكان زعيم الأسرة قسيسها ، وكان زعماء المدينة كهنتها . واذا لم يكن للدين لاهوت يفرضه على الناس فرضاً ، واذا لم يكن للدين هيئة قسيسين أو كهنة يحتكرون حمايته والقيام عليه ، فخليق بهذا الدين ان يكون قليل الحظ من التعصب والجمود . وخليق بهذا الدين أن يكون قليل الحظ من مصادرة العقل ومخاصمة حرية الرأي والوقوف في سبيل التطور والرقي . ومع هذا كله فقد اختصم هذا الدين الساذج اليسير مع الفلسفة وانتهت الخصومة بموت سقراط . ذلك لأن الخلاف بين العلم والدين لا يستمد قوته وعنفه من الفرق بين جوهري العلم والدين فحسب ، وانما يستمد قوته وعنفه من مصدر آخر ، هو ان الدين حظ الكثرة والعلم حظ القلة ، فسواد الناس مؤمن ديان ، مهما يختلف العصر والطور والمكان ، والعلماء أو المفلسفون قلة دائماً . فليس غريباً ان تظهر الخصومة قوية عنيفة بين هذه القلة الشاذة التي نسميها العلماء أو الفلاسفة والتي تفكر على نحو خاص لم يألفه الناس ، وليس من اليسير عليهم ان يألفوه ، والتي لا تكتفي بالتفكير لنفسها ، وانما تريد ان تفكر لنفسها وللناس ايضاً ، والتي اذا فكرت وانتهى تفكيرها

الى رأي لم تكتف بأذاعته وترويجه ، وانما تذود عنه وتجادل ، وتسرف في الذود والجدال ، والتي لا تكتفي بهذا كله وانما تحرص على التأثر بتفكيرها وما ينتهي اليه من راي ، وتحرص على ان تلائم بين حياتها العملية وحياتها العقلية ، فتمتاز من الناس من ناحيتين مختلفتين: تمتاز منهم في حياتهم اليومية ، وتمتاز منهم في القول والتفكير . وانت تعلم ان السواد اشد ما يكون كرهاً للتفوق واعظم ما يكون بغضاً للامتياز ، فهو يريد دائماً ان يكون الناس سواسية في كل شيء ، سواسية في القول والعمل ، سواسية في الاكل والشرب والنوم والمشي وغيرها من مظاهر الحياة . وانت مهما تبحث عن اسباب التطور التي اضطربت لها المدن القديمة ودالت لها الدول الحديثة، فستجد في مقدمة هذه الاسباب سبباً محققاً هو بغض السواد للتفوق والامتياز ، وطموحه الى المساواة بين الناس فاذ كان هذا التفوق يمس اصلاً من اصول الحياة العامة ، بل يمس ايسر هذه الاصول واقربها تناولاً واشدها اتصالاً بالضمائر والنفوس وتأثيراً في الحياة اليومية ، نقول اذا كان التفوق يمس هذا الاصل الذي هو الدين فخليق بالسواد ان يبغضه ويثور به وينكل بالمتفوقين تنكيلاً متى استطاع الى ذلك سبيلاً .

وكذلك كان ميل السواد في اثينا . وكذلك كان موقفه من سقراط وتلاميذه .

٣

على ان تقرير هذا الاصل ، وهو بغض السواد للجديد لا ينتهي بنا الى هذه النتيجة وحدها ، وانما يعيننا على فهم حقائق اخرى وقعت في العصور القديمة والوسطى ولم يحاول الباحثون ان يردوها الى اصولها الصحيحة . فالسواد لا يكره تفوق العلماء وحدهم ، وانما يكره التفوق من حيث هو . قل ان شئت انه يكره كل جديـــد ، وهو مضطر بحكم هذا الكره الى ان يقاوم هذا الجديد مـــا استطاع ، فاما ان ينتصر فلا جديد ، وإمـا ان ينخذل فيتسلط الجديد شيئاً فشيئاً حتى يصبح قديماً ، ويستعير من خصمه الأول كل الاسلحة التي حاربه بها ، ليدافع بها عن نفسه ، ويناهض بها كل جديد . ومن هنا نستطيع ان نفهم ان السواد القديم اليوناني والروماني لم يحارب الفلسفة وحدها ، وانما حارب الدين ايضاً . فأما اليونان فقد وقفوا موقف الخصومة من ديانات شرقية حاولت ان

تنبث في بلادهم ، ووفقوا بعض التوفيق في هذا الموقف، فلم تستطع هذه الديانات الشرقيه ان تنتشر في البلاد اليونانية جهرة ؛ وانما ارتدت عنها ارتداداً او انتشرت فيها خلسة فكونت لنفسها جماعات سرية تؤدي واجبـاتها من وراء ستـار .

واما الرومان فكرهوا في اول الأمر فلسفة اليونان اشد الكره ، لقوها بالازدراء ، ثم قاوموها مقاومة سياسية ، فحظروا درسها وبلغ بهم ذلك ان زعيماً من زعمائهم هو « كاتو القديم » ؛ توسل الى مجلس الشيوخ في ان يتعجل في قضاء حاجة لبعض السفراء اليونانيين ؛ ليترك هؤلاء السفراء المدينة ، ويستريح منهم سواد الشعب . وكان بين هؤلاء السفراء فلاسفة انتهزوا سفارتهم فرصة لالقاء محاضرات فلسفية في روما . ولكن الرومان لم يكرهوا الفلسفة اليونانية وحدها ، وانما كرهوا معها كل جديد ايضاً . وليس ادل على ذلك من اللفظ الذي اصطلح الرومان عليه للتعبير عن الثورة وقلب النظام فهو « الشيء الجديد » فهم لا يقولون ان فلاناً يريد ان يثور ، او ان فلاناً ثار وانما يقولون : ان فلاناً يريد ان يحدث شيئاً جديداً . ذلك ان الرومان كانوا من اشد الشعوب القديمة في الغرب محافظة وحرصاً على القديم . ومع ان دينهم لم يكن اشد مـن الدين اليوناني تعقيدا ، ومع انه لـم يكن كالديانات السماوية يعتمد على كلام او لاهوت ، فقد كان يمتاز من

الدين اليوناني امتيازاً قوياً من وجهين ؛ الأول انه كان اشد من الدين اليوناني تسلطا على حياة الفرد والجماعة ، فقد كان الفرد الروماني من اشد الناس طيرة واشفاقاً ، يخاف من كل شيء ، ويرى تأثير الآلهة في كل شيء ، ويحرص على ان يتملقهم ويترضاهم . وكان وجود الأسرة نفسها قائماً على اصول من الدين . وكانت الجماعة الرومانية كالفرد الروماني حذرة متطيرة . وكان وجودها السياسي كوجود الأسرة قائماً على اصول ثابتة من الدين . ونحن لا نعرف عند اليونان زجراً ولا عيافة ولا قيافة ، ولكننا نرى هذا كله عند الرومان ونراه مؤثراً اشد التأثير في الحياة الخاصة والعامة جميعاً . والثاني ان هذا الفرق بين الفرد اليوناني والروماني من حيث التأثر بالدين قد استتبع نتيجته الطبيعية ، وهي ان تكون عنـــاية السياسة بالدين ملائمة لشدة ما لهذا الدين من التأثير في نفوس الأفراد والجماعات ، فنظمت حماية السياسة بالدين في روما تنظيماً قوياً ، وقام في روما شيء يشبه (الاكليروس) له سلطته الدينية وله امتيازاته ايضاً . واذ كان رئيس الدولة سواء أكان ملكاً او قنصلاً انما يستمد سلطته من الشعب بعد استشارة الآلهة ، أو قل من الآلهة بعد استشارة الشعب ، فقـــد كان الواجب الأول على الملك او القنصلين حماية الدين . وكذلك قامت بحمـــاية الدين في روما جماعة (الاكليروس) وهيئة الحكومة ومجلس الشيوخ الذي كان

واجبه الاول حماية ما ترك الآباء . فلا تعجب اذا رأيت الرومانيين يقاومون الجديد مهما يكـــن ، ويشتدون في مقاومته اذا مس الدين . ولا تعجب اذا رأيت الرومان في عصورهم الاولى يبغضون اشد البغض ويناهضون اشد المناهضة هذه الديانات الأجنبية التي حاولت ان تنبث في روما بعد ان انبسط سلطان روما على الارض .

٤

كل هذا يرجع الى اصل واحد وهو ان الدين اقوى ما يمثل نفس السواد ، فالسواد به كلف ، وله محب ، وعليه حريص ، وعنه ذائد ، يبذل في ذلك ما يستطيع من قوة وجهد . وقد قلت منذ حين ان حرص السواد على دينه لا يكلفه محاربة العلم والفلسفة وحدهما وانما يكلفه محاربة كل جديد من شأنه ان يمس الدين . ومن غريب الامر انك اذا فكرت قليلاً فيما تسميه خصومة بين العلم والدين رأيت ان بعض الديانات او ان الديانات السماوية نفسها قد كان ينظر اليها كما ينظر الى العلم ، اي ان الديانات القديمة كانت تكره دين اليهود والنصارى وتحاربها كما كانت تكره فلسفة سقراط وتحاربها لا لشيء الا ان ديني اليهود والنصارى كانا جديدين مخالفين لطبيعة هذه الديانات الوثنية القديمة . ولسنا في حاجة الى ان نقف بك عند هذه الحرب المنكرة التي اثارتها وثنية الرومان على

دين اليهود اولاً وعلى دين النصارى ثانياً . فأنت تعرف من تفصيل هذه الحرب وعن اضطهاد الوثنية لليهودية والنصرانية ما يغنينا عن مثل هذا الاستطراد . ولكننا نلاحظ ان الاسباب التي حملت الوثنية الرومانية على ان تنكر توحيد اليهود والنصارى وتنصب له الحرب وتمزق اهله تمزيقاً ، هي بعينها الاسباب التي حملت وثنية اليونان في آخر القرن الخامس قبل المسيح على ان تقضي على سقراط وتذيقه الموت . هي بعينها الاسباب التي تتصل بعواطف السواد وميوله الدينية من ناحية ، وبالسياسة واستخدامها لهذه العواطف والميول من ناحية اخرى . ولعلك تقتنع بهذا اقتناعاً لا يقبل الشك اذا فكرت في طبيعة الامبراطورية الرومانية التي حاربت اليهودية والنصرانية قروناً متصلة . كانت هذه الامبراطورية الرومانية تقوم على الدين كما كانت الديمقراطية الأتينية والارستقراطية الرومانية تقومان على الدين ايضاً. وكان الامبراطور قد جمع اليه السلطان الديني والسياسي ، واخذ الناس بعبادته في اقطار الارض على انه يمثل روما التي كانت تعبد ابان العصر الجمهوري ، وعلى انه خليفة الله في ارضه . وكانت الشعوب الوثنية الخاضعة للسلطان الروماني لا ترى بأساً بعبادة قيصر كما انها لم تكن ترى بأساً بعبادة روما . وكانت عبادة قيصر يسيرة على الشعوب الشرقية ، وعلى المصريين منهم بنوع خاص، وقد ألفت هذه الشعوب منذ اول الزمان عبادة السادة

والملوك . وكانت هذه العبادة عسيرة اول الامـــر على اليونانيين الذين لم يألفوا من قبل عبادة الافراد ، والذين ضحكوا من الاسكندر حين تقدم اليهم ان يعبدوه . ولكن اليونان خالطوا الامم الشرقية واتصلوا بها ، وكان لهم فيها ملوك عُبدوا كما عبد الفراعنة وعظماء الفرس ، فهـــان عليهم الامر ومضوا فيه جادين حيناً ولاعبين حيناً آخر كدأبهم في كل شيء ، انما هذا الشعب السامي الذي بعد عهده بالوثنية منذ حين طويل ، والذي ألــف التوحيد وامعن فيه ، وهو شعب اسرائيل ، لم يستطع ان يفهم عبادة روما ولا عبادة قيصر ، كما انه لم يستطع ان يفهم عبادة فرعون ولا ان يدين لآلهة بابل وآشور . ومن هنا كانت ديانة هذا الشعب السامي منكرة ثقيلة على الرومان لانها تخالف ديانتهم الوثنية وتخالف سياستهم القائمة على هذه الديانة . وجاءت النصرانية فكانت اشد مخالفة لطبيعة الوثنية ولطبيعة السياسة القائمة عليها من اليهودية ، فـــلم يتردد قياصرة الرومان في محاربة هذه النصرانية الا ريثما فهموا خطرها على السياسة والدين . ولدينـــا اقدم نص تاريخي يتصل باضطهاد النصارى ، وهو استفتاء من احد حكام الاقاليم للامبراطور «تراجانوس» آخر القرن الاول للمسيح في امر هذه المتنصرة وما ينبغي ان يتخذ نحوها من سياسة . وقد اعتاد المؤرخون ان يثنوا على هذا الامبراطور لأن رده على مستفتيه كان رفيقاً ليناً ، ومع ذلك فإن

هذا الامبراطور لم يطلب الى مستفتيه ان يقر حرية الدين، ولا ان يدع المتنصرة ، وانما طلب اليه ألا يحفل بما يرفع اليه الجواسيس ؛ فأما معاقبة النصراني الذي تثبت نصرانيته فلم يكن منها بد ، لان النصرانية كانت خروجاً على السياسة وعلى دين الدولة معاً .

وعلى هذا النحو من تعاون السواد وحكومة السواد ، او قل على هذا النحو من استغلال السياسة لعواطف السواد سفكت دماء النصارى في الشرق والغرب .

وامض بعد ذلك في تاريخ النصرانية ، فسترى انها صبرت وصابرت وجاهدت حتى كان لها النصر ،واصبحت في القرن الرابع ديانة الدولة الرومانية . فلم تظفر بهذه المكانة السياسية حتى استغلتها فأسرفت في استغلالها؛وسفكت دماء الأتينيين وهدمت معابدهم، وصادرت اموالهم؛ كما سفك الوثنيون دماء النصارى وهدموا بيعهم وصادروا اموالهم . ومنذ ذلك الوقت كانت محالفة بين الوثنية والفلسفة لا لشيء الا لأن هذه الفلسفة قديمة كالوثنية ، مخالفة لطبيعة المسيحية كما ان الوثنية مخالفة لهذه الطبيعة . فأنت ترى ان الفلسفة كانت عدو الوثنية ولقيت منها ألوان الاضطهاد . وانت ترى ان الفلسفة هي التي اعانت على إعداد الشعوب القديمة للمسيحية وترقية العقل القديم والمباعدة بينه وبين الوثنية ، ولكنك ترى ان المسيحية لم تكد تظفر بالسلطان حتى انكرت العدو والصديق ، ونصبت الحرب للوثنية

والفلسفة معاً . وانت تعلم ان الامر انتهى بالفلسفة الى ان التمست لها داراً لا يتسلط فيها المسيح ، فهاجرت الى الفرس واستظلت بلواء الساسانيين . وعندنا ان المسيحية لو لم تظفر بسلطانها السياسي لما خاصمت الفلسفة ولما تورطت فيما تورطت فيه من الجحود وانكار الجميل . فهي مدينة بكثير للأفلاطونية القديمة، وهي مدينة بكثير للأفلاطونية الجديدة . ويخيل الينا ان طبيعة المسيحية الخالصة ، وطبيعة الأفلاطونية الخالصة ، لم يكن بينهما من الخلاف ما ينتهي بهما الى الخصومة والحرب ، لولا ان السياسة قد دخلت بينهما فأفسدت الأمر عليهما جميعاً .

٥

بل في الأمر ما هو اشد غرابة من هذا كله ، فقد وقعت نفس هذه الخصومة بين الديانات السماوية السامية نفسها ؛ وعلى النحو الذي وقعت به بين هذه الديانات الوثنية القديمة . نريد ان الديانات اليهودية اعتبرت المسيح مجدداً مبتدعاً فأنكرته ؛ ونصبت له الحرب على نفس النحو الذي انكر الأتينيون به سقراط ونصبوا له الحرب . ونريد ان نقول ان المسيحية بعد انتصارها قد اعتبرت النبي مجدداً فأنكرته ونصبت له ولدينه الحرب ، وكل ما بين الاسلام والمسيحية من الفرق من هذه الناحية ، هو ان المسيحية لبثت حيناً طويلاً لا تعتز بالسلطان السياسي فطال اضطهادها ولقيت ما لقيت من بلاء ، وان الاسلام لم يلبث بعيداً عن السلطان السياسي الا اعواماً ريثما تمت الهجرة ، فما كاد يظفر بهذا السلطان حتى دافع عن نفسه فناهض الوثنية واليهودية والنصرانية وكان النصر له آخر الأمر .

فالخصومة في حقيقة الامر ليست بين العلم والدين ، ولا بين الوثنية واليهودية والنصرانية والاسلام ، ولا هي بين دين ودين ، وانما هي اعم من ذلك وايسر ، هي بين السكون والحركة ، هي بين الجمود والتطور . والا فكيف تستطيع ان تفهم ان يلقى سقراط والمسيح ومحمد عليهما السلام اضطهاداً من نوع واحد ؟ وكيف تستطيع ان تفهم ان يتشابه موقف الوثنية والمسيحية واليهودية على اختلاف الامكنة والازمنة واجيال الناس وطبائع جنسياتهم؟ كيف تستطيع ان تفهم تشابه هذه المواقف جميعاً ، اذا لم تردّها الى اصل واحد ، وهو الخصومة بين القديم والجديد ، او استغلال السياسة للخصومة بين القديم والجديد؟ وما الذي كان بعد ان تم النصر للاسلام في ناحية من انحاء الارض وانقسم العالم القديم بينه وبين النصرانية ، فاستأثر الاسلام بالشرق واستأثرت المسيحية بالغرب .

نحب ان تفكر في الامر تفكيراً علمياً مجرداً من الهوى مبرأ من الغرض ، لا يتأثر بالعصبية الجنسية ولا الدينية فسترى ان الامر قد سار في الشرق والغرب على اسلوب واحد ، فلم يكد الاسلام ينتصر ويستقر في الارض ويظفر بالسلطان السياسي ويفرغ من الحرب والفتوح حتى كره ملوكه الجديد وأكثروا الحرص على القديم واستغلوا ميل العامة الى القديم وحرصهم عليه ، واتخذوا هذا الاستغلال وسيلة الى الحكم والتسلط ، فأنكروا كل جديد وحاربوه.

وعلى هذا النحو سارت المسيحية في اوروبا ، وكان لأصحاب الدينين صرعى في الشرق والغرب . وكان العلم موضع الاضطهاد في هذين القطرين من الأرض . ولكن هنا وقفة يجب ان نقفها لنكون منصفين ، فالحق أن ليس في طبيعة الاسلام ولا في طبيعة المسيحية ما يدعو الى الاضطهاد، ولا الى محاربة الجديد ولا الى مناهضة حرية الرأي . ولك ان تقرأ القرآن والأناجيل وتمعن في القراءة ، ولك ان تبحث وتمعن في البحث ، فلن تجد نصاً او شبه نص ينكر التجديد ويدعو الى مناهضته ، او يأخذ العقول بالجمود او يحظر عليها حرية الرأي قليلاً او كثيراً ، ليس في الاسلام ولا في المسيحية اذن ما يدعو الى مناهضة حرية الرأي ، لم يكن في الوثنية اليونانية او الرومانية ما يدعو الى مناهضة حرية الرأي ايضاً . ومع ذلك فقد أثم الوثنيون وأثم اليهود والنصارى والمسلمون واعتدوا جميعاً على حرية الرأي اعتداء يختلف قوة وضعفاً .

أليس مصدر هذا في حقيقة الامر انما هو استغلال السياسة لعواطف السواد ؟ بلى ، ولولا ان السياسة تريد ان تتخذ ما تستطيع من الطرق والوسائل لتتسلط على نفوس الناس وتتملق عواطف السواد لما قتل الأتينيون سقراط ، ولما حاول اليهود صلب المسيح ، ولما سفك الرومان دماء اليهود والنصارى ، ولما أخرجت قريش محمداً واصحابه من ديارهم ، ولما عذب ابن رشد

و « جليلي » ، ولما حرق من حرق وشرد من شرد من العلماء والمفكرين .

وشيء آخر لا بد من اثباته لنكون منصفين ، وهو ان تبعات المسيحيين اثقل من تبعات المسلمين في مناهضة العلم ومحاربة حرية الرأي ، فأنت تستطيع ان تعد العلماء والمفكرين الذين أوذوا في البلاد الاسلامية ، وانت تستطيع ان تلاحظ انهم قليلون جداً ، وأن تلاحظ ايضاً انهم لم يلقوا من الأذى الا قليلاً . ولكنك تستطيع ان تعد العلماء والمفكرين الذين اوذوا في ظل المسيحية ، فستراهم كثيرين جداً ؛ وسترى انهم لقوا من الأذى ألواناً منكرة أخفها السجن ، واقساها الموت والعذاب بين هذين اللونين ومصدر هذا ان الاسلام حر طلق ليس له ما للمسيحية من (الاكليروس) والكنيسة المنظمة ، وان الاسلام حر طلق ايضاً لا يأخذ العقل الانساني بما لا يطيق ولا يكرهه على الايمان بما لا يفهم ولا يضع امامه الاسرار التي يجب ان يقبلها دون روية او تفكير . ومصدر ذلك ايضاً ان الاسلام حر طلق لم يجعل للحكومة على الناس سبيلاً فيما يفكرون ويرون وانما اتخذ هذه القاعدة السمحة اساساً لسياسته بازاء حرية الرأي : «لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي» وهو اذن لم يمنح السلطة السياسية على الناس حق الموت والحياة ، وانما بين حدود الله تبييناً وعرف الأفراد حقوقهم وواجباتهم ، ورسم للحكومة في

هذا الوجه طريقاً لا تعدوه حتى تأثم . فليس للحكومة المسلمة ان تعذب مسلماً او تؤذيه وهو يعلن ايمانه بالله ورسوله ، وانما موقف الحكومة المسلمة موقف الاسلام نفسه لا تتحرك الا حين يتعرض الاسلام للخطر . هو موقف دفاع لا موقف هجوم . ومصدر ذلك ايضاً ان الاسلام من اشد الديانات نصراً للتجديد ونعياً على الذين يسرفون في نصر القديم . وكثيرة جداً في القرآن هذه الآيات التي تسخر من المشركين الذين عاصروا النبي او لم يعاصروه لأنهم أبوا الاجابة الى دين الله حرصاً على القديم وكراهة ان يعبدوا ما لم يكن يعبد آباؤهم ، كل هذا جعل الحكومة الاسلامية وعلماء الدين من المسلمين أقل ميلاً الى الاضطهاد واشد احتراماً لحرية الرأي من الحكومات المسيحية ورجال الدين من المسيحيين . وقد يكون من الخير ان نلاحظ ان المسلمين لم يعرفوا اضطهاداً لحرية الرأي في عصورهم الاولى ؛ حين كانت الحكومة عربية منصرفة الى الشئون السياسية وحدها غير متدخلة في حياة الافراد ولا فيما يرون . فلسنا نعرف ايام الخلفاء الراشدين اضطهاداً لحرية الرأي . ولسنا نعرف شيئاً من ذلك ايام بني أمية ، مع ان البدع ظهرت وكثرت في هذه الايام. ذلك لأن الحكومة في تلك العصور كانت عربية خالصة والعربي حر بطبعه ، ولأن الحكومة في تلك العصور كانت قريبة الى الاصول الاسلامية الخالصة ، واصول الاسلام

حرة بطبعها . فلما كان عصر بني العباس وتسلطت على المسلمين حكومة عربية في ظاهر الأمر ، اعجمية في حقيقته ظهرت الخصومة بين العلم والدين وظهر اضطهاد الحكومة لحرية الرأي ، فكان ما كان من تتبع الزنادقة اول ايام بني العباس ، على ان الزنادقة كانوا يتحدون الاسلام حقاً ويحاولون الافساد في الارض احياناً . ثم كان ما كان من تتبع الذين يخالفون رأي الخليفة في الدين ، وفتنة الناس في آرائهم ايام المأمون ، ثم كان ما كان من تسلط الترك وتسلط الجمود معهم على الحياة الدينية والعقلية ، فأنت ترى معي ان الاسلام والمسيحية بريئان من اضطهاد الرأي ومناهضة العلم ، وان اثم ذلك واقع حقاً على السياسة التي تدخلت بين الدين والعلم او بين السواد والعلماء . ولما كان حظ رجال الدين المسيحي من سلطان السياسة اعظم من حظ رجال الدين الاسلامي ، كان اعتداء (الاكليروس) المسيحي على الحرية اشد خطراً وابعد اثراً .

٦

ولك الآن ان تعكس الامر ، فان الدين لم يعتـد وحدة على العلم ، بل اعتدى العلم على الدين ايضاً حين آل اليه السلطان . وقد رأيت ان المسيحية اعتدت على الوثنية وحاربتها بنفس الاسلحة التي حاربتها الوثنية بهـا . وقد رأيت انـا لا نرى الخصومة بين العلم والدين من حيث هما علم ودين ، وانما نراها واقعة بين القديم والجديد من حيث هما قديم وجديد . ولو ان سواد الناس عني بالمسائـل اللغوية والادبية عنايته بمسائل الدين ، لكان من المجددين في اللغة والأدب صرعى وشهداء كما كان من المجددين في العلم والدين والفلسفة . ونحن نرى في اول هذا العصر الحديث حركة تدعو الى حرية الرأي والى التجديد في كل شيء في العلم والادب والفلسفة والدين . فاما المظهر الديني لهذه الحركة فالبروتستانتية ، واما المظهر العلمي فحيـاة « جليلي » و « كوبرنيك » ومن اليهما من العلماء ، واما المظهر

الفلسفي فحياة « ديكارت» و « بـاكون » و « ولبنيتز » و «سبينوزا» ومن اليهم ، واما المظهر الادبي والفني فكل هذه الحركة القوية الخاصة التي نلحظها في ايطاليا، ثم في فرنسا، ثم في انجلترا والتي اخرجت من اخرجت من الشعراء والكتاب والمصورين والمثالين . نرى هذا كله ولكننا لا نرى الحرب بين القديم والجديد عنيفة تنتهي الى سفـك الدماء الا في المظهر الديني الخالص ، او في ما يكون من الخصومة بين المظهر الديني والمظهر العلمي الفلسفي . فأنت تعلم ما سفك من الدماء بين الكاثوليـك والبروتستنت . وانت تعلم ما لقي العلماء والفلاسفة من اذى رجال الدين . وانت تعلم ان ديكارت انما آثر حياته في هولندا — كما يقول رينان — لأن الناس كانوا عنه في شغل بتجارتهم . واذن فلا بد من امرين لتكون الخصومة بين العلم والدين او بين الحرية والدين عنيفة منكرة : احدهمـا ان يعنى السواد بهذه الخصومة ، والثاني ان تستغل السياسة عنايـة هذا السواد . ولولا ان السواد عني بالخصومة بين الكاثوليكية والبروتستانتية وبالخصومة بين العلم والديـن ، ولولا ان السياسة اعتزت بهذا السواد لما سفك دم ولا حرق عالم ولا اوذي فيلسوف . على ان البروتستانتية قاومت حتى كان لها النصر ، واستأثرت بجزء عظيم من اوروبا ، وعلى ان العلم والفلسفة قاوما حتى كان لهما النصر ، واستـأثرا بالعقول في اوروبا اثناء القرن الثامن عشر . وليس هنـا

موضع البحث عن الاسباب التي اتاحت للعلم والفلسفة الاستئثار بعقول كثير من سواد الناس اثناء هذا القرن الثامن عشر . ولكن هناك حقيقة واقعة لا تقبل الشك ، وهي ان العقل الأوروبي تطور في هذا العصر تطوراً شديداً غريباً فنصب الحرب لهذين الحليفين اللذين اذلاه حيناً وهما السياسة الملكية والكنيسة الكاثوليكية ، نصب الحرب لهذين الحليفين واعتز في حربه هذه بالعلم والفلسفة. وظل يجاهد حتى كانت الثورة الفرنسية . وهنا انعكست الآية وأثم العلم والفلسفة او قل اثم اصحاب العلم والفلسفة ، كما اثم اصحاب الدين من قبل ، فاضطهد الدين اضطهاداً شديداً ولقي رجال الدين ضروباً من المحن والفتن ، وكان الذين يفتنون رجال الدين ويمتحنونهم هم اولئك الذين كانوا متأثرين بفلسفة «فولتير» و «مونتسكيو» و «جان جاك روسو» و «ديدرو» وغيرهم . وكان قوام هذه الفلسفة من الوجهة العملية والنظرية انما هو الدعوة الى حرية الرأي والى التسامح . فما بال هذه الفلسفة التي كانت تدعو الى الحرية والتسامح قد استحالت عدواً للحرية والتسامح . اما الفلسفة نفسها فلم تتغير ، ولم تنكر الحرية ولم تنصب لها الحرب ، وانما ذنبها واثمها انها ظفرت بعد الثورة الفرنسية بالمكانة السياسية الرسمية فطغت او طغى اصحابها واسرفوا في الطغيان ، امرها من ذلك كأمر المسيحية ، كانت تعذب وتضطهد وتدعو اثناء ذلك الى الحرية والتسامح حتى اذا

اصبحت دين الدولة طغي اصحابها واسرفوا في الطغيان فالأثم في حقيقة الامر ليس اثم الدين ولا اثم العلـــم ولا اثم الفلسفة؛ وانما هو اثم هذه الدخيلـــة التي تتوسط بين هذين العدوين ، فتسلح احدهما على الآخر وتستغـــل هذا لمنفعتها الخاصة .

وفي الحق اني احاول ان افهم كيف يستطيع الدين او العلم ان يعتدي على الحرية العلمية او الدينيـــة اذا لم تمده السياسة بالذخائر والسلاح فلا اجد الى هذا الفهـــم سبيلاً . تصور بلداً وقفت السياسة فيه موقف الحيدة المطلقة بين العلم والدين فكفت ايدي الناس عن الناس ، وأقرت الأمن في نصابه ، وتركت للعلم حريته ، وللدين حريته فما الذي يمكن ان يقع من العنف بين العلماء ورجال الدين؟ لا شيء الا الخصومة الكلامية ، لا شيء الا المناقشة والجدل، ومن الذي يستطيع ان يرى شراً في المناقشة والجدل ؟!

٧

سنظن بعد أن نقرأ هذا كله أنا لا نرى الخصومة قوية بين العلم والدين في نفسهما ، وانمـــا نرى أن السياسة تستغلهما لمنفعتها ولو تركتهما لتصافيا وائتلفا .. كلا ! نحن لا نرى هذا الرأي وانما نرى ما قلناه في أول هذا البحث من أن الخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لا سبيل الى اتقائها ولا الى التخلص منها . هي اساسية جوهرية لأن العلم والدين لا يتصلان بملكة واحدة مـــن ملكات الأنسان ، وانما يتصل احدهمـــا بالشعور ويتصل الآخر بالعقل ، يتأثر أحدهما بالخيال ويستأثر بالعواطف ، ولا يتأثر الآخر بالخيال الا بمقدار ، لا يعني بالعاطفة الا من حيث هي موضوع لدرسه وتحليله . والخصومة بين العلم والدين اساسية جوهرية لأن الدين أسن من العلم ، ولأنه

كان في العصور القديمة كل شيء : كان ديناً وكان علماً، ولأن العلم جاء بعد ذلك فغير هذا القسم العلمي من الدين، وأبى الدين أن يذعن لهذا التغيير ، وأبى العلم أن يتنزل عما ظفر به من الثمرات . فلن يتفقا الا اذا جحد أحدهما شخصيته كما قلت في غير هذا المكان .

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن الدين يرى لنفسه الثبات والاستقرار ، ولأن العلم يرى لنفسه التغير والتجدد ، فلا يمكن أن يتفقا الا أن ينزل أحدهما عن شخصيته .

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن أحدهما عظيم جليل واسع المدى بعيد الأمد لا حد له ولا انتهاء لموضوعه ، ولأن الآخر متواضع ضئيل محدود المطامع بطيء الخطى يقدم ثم لا يكره أن يحجم ، ويمضي ثم لا يكره أن يرتد ، ويبني ثم لا يتحرج من الهدم ، فلا يمكن أن يتفقا الا أن ينزل احدهما عن شخصيته .

فالخصومة بينهما أمر لا بد منه . ولكن المسألة في حقيقة الأمر وليست في أن الخصومة واقعة أو غير واقعة ، وانما هي في أن الخصومة ضارة أو نافعة او بعبارة أدق : المسألة هي ان تعرف هل كتب على الانسانية أن تشقى بالعلم والدين أم هل كتب على الانسانية ان تسعد بالعلم والدين ؟ أما نحن فنعتقد ان الانسانية تستطيع أن تسعد

بالعلم والدين جميعاً . وانها ملزمة اذا لم تستطع ان تسعد بهما ان تجتهد في الا تشقى بهما . وسبيل ذلك عندنا واضحة، وهي ان ينزع السلاح كما يقولون من يد العلم والدين ، او قل سبيل ذلك ان ترغم السياسة على ان تقف موقف الحيدة من هذين الخصمين . فالعلم في نفسه لا يريد ولا يستطيع الأذى ، والدين في نفسه لا يريـد ولا يستطيع الأذى ، ولكن السياسة تريد وتستطيع الأذى غالباً . وهي كما قلت تتخذ العلم حينا وسيلة الى هذا الأذى وتتخذ الدين حيناً آخر وسيلة اليه . وهب السياسة لم تطع رجال الدين ولم تشتر نفوسهم وضمائرهم ولم تهيىء لهم من اسباب الرغد والنعيم ما يصرفهم عن الله ويجعل الدين في ايديهم سلعاً تباع وتشترى ، او هب السياسة لم تفسد نفوس العلماء وضمائرهم واخلاقهم ولم تشترهم بالمناصب واسباب السلطان ولم تمنحهم من اسباب الرغد والنعيم ما يحولهم عن البحث العلمي الهادىء الى هذه الخصومة العنيفة العقيمة ، هب السياسة لم تشغل اولئك ولا هؤلاء ولم تمكن السواد من ان ينتصر لأولئك او هؤلاء فماذا تكون النتيجة ؟ تكون ان تمضي رجال الدين في حياتهم الدينية ورجال العلم في حياتهم العلمية وان ينصرف السواد الى حياته العملية المنتجة منتفعاً بالدين فيما بينه وبين الله ، منتفعاً بالعلم في تدبير شئونه اليومية ، وان تزول هذه الخصومات المنكرة التي تقسم

الناس شيعاً واحزاباً ، وتغري بعضهم ببعض وتجعل بعضهم لبعض عدواً ، وثبت فيهم الـوان الرذيلة وحب الكيد والوقيعة وما اليها من الرذائل الفاحشة . وهـل تظن ان وقف السياسة هذا الموقف شيء عسير حقاً ؟ كلا ! قد كان عسيراً قبل هذا العصر الحديث حين لـم يكن بد للحكومة من ان تستغل الدين او من ان تستغل العلم . فأما هذا العصر الذي نحن فيه فقد استطاعت السياسة ان تستقل وأن تمشي على قدميها دون ان تعتمد على عصا دينية او علمية . ذلك لأن فكرة الوطنية وما يتصل بها من المنافع الاقتصادية والسياسية الخالصة قامت الآن في تكوين الدول وتدبير سياستها مقام فكرة الدين او مقام هذه النظريات الفلسفية الميتافيريقية التي كانت تقوم عليها الحكومة من قبل . واين هي الحكومة التي تستطيع الآن ان تزعم انها تقوم على الدين او انها تقوم لحماية الدين، أو انها تقوم على اساس ما من هـذه الأسس الفلسفية المختلفة : حماية الواجب او حماية الحق او حماية العدل؟ اين هي الحكومـة التي تستطيع ان تجهر بشيء من ذلك دون ان يضحك منها الناس جميعاً وان يكـون رعاياها اول الضاحكين ؟ اتستطيع الحكومة المصرية مثلاً ان تزعم انها انما تقوم على الاسلام وبالاسلام وللاسلام ؟ كلا . كما أن الحكومة الفرنسية لا تستطيع ان تزعم أنها انما تقوم

على المسيحية وبالمسيحية وللمسيحية . ومع ذلك فقد كانت مصر موئل الاسلام في جميع عصورها الاسلامية ! ومع ذلك فقد كان ملوك فرنسا يلقبون انفسهم اصحاب الجلالة المسيحية ! ومع ذلك فقـــد كان ملوك مصر وسلاطينها يعاهدون ملـــوك اوروبا باسم المسلمين ويزعمون لأنفسهم حماية بيت المقدس والحرمين الشريفين ! ومع ذلك كان ملوك فرنسا يعاهدون دول الشرق الاسلامي باسم المسيحية ويزعمون لانفسهم حماية المسيحية في بلاد الاسلام !

كان هذا كله ، ولكن هذا كله قد تغير ، فمصر لا تستطيع أن تزعم أنها حامية بيت المقدس او الحرمين الشريفين او أنها الناطقة بلسان المسلمين الذائدة عن حوض الاسلام. بل لست ادري اتستطيع مصر الآن ان تزعم انها تحمي الاسلام في اقطارها الخاصة ولا تتجاوز حدوده عمداً او كرهاً . ولا تستطيع فرنسا أن تزعم لنفسها حماية المسيحية في الأقطار الاسلامية ، بل لا تستطيع أن تزعم لنفسها حماية المسيحية في أقطارها الخاصة . لا تقوم الحكومـــة المصرية الحديثة ولا الحكومة الفرنسية الحديثة على أساس من دين ولا من علم ولا من فلسفة ، وانما تقوم الحكومة الحديثة في أقطار الأرض المتحضرة الآن على أساس سياسي خالص من المنفعة الاقتصادية والمدنية لا أكثر ولا أقل . وقد فرغ الناس من هذا واصبحوا لا يفكرون في أن الحكومة تقوم على الدين أو لا تقوم عليه . فان فكروا

في صلة بين الدين والحكومة وهذا قليل نادر.، فانما يفكرون في طبيعة الموقف الذي يجب أن تقفه الحكومة الحرة الصالحة من دين الكثيرة والقلة . أتعترف بهذه الديانات أم تنكرها أو تجهلها في غير اعتراف ولا انكار ؟

٨

نعم ان دستورنا المصري قد نص في صراحة ان الاسلام دين الدولة . وكان هذا النص مصدر فرقة لا نقول بين المسلمين وغير المسلمين من اهل مصر ، فقد رضيت القلة المسيحية وغير المسيحية هذا النص ولم تحاور فيه ، ولم تر فيه على نفسها مضاضة او خطراً . وانما نقول انه كان مصدر فرقة بين المسلمين انفسهم ، فهم لم يفهموه على وجه واحد ولم يتفقوا في تحقيق النتائــج التي يجب ان تترتب عليه . فأما عامة الناس فلم تلتفت الى هذا النص ولم تحفل به ، واكبر ظننا انها ما كانت لتشعر بشيء لو لم يوجد هذا النص في الدستور . فعامة الناس في مصر منصرفون بطبعهم الى حياتهم العملية ، مستعدون احسن الاستعداد واقواه للاتصال بأزمنتهم وامكنتهم وللملاءمة بين حياتهم وبين ضرورات التطور . وهم يعلمون ان الاسلام

مخير ، وان الصلوات ستقام ، وان رمضان سيصام ، وان الحج سيؤدي ، وهم يذهبون في القيام بواجباتهم الدينية مذهب غيرهم من الناس المعتدلين ، لاهم بالمسرفين في التدين ولا هـم بالمسرفين في العصيان والفسوق . فسواء عليهم انص الدستور ام لم ينص ان الاسلام دين الدولة، وسواء عليهم اسيطرت الحكومة ام لم تسيطر على شعائر الدين ، ما دامت هذه الشعائر قائمة محترمة . انما وقعت الفرقة حول هذا النص بين فريقين من المسلمين المصريين: احدهما المستنيرون المدنيون ، والآخر شيوخ الأزهر ورجال الدين . فأما المستنيرون فقد فهموا ان الدستور حين ينص ان الاسلام دين الدولة لا يريـد ان يعلن احترامه لدين الكثرة وما توارثت من تقاليد ، ويكلف الحكومة مقداراً قليلاً من الواجبات التي تتصل بهذه التقاليد . فلما ارادوا تحليل هذا كله فهموا ان هذا النص لا يزيد على تقرير الواقع من ان رئيس الدولة في مصر يجب ان يكون مسلماً، من ان شعائر الاسلام يجب ان تقام بعد صدور الدستور ، كما كانت تقام قبل صدوره ، فلا تغلق المساجد ، ولا يعطل الحج ، ولا تعمل الحكومة في ايام الأعياد الاسلامية ولا ينقطع اطلاق المدافع في رمضان ، ولا يلغى الحفل بالمحمل ولا الحفل بالمولد النبوي ولا تنفق اموال الأوقاف الاسلامية في غير ما رصدهـا له الواقفون . ولم يخطر لهؤلاء المستنيرين في يوم من الأيام ان هذا النص سيكلف

الحكومة واجبات جديدة دينية ، او انــه سيحدث في الدولة نظماً لم يكن لها بها عهد من قبل . ذلك لانهـم كانوا وما يزالون يقدرون ان مصر تمضي الى الامام وتسرع في الاتصال بالمدنية الغربية وتريد ان تحقق ما قال اسماعيل من انها جزء من اوروبا . ولأنهم كانوا ومـا يزالون يقدرون ان في الاسلام من اللين والمرونة ما يمكنه من التطور مع الزمن وملاءمة الظروف المختلفة ويعصمه من الجمود والسكون ، ويحول بينه وبين ان يكون عقبة في سبيل الرقي الاجتماعي والاقتصادي . ولأنهم كانوا ومـا يزالون يقدرون ان حكومة مصر قد اضطرت بحكم هذه الحياة الحديثة الى ان تأتي من الامر ما لم يكن يبيحـه الاسلام من قبل ، فهي تعامل المصارف ، وتنظم الربا ، وتبيح ألواناً من المعصية ، بل تستغلها احياناً فاذا كـان نص الدستور ان الاسلام دين الدولة يدل على معناه حقاً فلا اقل من تغيير كل هذه المحدثات ولا اقل من ان يغير نصوصاً تكفل حرية الرأي وتبيح للناس ان يلحـدوا ، وتسوي بين المسلم وغير المسلم في الحقوق والواجبات ، وما كان الاسلام ليبيح الالحاد ولا ليسمح للملحـد ان يعلن الحاده وخروجه على الدين ، واحكام المرتد معروفة في الاسلام وما كان الاسلام ليسوي بين المسلم وغير المسلم في بلد يكون هو فيها الدين الرسمي .

فهم المستنيرون هذا كله ، ولم يعارضوا في هذا النص

حين اعلنت لجنة الدستور انها ستضعه في الدستور ، بل هم فريق منهم ان يعارض لانه خشي ان يفهم هذا النص على غير وجهه فما زالوا به حتى كفوه عن المعارضة ، واضطروه الى السكوت ، وقالوا : نص فيه ارضـــاء لعاطفة السواد وطمأنة للشيوخ فهو لا يضر ، واكبر الظن انه قد يفيد .

ولكن الشيوخ فهموا هذا النص فهماً آخر ، او قـــل انهم فهموه كما فهمه غيرهم ، ولكنهم تكلفوا ان يظهروا انهم يفهمونه فهماً آخر ، واتخذوه تكأة وتعلة يعتمدون عليها في تحقيق ضروب من المطامع والاغراض السيـــاسية وغير السياسية . فهموا ان الاسلام دين الدولـــة اي ان الدولة يجب ان تكون دولة اسلامية بالمعنى القديم حقاً ، اي ان الدولة يجب ان تتكلف واجبات ما كانت لتتكلفها من قبل . وعلى ذلك اخذوا يطالبون بأمور مـــا كانوا يطالبون بها قبل الدستور . وذهب فريق منهم على رأسه نفر من هيئة كبار العلماء الى ابعد حد ممكن ، فكتبوا يطلبون ألا يصدر الدستور لان المسلمين ليسوا في حاجة الى دستور وضعي ومعهم كتاب الله وسنة رسول الله . وذهب بعضهم الى ان طلب الى لجنة الدستور ان تنص ان المسلم لا يكلف القيام بالواجبات الوطنية اذا كانت هذه الواجبات معارضة للاسلام ، وفسروا ذلك بأن المسلم يجب ان يكون في حل من رفض الخدمة العسكرية حين يكلف الوقوف في وجه

أمة مسلمة كالأمة التركية مثلاً . ولكن هذه المطالب كلها اهملت اهمالاً ومضت لجنة الدستور في عملها حتى اتمته والشيوخ فيها ممثلون . وليس هنا موضع التعريض او التصريح بما كان للشيوخ من سعي اثناء اعداد الدستور وقبل صدوره . ولكنا نكتفي بأن نلاحظ انهم او بأن كثرتهم لم تكن تبتسم للدستور حقاً . وصدر الدستور وابتهج به الناس جميعاً واطمأن اليه الناس جميعاً الا الشيوخ، فانهم لم يكتفوا بقبول الدستور والرضا بما فيه من المساواة والحريات المكفولة بل: استغلوه استغلالاً منكراً في حوادث اهمها : حادثة «الاسلام واصول الحكم» ، وحادثة كتاب «في الشعر الجاهلي» . واليك نظرية الشيوخ في استغلال هذا النص الذي ما كان يفكر واحد من اعضاء لجنة الدستور في انه سيستغل وسيخلق في مصر حزباً خطراً على الحرية ، بل خطراً على الحياة السياسية المصرية كلها.

يقول الشيوخ ان الدستور قد نص ان الاسلام دين الدولة ومعنى ذلك ان الدولة مكلفة بحكم الدستور حماية الاسلام من كل ما يمسه او يعرضه للخطر ومعنى ذلك ان الدولة مكلفة ان تضرب على ايدي الملحدين وتحول بينهم وبين الالحاد او تحول بينهم وبين اعلان الالحاد على اقل تقدير. ومعنى ذلك ان الدولة مكلفة ان تمحو حرية الرأي محواً في كل ما من شأنه ان يمس الاسلام من قريب او بعيد سواء أصدر ذلك عن مسلم او عن غير مسلم . ومعنى

ذلك ان الدولة مكلفة بحكم الدستور ان تسمع ما يقوله الشيوخ في هذا الباب . فاذا اعلن احد رأياً او ألف كتاباً ، او نشر فصلاً ، او اتخذ زيا ، ورأى الشيوخ في هذا كله مخالفة للدين ونبهوا الحكومة الى ذلك ، فعلى الحكومة بحكم الدستور ان تسمع لهم وتعاقب من يخالف الدين او يمسه بالطرد اولاً ان كان موظفاً ، ثم بتقديمه الى القضاء بعد ذلك ، ثم «باعدام جسم الجريمة» كما يقول رجال القانون على كل حال . ومما زاد الامر تعقيداً والموقف حرجاً بين المستنيرين ورجال الدين بازاء هذا الوجه من وجوه الحرية الدستورية أمران : احدهما ان النظام السياسي القديم كان قد انشأ في مصر شيئا يسمى هيئة كبار العلماء وجعل لهذا الشيء حقوقا وألوانا من السلطان على طائفة من الناس ، وجعل لهذا الشيء ضربا من السيطرة المعنوية على امور الدين في مصر . وكان المعقول ان صدور الدستور يجب ان يمحو من هذا النظام القديم كل ما لا يتفق مع نصوص الدستور نفسه ؛ ولكن هيئة كبار العلماء ظلت قائمة مستمتعة بحقوقها محتفظة بسلطانها وسيطرتها لا تعتز بها ولا تستغلها لأنها لم تكن تلتفت من هذا كله الا الى ما يمنحها من المرتبات ومنازل الشرف حتى صدر كتاب «الاسلام واصول الحكم» . فأحست هيئة كبار العلماء او اريد منها ان تحس ان لها حقوقا او سلطانا ،واستغلت هيئة كبار العلماء او اريد منها ان تستغل تلك الحقوق

وهذا السلطان . الثاني ان الدستور لم يكـد يصدر حتى عطل او كاد يعطل فقد صدر الدستور في اوائـل سنة ١٩٢٣ ولكن البرلمان لم يأتلف الا في اوائل سنة ١٩٢٤ ، وكانت الحكومة القائمة بين صدور الدستور وانعقاد البرلمان لأول مرة حكومة ضعف وتفريط في كل شيء ، كانت حكومة لا تعتمد على نفسها ولا تستطيـع ان تثبت على قدميها الا ان يسندها مسند من اليمين ان مالت الى اليمين، او مسند من الشمال ان مالت الى الشمال، ولم يكن يسندها مسند اليمين او مسند الشمال عفواً ولا ابتغاء مرضاة الله ، وانما كان يسندها هذا المسند او ذاك لمنافع ومطـامع . فقوي في ظل هذه الحكـومة الضعيفة او الرجعية وكثر الريش في اجنحة الشيوخ ، وطلب الأزهر اموراً فما اسرع ما اجيب اليها، وكان اظهر هذه الأمور الغاء مدرسة القضاء او مسخها وانشاء اقسام التخصص في الأزهر . ثم انعقد البرلمان فانصرف بطبيعة الحال الى ما كان ينبغي ان ينصرف اليه من المسألة السياسية الخارجية ، وبينا هو منصرف الى هذه المسألة السياسية الخارجية تحرك الشيوخ او قل تحرك الأزهر كله او قل حُرك الأزهر تحريكاً فظهرت لـه مطالب غريبة ضخمة فيها اعنات واحـراج وتعمل ، ورفعت هذه المطالب الى الحكومة البرلمانية الشعبية يومئذ مع شيء من الالحاح ومع شيء من الضجيج والعجيـج والمظاهرات الغريبة داخل الازهر وفي شوارع المدينة وميادينها

وعند القصر . وهمت الحكومة البرلمانية ان تأخذ بالحزم امام هذه الحركة الغريبة التي لم يكن يُعرف ايها اعظم فيها اثراً: أحظ الدين ام حظ السياسة والمنفعة . ولكن الحوادث المنكرة التي حدثت آخر تلك السنة ذهبت بالبرلمان وبالحكومة البرلمانية . وقامت في مصر يومئذ حكومة اخرى اشبه شيء بتلك الحكومة التي كانت قائمة بين صدور الدستور وائتلاف البرلمان ، حكومة ضعف وتردد واضطراب ، حكومة تميل الى اليمين حيناً فتكاد تهوي لولا ان يسندها مسند ويتقاضى على هذا ثمناً ، وتميل الى الشمال حينا فتكاد تهوي لولا ان يسندها مسند ويتقاضى على هذا ثمناً ايضاً. وكان من الأثمان التي دفعتها هذه الحكومة الاسماع للأزهريين والنزول عندما كانوا يريدون ، واستغلال هذا في الخصومة السياسية الحزبية ، فما اسرع ما ألفت لجنة وزارية درست مطالب الازهريين وقبلتها واخذت في تنفيذها . وبهذا تقدم الازهر خطوة اخرى في سبيل السيطرة والسلطان وأحس الازهريون انهم يستطيعون ان يخيفوا الحكومات ويكرهوها على ان تذعن لهم وتنزل عندما يريدون . وكانت نتيجة هذا كله ان ألغيت او مسخت «دار العلوم» ، كما الغيت او مسخت مدرسة القضاء من قبل ؛وان احتكر الشيوخ او كادوا يحتكرون التعليم الاولي ، وان زادت مخصصات الازهر المالية ، وان قوي في وزارة المعارف الميل الى نشر التعليم الديني في مدارس الحكومة كلها

من طريق الازهريين . وكانت الفكرة الاساسية الخفية ان يكلف الازهر نشر هذا التعليم الديني وان ينبث شيوخ الازهر في مدارس الحكومة كلها . وكانت النتيجة السياسية الخطرة لهذا كله ان تكون في مصر او اخذ يتكون فيها حزب رجعي يناهض الحرية والرقي ، ويتخذ الدين ورجال الدين تكأة يعتمد عليها في الوصول الى هذه الغاية . وفي اثناء ذلك ظهر كتاب « الاسلام واصول الحكم » فاستغل في سبيله كل ما تقدم، وظهر ان في مصر حزباً سياسيا يتخذ الدين وسيلة لمناهضة حرية الرأي؛ بنفس الوسائل التي كانت تناهض بها اثناء القرون الوسطى في اوروبا . انكر الكتاب وحوكم صاحبه واخرج من صف العلماء وفصل من منصبه وانتهى هذا كله بأزمة سياسية حادة ظهر في اول الامر ان هذا الحزب السياسي الديني هو الذي انتفع بها واستفاد منها. فقد اخرج وزير من الوزارة واستقال معه طائفة من اصحابه ، فقبلت استقالاتهم في سرور وابتهاج ، واعتز رئيس الوزراء بالنيابة يومئذ بأنه نصير الدين وحاميه والذائد عن حوضه . وكان كل هذا يشد أزر الشيوخ ويقوم ايمانهم بأن النص الذي يشتمل عليه الدستور يكلف الحكومة واجبات ما كانت تتكلفها من قبل . فلم يعرف تاريخ مصر الحديث شيئاً من اضطهاد حرية الرأي باسم السياسة والدين قبل صدور الدستور ، وحين كانت مصر خاضعة لسلطان الخلافة التركية؛ يشبه ما كان من ذلك بعد

صدور الدستور وبعد انقطاع الاسباب بين مصر وسلطان الخلافة بل بعد انهيار الخلافة نفسها .

ومهما يكن من شيء فقد استيقن رجـال الدين انهم مؤيدون وان لهم عضداً يسندهم فطمعوا واسرفوا في الطمع. ومما يظهر هذا الطمع حادثتان : احداهما حادثة الازياء في دار العلوم ؛ هذه الحادثة التي وقفت فيها الحكومة موقف الخادم المطيع لصاحب الفضيلة مولانا الاكبر شيخ الجامع الازهر ، والتي انتهت كما يعلم الناس جميعـاً بشيء من الاذعان فيه افساد للأخلاق واكراه للشبان على النفاق . فقد اخذ طلاب دار العلوم يذهبون الى مدرستهم في زي الشيوخ ، وقد اتخذوا من تحت هذا الزي زياً آخر يظهرونه متى خرجوا من المدرسة . والحادثة الثانية ان بعض الممثلين همّ بالسفر الى اوروبا ليلعب قصة تمثيلية فيهـا شخص النبي صلى الله علية وسلم، فغضب الشيوخ لذلك وطلبوا الى وزارة الداخلية ان تمنع هذا الممثل مما كان يريد ، وان تتخذ لذلك ما ترى من الوسائل ؛ حتى الوسيلة السيـاسية فتخاطب الحكومة الفرنسية في ان تمنع تمثيل هذه القصـة في بلادها ، وكان هذا الممثل طيعاً هيناً فأذعن لأمر الداخلية ومضى الشيوخ .

واتخذت مشيخة الأزهر لنفسها منذ ذلك الوقت اسم الرياسة الدينية العليا ، وهو اسم مبتدع لا يعرفه الاسلام، ولا يؤمن به مسلم يعرف واجباته الدينية حقاً ، وكثرت

فتاوى « الرياسة الدينية العليا » ولم ينس احد بعد فتواها في تحريم القلانس على المسلمين . وفي اثناء هذا كله ظهر كتاب « في الشعر الجاهلي » ،وهنا اصطدمت السلطة الدينية بالحرية العلمية اصطداماً عنيفاً ، فلم يكن صاحب هذا الكتاب من علماء الأزهر ولا خاضعاً لهيئة كبار العلماء ، ولم يكن فرداً مطلقاً من الناس ، وانما كان استاذاً في معهد علمي يرى لنفسه الحرية المطلقة كلها في الرأي ، ويرى لنفسه السيادة فيما يدرس ، وما ينشر لا يحده في ذلك الا القانون . وهنا ظهر الفرق بين الأزهريين وغيرهم من المستنيرين في فهم هذا النص الذي يثبت ان الاسلام دين الدولة . فأما الشيوخ فقد زعموا ان الحكومة مكلفة لا حماية الاسلام وحده بل حماية الدستور ، لأن هذا الأستاذ قد خالف الاسلام وهو موظف يعلم أبناء المسلمين، ويتقاضى اجره من اموال المسلمين ، وما كان لحكومة ينص دستورها ان الاسلام دينها الرسمي ان تسمح لأحد موظفيها بمخالفة الاسلام . وعلى ذلك طلبت الرياسة الدينية العليا الى الحكومة ان تفصل هذا الموظف من منصبه وتقفه امام القضاء وتصادر كتبه . والناس جميعاً يعلمون ماذا كان من أمر الخلاف بين الجامعة والأزهر في هذا الموضوع.

وخلاصة هذا القصص الطويل ان هذا النص الذي أثبت في الدستور قد فرق بين المسلمين المصريين وأنشأ في مصر قوة سياسية دينية منظمة او كالمنظمة تؤيد الرجعية

وتجر مصر جراً عنيفاً الى الوراء ، وأنشأ في مصر خاصة وفي الشرق الاسلامي عامة هذه المسألة التي لم تكن معروفة في الشرق الاسلامي من قبل ، أثناء العصر الحديث، وهي مسألة الخصومة الدينية السياسية بين العلم والدين . ولسنا في حاجة الى ان نسأل اخير هذا أم شر ؟ ولسنا في حاجة ايضاً الى ان نسأل عن طبيعة هذه الخصومة وما ستنتهي اليه غداً او بعد غد ، انما يكفي ان نلاحظ ان هـــذه الخصومة حقيقة واقعة ، وأن في مصر فريقاً من الناس يمضون مع الزمن ويسايرون التطور ويريدون ان يستمتعوا وأن يستمتع غيرهم بما كفل الدستور من حرية الرأي ، وأن في مصر فريقاً آخر من الناس ينكر هذه الحرية او لا يبيحها الا بمقدار؛واذن فلا بد من اتخاذ موقف منتج حاسم بازاء هذه الخصومة بين اولئك وهؤلاء : فما هذا الموقف وما عسى ان تكون نتائجه ؟ أما ان كان المصريون يريدون أن ينتفعوا بتجارب الأمم من قبلهم وان يختصروا الطريق الى الرقي وان يصلوا الى حياتهم السياسية والاجتماعية الصالحة في غير عنف ولا مشقة ولا اضطراب : فسبيلهم الى ذلك يسيرة واضحة يمكن ان تختصر في كلمة واحدة ، وهي ان تقف السياسة من رجال العلم ورجال الدين موقف الحيدة التامة . وأما ان كان المصريون يريدون أن يجربوا كما جربت الأمم من قبلهم وأن يسلكوا الى حياتهم السياسية والاجتماعية الصالحة تلك الطريق الطويلة المعوجة الملتوية التي

تنبت فيها العقاب ، وتأخذها الأخطار من جوانبها فسبيلهم الى ذلك واضحة يسيرة يمكن ان تختصر في كلمة واحدة، وهي ان تستغل السياسة هذه الخصومة بين العلم والدين فتعتز برجال العلم حيناً ، وحينئذ تضطهد رجال الدين ، وتعتز برجال الدين حيناً آخر ، ويومئذ تضطهد رجال العلم ، وتحتمل في سبيل ذلك من التبعات مثل ما احتملته السياسة المسيحية حين كانت تحرق العلماء وتذيقهم ألوان العذاب ؛ لترضي رجال الدين، وحين كانت تشرد القسيسين وتهدر دماءهم لترضي رجال العلم .

٩

ولكن كل شيء في مصر يدل على اننا لا نريد الطرق الطوال المعوجة ، ولا نحب اضاعة الوقت ، وانما نكتفي بما جربت الأمم من قبل ، ونجني ما ظفرت به من ثمرات الرقي . دستورنا المصري اوضح دليل على ذلك ، فهو دستور حديث كأحدث النظم الدستورية المعروفة ، وهو دستور بريء من الرجعية ومن هذا اللون من الاعتدال البطيء . وحسبك انا كنا نرى في نظامنا السياسي الانتخاب ذا الدرجتين ، فما كادت الأمة تتمتع بسلطانها حتى اسرعت الى الانتخاب ذي الدرجة الواحدة ، وحسبك ان وزارتنا مسئولة أمام برلماننا بنفس الطريقة التي تسأل بها الوزارات امام البرلمان في فرنسا وانجلترا وغيرهما من بلاد اوربا . كل هذا يدل على اننا معتزمون حقاً ان نختصر الطريق . واذا كانت هذه خطتنا بازاء حياتنا السياسية والاجتماعية

فيجب ان تكون ، وما اشك في انها ستكون ، خطتنا بازاء حياتنا العلمية والدينية . على اننا مضطرون الى ذلك اضطراراً فنحن لا نحيا لأنفسنا وحدنا ، وانما نحيا لأنفسنا ولغيرنا من الأمم ، ونحن متصلون رضينا ام كرهنا بأمم الغرب المتحضرة ، ونحن حريصون على ان نظفر لا اقول بعطف هذه الأمم بل اقول باكبارها لنا واحترامها لمنزلتنا السياسية والاجتماعية ، واذن فنحن مضطرون ان نساير هذه الأمم ونعيش كما تعيش. ونحن لا نستطيع ان نعيش في القرن العشرين كما كانت تعيش فرنسا في القرن الرابع والخامس عشر بحجة اننا حديثو عهد بهذه النظم الحديثة . نحن نريد ان نظفر من الاستقلال بما يقفنا من انجلترا وفرنسا موقف الند من الند فيجب ان نعيش كما تعيش انجلترا وفرنسا لتطمئن انجلترا وفرنسا الى ما نطلب من الاستقلال، ونحن مضطرون الى ان نحاول التخلص من الامتيازات الأجنبية، فيجب ان نعيش في بلادنا كما يعيش الأجانب في بلادهم؛ وان نستمتع من الحرية بمثل ما يستمتعون به ليطمئن الأجانب الى الغاء الامتيازات . ثم نحن مضطرون الى ان نعيش ولن نستطيع ان نعيش الا اذا اتخذنا اسباب الحياة الحديثة، فنحن محتاجون ان ننتفع بالبخار والكهرباء ونستغل الطبيعة كلها لحياتنا ومنافعنا . والعلم وحده سبيلنا الى ذلك وهو سبيلنا الى ذلك على ان ندرسه كما يدرسه الأوربيون لا كما كان يدرسه آباؤنا منذ قرون ، وويل لنا يوم نعدل عن طب

باستور وكلود برنار الى طب ابن سينا وداود الانطاكي .
وهذا العلم الحديث الذي لا نستطيع ان نستغني عنه لا يمكنه ان يعيش ولا ان يثمر الا في جو كله حرية وتسامح فنحن بين اثنتين : اما ان نؤثر الحياة واذاً فلا مندوحة عن الحرية ،واما ان نؤثر الموت ، واذا قلنا ان نختار الجمود.

القسم الخامس

بين الجد والهزل

١

الأدب والأدباء

لم أكن في مصر حين سأل «أحد الأزهريين» كاتباً من كتاب السياسة اليومية عن الأدب والأدباء ، وحين تفضل هذا الكاتب الأديب من « كتاب السياسة » فأحال سائله على « اساتذة الأدب في الجامعة والمدارس العالية ». ولو كنت في مصر حين القي هذا السؤال وكانت هذه الاحالة لما اجبت ولا فكرت في الاجابة ، لأني اعرف هذا الكاتب الأديب من كتاب « السياسة » واعرف مكره الظريف ، واعرف انه يحب دائماً ان يلهو ويلهي الناس بالخصومة بين الكتاب ولا سيما انصار القديم والجديد منهم . واذكر انه تكلف هذه الحيلة في السنة الماضية فانخدعت له طائفة من الكتاب والأدباء ، واختصموا في القديم والجديد ، وضحك منهم ماكرنا الظريف ، كما ضحك منهم ماكرون

آخرون ليسوا أقل من صاحبنا مكراً وظرفاً . ومع اني لا اكره لماكرنا الظريف هذا ان يلهو ويضحك فقد أبيت في السنة الماضية ان ألهيه واضحكه . ولو كنت في مصر حين سئل وأحال هذه السنة لتركت الهاءه واضحاكه للاستاذ الجليل الشيخ علام سلامه ومن اليه من هؤلاء الذين يرون الجد حيث لا يكون الا الهزل والدعابة فيجدّون ويتكلفون ويضحك من يريد ان يضحك ويلهو من يريد ان يلهو ، ويستريح كتاب «السياسة» من بعض الجهد لأنهم يجدون من يملأ لهم انهاراً ، ويضيقون احياناً لأنهم يضطرون الى نشر ما يكرهون والى ارجاء ما يؤثرون نشره . ولكني عدت الى مصر وكان اول ما استقبلته من الحياة الادبية هذا الفصل الممتع الذي نشرته «السياسة الأسبوعية» الماضية للاستاذ الجليل الشيخ علام سلامه المدرس بمدرسة دار العلوم . ولست ادري لم احسست ميلاً شديداً جداً الى الكتابة بعد ان فرغت من قراءة هذا الفصل . ولست ادري لم رضيت ان الهي ماكرنا الظريف واضحكه هذه المرة وقد كنت اكره ذلك وآباه من قبل ...

فقد قرأت كلاماً ممتعاً يشبه هذا الكلام الممتع الذي نشره الاستاذ الشيخ علام ، وانا انفق حياتي في قراءة كلام كثير يشبه هذا الكلام فلا احس ميلاً الى الكتابة ولا اجد من نفسي رغبة فيها . ولعل مصدر هذا الميل ان الاستاذ الشيخ علام قليل الكتابة في الصحف ، او انه

قليل الكتابة المضاة في الصحف ، فلا اقل من ان نتلقى فصله الممتع بشيء من التحية ونتمنى ان يطلق الله قلمه فيسطر لنا في كل اسبوع فصلاً يذهب فيه هذا النحو من مذاهب البحث اللذيذة الممتعة .

ولعل مصدر هذا الميل ايضاً ان الاستاذ الشيخ علام قد وعد في آخر فصله الممتع بأن يتورط فيما تورط الكتاب فيه ، من امر القديم والجديد ، وإن لم تكن هناك صلة بين فصله الممتع وبين القديم والجديد . مهما يكن من شيء فأنا اريد ان اكتب في هذا الموضوع ، وان ابدأ بتحية الاستاذ الشيخ علام وتهنئة الصحف بفصوله الادبية القيمة ؛ التي بدأت بدءاً حسناً، والتي ستتصل اتصالاً حسناً ان شاء الله؛ ولو ان لي أن آخذ الاستاذ الجليل بشيء في هذا الفصل لوقفت معه وقفات قصيرة عند مسائل يسيرة يحسن ان نلم بها الماماً ؛ لأن الامانة العلمية تريد هذا الالمام .

فصل الأستاذ الشيخ علام يذكرني بطائفة من الكتّاب والعلماء؛ مات بعضهم منذ قرون وتوفي بعضهم منذ سنين ولا يزال بعضهم حياً يتنفس من هواء مصر ويشرب من ماء النيل . وكنت احب للاستاذ الشيخ علام ان يسمي هؤلاء العلماء والكتاب، او يومىء اليهم ليعرف الناس ما لهم وما له ، ففي ذلك وفاء لهؤلاء العلماء والكتاب وفي ذلك انصاف للاستاذ الشيخ علام نفسه .

فمن يدري؟ لعل الاستاذ قد اضاف من عنده الى مـــا قال اولئك الكتاب والعلماء اشياء قيمة عظيمة الخطر لا ينبغي ان تضاف الى غيره ، واذا أذن لي الاستاذ ان انصفه وانصف اصحابه فاني أسمي منهم ثلاثة او اربعة من غير اطالة ولا املال .

فأما اولهم فصاحب «لسان العرب» ، فقد يظهر ان الاستاذ عندما اراد ان يبين المعنى اللغوي لكلمة الادب نقل ما جاء في اللسان نقلاً في غير تحفظ ولا فقه ولا نقد ولا احتياط . نقل ما جاء في «اللسان» حتى الشواهد نظماً ونثراً وحتى وصف البعير بأنه أديب . وربما كان هذا النقل مفيداً . وعلى كل حال حق للاستاذ . ولكن من حق صاحب اللسان او من حق اصحاب المعاجم ان يشار اليهم اذا نقل عنهم ... ومن حق القراء ان يعرفوا ان ما يكتبه الاستاذ قد نقل نقلاً او استنبط استنباطاً .

واما الثاني فالمرحوم اليازجي صاحب « مجلة الضياء » . فأنا اذكر اني كنت اقرأ في هذه المجلة ايام الصبا، وكنت احب هذه المباحث اللغوية التي كان يعرض لها صاحب هذه المجلة ، والتي كان يبين لنا فيهـــا كيف تختلف الكلمات في حرف واحد يقع اول الكلمة او آخرها ، او في وسطها؛ فلا يكون هذا الاختلاف دليلاً على بعد ما بينها في المعنى ، وانما يكون دليلاً على تقاربها في المعنى كـــما تقاربت في اللفظ كوكز ولكز ووهز ولهز ونهز ، وغمز

ولمز وهمز ، ولطم ولكم ولدم ولستم ؛ ولست ادري لمَ نسي اللثم ، فرب لثمة اشبهت لطمة ! واظن ان من حق اليازجي ان يُذكر كصاحب «اللسان» ، ويخيّل اليّ ان للأستاذ الشيخ علام زميلاً في دار العلوم هو الاستاذ الشيخ احمد عمر الاسكندري يذهب هذا المذهب فيما يسميه فقه اللغة ويدرّسه درساً مفصلاً لتلاميذه ، واحسب انه قد امعن في هذا البحث امعاناً قيماً فكان من حقه ان يذكر ايضاً .

ثم اذكر رجلاً آخر كان من الحق ان يذكر ويثنى عليه وهو مصطفى صادق الرافعي ، فقد بحث مصطفى صادق الرافعي في كتابه عن كلمة الادب واطوارها ومعانيها ؛ ومن الغريب ان الشبه شديد جداً بين بحث الاستاذ الشيخ علام وبحث الاستاذ الرافعي ، وكل ما بينهما ان الرافعي قرأ اللسان وفهمه ولم يأخذ منه الا ما احتاج اليه ، وان الشيخ علام نقل اللسان نقلاً في غير نقد ولا فقه كما قلت . وان الرافعي رأى نصوصاً تضاف الى القدماء شك في صحتها فنفى بعضها واعرض عن بعضها الآخر . وان الشيخ علام اخذ هذه النصوص على علاّتها في غير نقد ولا فقه ايضاً ، وان الرافعي رأى نصاً اضافه صاحب «العقد الفريد» الى ابن عباس ؛ واضافه الجاحظ الى حفيد ابن عباس فدرس وآثر رواية الجاحظ عن نقد وفقه ، وان الشيخ علام لم ينقد ولم يحاول الفقه وإن ردد الرواية بين الرجلين ترديداً دون ان يشعر بالأثر

العظيم الذي ينشأ عن صحة احدى الروايتين.. لا اقول في صحة كلمة الادب ، بل اقول في تاريخ العلم نفسه . فلو صحت رواية العقد الفريد لكان عبد الله بن العباس عالماً بأصول النحو ملماً باصطلاحاته قبل ان تتم نشأة النحو .

فأنت ترى ان الاستاذ الشيخ علام ظلم نفسه وظلم طائفة من الذين سبقوه وعاهدوه حين ارسل فصله ارسالاً دون ان يسمي من اخذ عنهم او سار سيرتهم في البحث. وقد علم الله ما اعطف على الرافعي ولا اميل الى فنه ، ولكني احب ان انصف الرجل، واشهد ان فصلـه امتن وأقوم وأدل على الفقه من فصل الاستاذ الشيخ علام .

* * *

وانا بعدُ اخالف الرجلين جميعاً في اصل هذه الكلمة. اخالفهما لأن مذهبهما لا يقنعني ، فأنا لا افهم هذه الصلة التي يتكلفانها ويتكلفها من قبلهما اصحاب المعـاجم بين لفظ الادب وبين هذا الفعل المعروف «ادب النـاس اذا دعاهم الى الطعام». ولست اريد ان آخذ في مناقشة لغوية تثقل على قراء «السياسة» وتمل هذا الماكر الذي اضطرني واضطر الشيخ علام الى الكتابة في هذا الموضوع ، وانما اقول في ايجاز : اني أذهب في اصل هذه الكلمة مذهب الاستاذ نالينو وآخذها من الدأب بتقديم الدال على الهمزة المفتوحة ومعناه العادة والشأن والحال . ولست ارى شيئاً

من الغرابة في ان تكون كلمة الدأب قد استحـالت الى الادب فقدمت العين فيها على الفاء نقلاً ، ولا سيا اذا لوحظ ان هذا النقل مألوف في الجمع فقد جمعت الكلمة على أدآب ثم وضعت عينها موضع الفاء فقيل آداب كما آرام وآبار ثم خيّل الى الناس ان كلمة الآداب هذه جمع دأب فنشأ هذا المفرد واشتق منه التأديب واصله فيا يظهر تعليم الناس ما ورث من العادات والسنن ، أي تعليمهم ما ورث من الآداب بتقديم الدال . واكبر الظن ان كلمة الأدب وما اشتق منها محدثة . اريد انها نشأت بعد الاسلام لا قبله . وقد لاحظ الرافعي ان هذه الكلمة على خفتها وظرفها لم تستعمل قافية في الشعر القديم . واراد الاستاذ الشيخ علام – فيا يظهر – ان يرد على الرافعي من طرف خفي فروى البيت الذي يضاف الى ام ثواب والذي رواه صاحب الحماسة :

أنشا يخرّق اثوابي ويضربني

أبعد شيبي يبغي عندي الأدبا !

وفي البيت رواية اخرى . «أنشا يمزق اثوابي يؤدبني» ، وفيه رواية اخرى : « أبعد شيبي عندي يبتغي الادبـا » وحسبي ان تختلف الروايات في البيت الى هذا الحد لأشك فيه ولا اتخذه اساساً للغة .

ولست ادري اوفق الرافعي ام لم يوفق حين قال : ان هذه الكلمة لم ترد قافية في الشعر القديم . ولكن هذا لا يعنيني ،

فرأيي في الشعر الذي سبق الاسلام معروف ، فهو عندي لا يثبت شيئاً ولا يصلح دليلاً على شيء . فـاذا ثبت استعمال الكلمة في الشعر الذي نظم بعد الاسلام فذلك لا ينقص ما اذهب اليه من ان هذه الكلمة حديثة عرفت بعد القرآن . ومما يرجّح هذا ان الاستاذ الشيخ علام نفسه يقول في شيء من الحزن والرثاء ، ان هذه الكلمة قد ادركتها حرفة الادب فلم تذكر في القرآن والحق انها لم تذكر في القرآن ، وانما ذكر في القرآن الدأب بسكون الهمزة ومعناه العادة كالدأب بتحريكها . والامر لا يقف عند هذا الحد، بل ان هذه الكلمة لا توجد في اللغات السامية المعروفة . واذن فهي كلمة عربية خالصـة للعرب دون غيرهم من الشعوب السامية . ونظن انها من هذه الكلمات التي نشأت عندما تطورت لغة قريش واتسعت هذا الاتساع العظيم بعد ظهور الاسلام .

انا اذن لا أوافق الرافعي ولا الشيخ علام في اشتقاق الأدب من الأدب بمعنى الدعاء ، ولكني لا ارى بأسـاً بما كتب الرافعي في كتابه عن معاني هذه الكلمة واطوارها وان كان قد أوجز هذا البحث ايجازاً شديداً .

وسواء أكانت كلمة الادب مشتقة من الادب او من الدأب فان الخلاف بين الشيخ علام وبيني لا يقف عند اللفظ وانما يتجاوزه الى المعنى ايضاً . ولست اريـد ان اناقش الاستاذ في المعاني القديمة لهذه الكلمة ولا ان اقف

عند هذا الكلام الذي يضيفه الى النبي وعمر وعلي ومعاوية في غير نقد ولا احتياط ، وانما اقف عند جملة واحدة ارى انها تشخّص الاستاذ الشيخ علام واصحابه من انصار القديم تشخيصاً مضحكاً . وهذه الجملة هي قول الاستاذ :

« وكل علم من العلوم له غاية ينتهي عندها فتكمل مباحثه الا هذا العلم وعلم التاريخ فانهما يزيدان كل يوم ولن يزالا في نمو مطرد» وما كنت اعرف قبل اليوم ان «لكل علم غاية ينتهي عندها فتكمل مباحثه الا علم الادب والتاريخ» حتى جاء الاستاذ فانبأني بهذا النبأ الغريب الذي هو فصل ما بين انصار القديم وانصار الجديد . فنحـــن نعلم ان الحركة العلمية لن تنتهي من فـــرع من فروع العلوم الا يوم يفنى العقل الانساني ويخال بينه وبين البحث والتفكير ، ولا اعرف علماً من العلوم انتهى عند غايته وكملت مباحثه وقيلت فيه الكلمة الاخيرة ، وانما اعرف ان كل علم قابل لان يتغير ويتجدد ويحذف جحوداً . وقد كان اهل القرون الوسطى يعتقدون ان علم الفلك قد انتهى عند غايته ، وكملت مباحثه ، وقيلت فيه الكلمة الاخيرة ، ثم جاء من انبأ بأن العلم لم يبدأ وانما الأرض كرة متنقلة متحركة ، وان افلاك السماء لم يستكشف منها الا اقلها واضألها . وكانوا يعتقدون ان فلسفة ارسطاليس هي خاتمة الفلسفة وخلاصتها ، وكلمتها الاخيرة ، فجاء ديكارت وانبأهم ان فلسفة ارسطاليس هي بدء الفلسفـــة

لا آخرها ولا وسطها . وكان الناس منذ سنين يرون أنهم قد وصلوا في الطبيعة والرياضة الى نتائج علمية بعيدٌ ان تُنقض ، فجاء هنري بوانكاريه ، واينشتين ، واظهرا ان نقض هذه النتائج ليس بالشيء العسير .

ولعل الأستاذ الشيخ علام يعتقد ان الامر في العلم كالأمر في النحو عند صاحب الورقة الصفراء الذي كتبت له قواعد فحفظها ، وخيل اليه انه قد حفظ النحو كله . نعم هذه الجملة تشخص الغلاة من انصار القديم تشخيصاً لذيذاً ، فهم يرون انه يكفي ان يحفظ احدهم جملا من العلم ليكون قد ألم بالعلم كله . ولعلهم يمتازون بأنهم يؤمنون بأن كل شيء قد انتهى واقفل بابه ، فلا يمكن ان يضاف اليه ولا ان يزاد فيه . ولقد جاء الأستاذ الشيخ علام بمعجزة حين استطاع ان يعلن ان الأدب لا ينتهي عند غاية ، ولا تكمل مباحثه كما تكمل مباحث العلوم الأخرى. وما رأي الاستاذ اذا قلت له ان النحو لم تكمل مباحثه بعد ، رغم ما كتبه سيبويه وابن خروف وابن عصفور وابن هشام وابن مالك ومن اليهم من اعلام الشرق والغرب الاسلاميين ؟ بل ما رأي الاستاذ ان قلت له ان كل علوم اللغة العربية لم تنته عند غايتها ولم تكمل مباحثها ، بل هي في حاجة الى التجديد واستئناف الدرس ، ولا سيما النحو والصرف وعلوم البلاغة ؟ وما رأي الاستاذ ان قلت له ان الأدب العربي كله محتاج الى التجديد واستئناف

الدرس ؟

هنا يظهر الفرق بين الاستاذ وبيني . ولإظهار هـذا الفرق في الفهم والفقه والمنهج كتبت هذا الفصل الطويل . يرى الاستاذ وأصحابه ان لكل علم غايه يقف عندها، وتكمل مباحثه الا الأدب ، فهو لا ينتهي عند غاية ، وانما يزداد في كل يوم — ونرى نحن ان ليس لعلم من العلوم غاية ينتهي عندها ، وان لا امل في ان تكمل مباحث علم من العلوم ، وانما كل شيء في العلم قابل للتغير ، واستئناف البحث عنـه ، والادب اشد أنواع العـلم قبولاً للتغير والتجديد .

وهنا نقف عند تعريف الاستاذ الشيخ علام للأدب وقفة قصيرة ، فهو تعريف قديم يحتاج أيضاً الى التجديد. وأنا انقل لك هذا التعريف الذي يقول عنه الأستاذ انـه موجز وانه منطقي ، فسترى انه ليس من الايجاز ولا المنطق في شيء . قال الاستاذ :

« هو علم مأثور الكلام، منثوره ومنظومه قديمه وحديثه وما يتصل بذلك من اخبار بارعة ونـوادر رائعة وملَح مستعذبة وطرف مستغربة مع الالمام من كل علم بأمهات مباحثه » .

ولست احفل بهذه السجعات الرائعة البارعة ، فأنا أراها اقرب الى اللغو منها الى اي شيء آخر . ولكني ابحث عن الايجاز في هذا التعريف فلا اظفر به . اما المنطق فلنبحث

عنه معاً . ايهما اديب : من حفظ مأثور الكلام نظماً ونثراً ولقنه الطلاب ام من انشأ هذا الكـــلام المأثور ؟ وايهما الأدب : حفظُ مأثور الكلام ام انشاؤه ؟ واذن فما رأي الاستاذ الشيخ علام في نفسه ، أأديب هو لأنه يحفظ مأثور الكلام نثراً ونظماً ، ويلقنه للطلاب ، ولكنه ليس شاعراً ولا ناثراً ؟ واذا لم يكن شاعراً ولا ناثراً وكان اديباً فما رأيه في شوقي أأديب هو ام غير اديب ؟ واذا لم يكن هو اديباً وكان الاديب هو الشاعر الناثر ليس غير ، فما رأيه في نفسه وامثاله من الذين يدرسون الادب ويفرغون له ، وفي اي طبقة من طبقات العلماء يضعهم ؟ وفي اي مكانة ينزلهم ؟؟ الا يرى الاستاذ ان تعريفه ليس منطقياً لانه لا يمنع ولا يجمع ؟ وما معنى قوله علم مأثور الكلام؟ وهنا احب ان اكون ازهرياً ، ايريد العلم بمأثور الكلام فلا يكون هو اديباً لانه ليس من الذين ينشئون هـــذا المأثور ؟ ونحن نستطيع ان ندور مع الاستاذ في هذه الدائرة الى غير حد ، ولكنا نقف ونلاحظ ان تعريف الاستاذ لم يغن شيئاً .

* * *

وفي الحق اني أميل ان أقسم الادب الى قسمين : أدب المنشئين وادب الناقدين الدارسين ، او قـــل ادب الكتاب والشعراء وادب العلماء من المؤرخين والناقدين ، فشوقي أديب ، وهو الاديب حقـــاً ، لانه ينتج الادب

إنتاجاً ، وهو أديب منشىء ، ولكنه ليس عالماً بالادب لا يستطيع درسه ولا تصويره ولا تعليمه ولا تاريخه . والشيخ علام اديب ولكنه ليس اديباً منشئاً لانه ليس شاعراً ولا ناثراً ولا صاحب فن ، وانما هو حافظ لآثار الكتاب والشعراء يرويها ويلقنها وينقدها ، يوفـق في ذلك حيناً ويخطئه التوفيق حيناً والادباء المنشئون يختلفون : فنهم النابغة الفذ ، ومنهم المتوسط ، ومنهم المسفّ . والادباء والعلماء يختلفون : فنهم المجوّد ذو الرأي ، ومنهم الآلة الحاكية او الببغاء .

وأولئك وهؤلاء تختلف مذاهبهم في انشاء الادب ودرسه : فنهم المقلد ، ومنهم المجتهد المبتكر ، ومنهم من يذهب مذهب الحرية ومنهم من يؤثر مذهب الرق ، ومنهم من ينحو نحو الفلسفة ، ومنهم من ينحو نحو النقل والرواية ، واين هذا كله من التعريف الذي جاء به الشيخ علام من ايجاز ومنطق كما يقول ! ولكني قلت لك منذ حين ان الاستاذ الشيخ علام يمثل انصـار القديم حقاً ، فتعريفه قديم ، الم يعتمد فيه على ابن خلدون ؟ واسلوبه في هذا التعريف قديم ، الم يسجع كأهل القرن الرابع ؟ الم يصطنع فيه ألفاظ هؤلاء الناس ؟

الاستاذ وامثاله — كما قلت في الشعر الجاهلي — كتب قديمة متحركة او قطع من كتب وُصل بعضها ببعض .

ولنفرغ من مناقشة الاستاذ ، ولنجب ماكرنا الظريف وسائله الذي اضطرنا الى هذا العناء كله . فالادب عندنا ادبان : ادب انشاء ، هو هذا الذي ينتجه الكتاب والشعراء من اصحاب الفن . وادب علم ودرس ، هو هذا الذي ينتجه النقاد ومؤرخو الآداب . والادب الاول فن كله ، والادب الثاني مزاج من الفن والعلم . وقوام الادبين شخصية الاديب التي يجب ان تظهر في كل ما يصدر عنه ظهوراً واضحاً .

وقوام الادبين ايضاً اتصال الاديب بعصره اتصالا يمكّن من تمثيل ذوقه الفني ان كان منشئاً ، وحياته العقلية ان كان ناقداً او مؤرخاً . ليس اديباً منشئاً هذا الذي ينظم الشعر فلا يتجاوز ما قال القدماء في اللفظ والمعنى والاسلوب، وليس اديباً ناقداً هذا الذي يدرس الادب فلا يتجاوز ما قال المبرد والجاحظ وابو الفرج وصاحب العقد الفريد ، وانما الاديب المنشىء من يقرأ معاصروه ادبه ، فيرون فيه أنفسهم، وانما الأديب الناقد من يقرأ معاصروه نقده فلا يشعرون بأن بينهم وبينه بعد ما بينهم وبين القدماء .

وهنا تسألني : ماذا تصنع بالقدماء ؟ والجواب يسير : أصنع بالقدماء ما صنعوا هم بأنفسهم ، فأنا ألتمس عصورهم في هذه المرآة ، ولا ألتمس منهم العصر الذي اعيش فيه. ولقد كنت أضرب منذ ايام مثلاً للأدباء من اهل مصر :

ما رأي انصار القديم لو طلبنا اليهم ان يُهمَل ما وصل اليه العلم الحديث في الطبيعة والطب ، وان يعتمد في كليتي العلوم والطب على اشارات ابن سينا وقانـــونه ، أيرضون ام يصيحون ويستغيثون ؟ لا اشك في ان الأستاذ الشيخ علام يستغيث بالله والناس يــوم يعرف ان طب « باستور » و « كلود برنار » قــد اهمل ، وان طبيبه سيعالجه منذ اليوم كما كان يعالج ابن سينا او الحارث ابن كلدة او داود الأنطاكي .

ومع ذلك فالأمر في الادب كالأمر في الطبيعة والطب ، لا ينبغي ان يهمل طب ابن سينا وطبيعتــه لأنهما يمثلان عصراً من عصور الحياة العلمية ، فهما يُدرسان على انهما فصل مــن تاريخ الطب والطبيعه ، ولا يهمل أدب المبرد والجاحظ ، لأنهما يمثلان مظهراً من مظاهر الحياة الأدبية ، فهما يدرسان على انهما فصل مــن تاريخ الأدب ، ولكننا نجدد الأدب درساً وانشاء كما يجــدد الطبيعيون والأطباء طبيعتهم وطبهم عملاً ونظراً .

فما رأي الاستاذ الشيخ علام واصحابه في هذا الكلام؟ اما انا فواثق انهم ينكرونه الانكار كله ولا يطمئنون اليه. وهم مكرهون على هذا الانكار ، فلو قد قبلوا ما ندعو اليه لما استطاعوا ان يعيشوا . ذلك انهم غير قادرين على التجديد ، هم يؤثرون القديم ، ومن القديم يعيشون .

اما نحن فلا نؤثر القديم ، ولا نؤثر الجديد ، لأننا لسنا في حاجة الى احدهما لنعيش ، وانما نؤثرهما معاً وندرسهما معاً لاننا لا نبغي الا العلم ، والا العلم خالصاً من كل شيء .

٢

خطرات نفس

للدكتور منصور فهمي

كنت اتحدث منذ اشهر الى عالم كبير من علماء الفرنسيين في مصر ، وكان يشكو اليّ ان اعماله الادارية تستغرق اكثر وقته ؛ وتصرفه عن الدرس ، بل عن متابعة الصحف والمجلات العلمية التي تعنيه ، لأنها تتصل بالمادة التي يدرسها. قال : فاذا كان الشتاء شغل العلماء في مصر عن علمهم بهذه الحياة الاجتماعية العتيقة المفعمة بالزيارة والاستقبال ، والتي تلتهم آخر النهـــار وشطراً من الليل في اكثر ايام الأسبوع . فالعالم فى مصر مضيع للوقت والجهد ؛ يصرف وجه النهار في حياة يومية عادية هي قوام عيشه ، وينفق آخر النهار في حياة اجتماعية خاملة هي قـــوام مركزه في

الدائرة الاجتماعية التي يدور فيها ، وهو ان فرّط في تلك الحياة الادارية مقصر يتعرض للوم واحتمال التبعات الثقيلة . وإن قصّر في هذه الحياة الاجتماعية انكرته بيئته، واعرض عنه نظراؤه ، واتهم بالكبرياء والفتور والجفوة والاهمال . وكل هذه خصال لا يحب ان يتصف بها الرجل الذي يريد ان يعيش في مصر هادئاً مطمئنا . فاذا فرغ العالم من حياته الادارية والاجتماعية فقد انقضى النهار وتقدم الليل ، وينظر فاذا هو امام حقوق لاهله لم يؤدِّ منها شيئاً وامام حقوق لنفسه لم يفكر فيها ، ثم يقهره ضعف الجسم فيأوي الى مضجعه يقضي فيه بقية الليل بين أرق مضنٍ ونوم ثقيل. ثم يستقبل غده بمثل ما انفق فيه امسه. وعلى هذا النحو تمر الايام والاسابيع والشهور ، والعالم منصرف عن علمه منهمك فيما لا يجد فيه لذة ولا غناء .

قال صاحبي ، واستطيع ان اؤكد لك اني اذا خلوت الى نفسي — وقلما أخلو اليها — وفكرت في ذاك ضاقت بي الحياة ، وضقت بها ، واستيقنت ان حياة العلماء في مصر تضحية مؤلمة مستمرة . فالناس في بلادنا لا يثقلون العلماء بأعباء الزيارة والاستقبال ، ولا يشقون عليهم بالدعوة الى الشاي والعشاء ، والسيدات لا يتخذن زينة يظهرنها في غرفات الاستقبال كلما خطر لهن ان يستقبلن او في الحفلات الساهرة كلما خطر لهن ان يحتفلن .

ولو ان رجال السربون والكوليج دي فرانس اختلفوا

الى غرفات الاستقبال وشهدوا ما يقام في باريس من حفلات في الليل واخرى في النهار ؛ لما كانت السربون والكوليج دي فرانس عقل فرنسا المفكر وقلبها النابض الحساس .

قلت : ومع ذلك فقلما تخلو غرف الاستقبال الباريسية من عالم او اديب يلتف حولـــه السيدات ، فيلقين عليه اسئلة حلوة مرحة ، ويسمعن منه اجوبة عذبة مرضية ، فيها فكاهة لا تخلو من مرارة ، وفيها جد لا يخلو من سخرية . واحسب ان الفرق بين فرنسا ومصر انمـــا هو كثرة العلماء والادباء في الأولى وقلتهم في الثانية . فعندكم من العلماء والادباء من يفرغون للجامعة ، ويعكفون في المعامل ودور الكتب . وعندكم من العلماء والادبـــاء من يشهدون المحافل ، ويزينون المجالس ، ويرضون حاجة السيدات الى المفاخرة بمن يحضر يوم استقبالهن من رجال العلم والادب والحرب والسياسة والقضاء . امانحن فالمستنيرون عندنا قليل فضلاً عن العلماء والادبـــاء المتميزين . فليس عجيباً ان تشق الحياة على الظاهرين من علمائنا وادبائنا ، وان تتخطفهم المجالس وتتنافس غرف الاستقبال أيها يزدان بأكبر عدد ممكن منهم .

قال صاحبي : ليكن مصدر ذلك ما تحب ان يكون ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو ان نتيجة ذلك ثقيلة مؤلمة . فلو قد رأيت مـــا يجتمع في مكتبي من الصحف والمجلات والرسائل والكتب التي تنتظر ان أقرأها لراعك

الأمر . وجاءت سيدة ففرقت بين صاحبي وبيني بابتسامة عذبة ومزاح ظريف .

كنت افكر في هذا الحديث منذ ايام حين كنت استعد للسفر ، وحين كان صاحبي يسألني عما اريد ان اصطحب من كتب ، فتأخذني حيرة لا اكاد اصفها ولا اصورها .

فقد انقضى العام ولم اقرأ شيئاً . هذه كتب قديمة طبعت واستخرجت من دور الكتب في الشرق والغرب ، ومن الحق علي لنفسي ان اقرأها او انظر فيها ، وقد كنت اتحرق شوقاً اليها قبل ان تقدمها الى المطبعة وتجعلها يسيرة قريبة المنال . وهذه مقالات نشرها المستشرقون في مجلاتهم المختلفة ، ومن الحق علي ان اقرأها او الم بها لأعرف ما يقول الزملاء فيما أفرغ لدرسه من العلم . وهذه مقالات نشرها الادباء المعاصرون في مصر ، وحفظها صاحبي لأقرأها متى اتيح لي الوقت ، فمن الحق عليّ ان اعرف ما يقول المعاصرون من المصريين والشرقيين لأعيش على بصيرة وفهم للعصر الذي احيا فيه . وهذه كتب الفها فلان وفلان من الاصدقاء او من الادباء المتميزين ، ومن الحق علي لنفسي ولهؤلاء الادباء ان اقرأ ما يكتبون، لأحيا على اقل تقدير حياة الرجل المثقف الذي يلم بما يظهر حوله من فكرة او رأي او مذهب . كل هذا مجتمع في مكتبي وصاحبي يسألني عما احب ان احمل منه الى اوربا . ومهما تكن رغبتي في القراءة شديدة اثناء هذه الرحلة فأنا احب

أن اقرأ ما سأجده في اوروبا من كتب وصحف. وانا لا اذهب لأوروبا للقراءة وحدها وانما اريد ان استريح وان ارفه على النفس، اطوف في الارض واشهد الملاعب واستمع للموسيقى والغناء ، فالطاقة محدودة ، والوقت محدود ، وهذه زوجي تلفتني الى ان الحقائب محدودة ايضاً ، والى انها لم تصنع لتفعم بالكتب ، وانما صنعت لتوضع فيها الثياب ، وما يحتاج اليه المسافر من ادوات ليس الى الاستغناء عنها من سبيل . وهي تحدد ما استطيع حمله من كتب على ان يوضع بعضه في هذه وبعضه في تلك، ويحمل صاحبي بعضه الآخر فيضعه في حقيبته . وانا اضيق بهذا كله فأكره الإقامة والسفر وامقت الجد والكسل ، ثم أخرج من طوري فأفرض كتباً لا بد من حملها مهما يكن من شيء ، واترك لزوجي وصاحبي ان يتخيرا بعد ذلك ما يشاءان وما تتسع له حقائبها من هذه الكتب المكدسة .

وقد وصلت الآن الى فيينا ، واستقر بي المقام فيها أنتظر مؤتمر المستشرقين ، وانا اسأل صاحبي ؟ ماذا حملت من كتب المعاصرين ؟ فيجيب مبتسماً : لقد حملت ما تحب ان تقرأ : حملت كتاب التراجم لهيكل ، وحملت كتاب البهاء زهير لمصطفى عبد الرازق ، وحملت كتاب خطرات نفس لمنصور فهمي. لقد وفقت الى حسن الاختيار ولكن ألم تحمل مصرع كليوباترة لشوقي ؟ قال صاحبي دهشاً : ولم احمله وقد قرأته في الصيف الماضي ؟ وانكرت

من صاحبي اهمال هذا الكتاب، فقد كنت أحب ان اعيد النظر فيه فانكرت جوابه ، فقد كنت احب ان اتحدث عن هذا الكتاب الى الناس ، ولكن لا بد مما ليس منه بد . فلأقرأ ما بين يدي ، ولابدأ بآخر هذه الكتب ظهـوراً وهو خطرات نفس . ولست حديث عهد بهذا الكتاب فقد تبعته منذ نشأته الاولى وسايرته نحو خمس عشرة سنة حين كانت فصوله المختلفة تنشر في الصحف شيئاً فشيئاً ، فأرى بعضها قبل ان يظهر، وارى بعضها مع غيري من القراء . وكنت من الذين طلبوا الى منصور ان يجمع هذه الفصول في سفر مستقل كما نفعل جميعاً حين نؤلف من فصولنا التي تنشرها الصحف اسفاراً تجمع متفرقها ، وتسهل على الناس قراءتها والرجوع اليها . واذا كان صديقنا منصور حريصاً على ان يجمع خطرات نفسه لأنها تمثل صباه وشبابه ، وهو يحب ان يرجع الى ماضي حياته ليحب ما فيه من ذكرى، فان اصدقاءه يحرصون على مثل ما يحرص عليه لأنهم يحبون ان تجتمع لديهم حياة صديقهم في صباه وكهولته . فيقفوا عند هذه الحياة وقفات فيها حب ومودة ووفاء ، وربما كان فيها عتب وخصومة واختلاف في الرأي ، فمهما يكن الكاتب مستقلاً قوي النفس عظيم الشخصية ، فهو متصل ببيئته ، متصل بمعاصريه يلائمهم احياناً فيرضون وينافرهم احياناً اخرى فينكرون . وكذلك حياة الاديب في كل بيئة وفي كل جيل : هو مخدوع ، يحسب انه يكتب لنفسه

لانه يحس من العواطف والاهواء ما لا يجد بداً من اعلانه فهو يرفه على نفسه حين يكتب او ينظم الشعر ، ولكنه في حقيقة الامر يكتب للناس ، ذلك بانه كائن اجتماعي محتاج الى ان يعطي الناس ويأخذ منهم ، فهو لا يستطيع ان يكتفي بما يحس في نفسه ، بل لا بد له من ان يشرك الناس فيما يحس .

وقد يوفق الى ما يريد فيشاركه الناس فيما يحس ويرى، وقد لا يوفق فلا يشاركه منهم احد او لا يشاركه منهم الا القليل .

ويخدع الاديب نفسه من ناحية اخرى حين يألف الاذاعة والنشر ويحس من الناس ميلاً ليه ، ورغبة في آثاره ، فيمضي في الاذاعة والنشر معتقداً انه يكتب للناس ، وهو في حقيقة الامر يكتب لنفسه لانه احب رضا الناس عنه، وميلهم اليه وكلفهم به ، فهو يستزيد حين يكتب من هذا الرضا والميل والكلف . فاذا زعم الاديب انه يكتب لنفسه وحدها فهو مخطىء . وانما الحق انه حين يكتب يؤدي عملاً اجتماعياً فيه له وللناس لذة ومتعة . ومهما يكن الحـــاح الملحين على اخذنا في جمع ما تفرق من آثارنا ، ومهما يكن ترددنا في الاستجابة لهذا الالحاح ، فان الاسباب التي دعتنا الى نشر فصولنا في الصحف هي بنفسها التي تدعونا الى ان نؤلف من هذه الفصول اسفاراً تذاع مرة اخرى

في المكتبات بعد ان اذيعت في الصحف اليومية او الاسبوعية او الشهرية .

وبينما كنت اقرأ هذه المقدمة الطريفة التي قدمها منصور بين يدي هذه الخطرات في طورها الجديد لفتتني حاشيـة قرأتها مرة ومرة فأنكرتها بعض الشيء ، ذلك ان صديقنا يزعم فيها انه لم يغير من فصوله شيئاً الا مـا كان من اعراب لفظ او تصحيح آخر ، وانه قد عهد في ذلك الى الاستاذ صادق عنبر فتولاه عنه ، وهو يشكر للاستاذ هذا الفضل شكراً جميلاً .

واشتد انكاري لهذه الحاشية حين اظهرني صاحبي على فصل لصديقنا هيكل لم يكد يتجاوز فيه هذه الاسطر من كتاب منصور . فقد وقف عندها وقفة طويلة يسجل على نفسه وعلى منصور وعلى الكتاب المعاصرين ضعفاً ظاهراً في اللغة العربية وقصوراً عن احسان الانتفاع بها واعترافاً بهذه القصور . وانا أعترف بأني لم افهم هذه الحاشية ، فلو قد كان صديقنا منصور معترفاً بضعفه في العربية مكبراً لها لعرض فصوله على الأستاذ صادق عنبر او على غيره ليعرب الفاظها ، ويصححها قبل ان يدفعها الى الصحف ولكنه لم يفعل ، فهل احس هذا الضعف واعترف به حين اراد ان يجمع هذه الفصول في كتاب ؟ وأغرب من هذا ان نقرأ الفصول مجموعة فلا نجد فرقاً لغوياً بينها في هذا السفر وبينها في الاهرام والسفور : ففيها ما فيها من

صواب لغوي كبير وخطأ لغوي قليل يغفر لمنصور لأنه لم يزعم لنفسه في يوم من الايام تفوقاً في اللغة او عصمة من الخطأ فيها ، وانما عرفته دائماً يأسف لأنه لم يظفر من اللغة بما كان يريد .

في هذه الفصول مجموعة اغلاط لغوية كانت فيها متفرقة ، ولم يصححها الاستاذ صادق عنبر ولم يعربها لأنه لم يكلف تصحيح اللغة ولا اعرابها ، وانما كلف تصحيح التجارب المطبعية طبقاً للأصل الذي دفعه اليه المؤلف ، فأحسن الاستاذ صادق عنبر هذا التصحيح ، والا فكيف ترك الاستاذ صادق عنبر الذراع مذكرة تذكيراً لا يحتمل الشك في صفحة ٣٢ ؟ وكيف ترك الاستاذ صادق عنبر في صفحة ٨٣ هذا الاستعمال العددي الذي لا يخلو من غرابة وهو «من نيف وعشر سنين» ، وانا لا اذكر هذين المثلين الا لأثبت ان الاستاذ صادق عنبر لم يعرب الفاظاً ولم يصحح اخرى ولم يطلب اليه منصور ذلك ، وانما صحح تجارب المطبعة ، فأراد منصور ان يشكر له هذا الجهد ، فأسرف في التعبير كما اسرف صديقنا هيكل في استنباط ما استنبط من هذه الحاشية .

وبعد ، فمن الحمق ان نقف عندما يمكن ان يوجد في كتاب منصور من انحراف قليل عن طريق العرب في التعبير ، فليس منصور صاحب ألفاظ ولا هو يزعم لنفسه ذلك ، وانما هو صاحب معان غزيرة غنية ، وخطرات قيمة خصبة .

وانا اريد في هذا الفصل ان اقف عند هذه الخطوات وقفة قصيرة ، لأحقق الى حد ما ، هذه الشخصية الأدبية التي تمثلها وهي شخصية صديقنا منصور .

ليست هذه الشخصية قوية الى حد الطغيان ، وليست ضعيفة الى حد الفتور ؛ وليست هادئة الى حد الاطمئنان، ولكنها شخصية ثائرة جامحة ، دون ان يكون في ثورتها او جموحها هذا العنف الذي لا يذر شيئاً اتى عليه الا دمره تدميراً . فصديقنا منصور ثائر ولكنه لا يحطم شيئاً ، جامح ولكنه لا يلبث ان يعود ويطمئن الى ما يطمئن اليه الناس . هو ثائر ماهر يستطيع ان يخترق الزجاج وينفذ منه الى ما وراءه دون أن يحطم او يحدث فيه صدعاً . ذلك لأنه ينفذ منه ببصره لا بجسمه . واذا شئت التعبير الدقيق فقل انه يرى التجديد ويحبه دون ان يقدم عليه ؛ لأنه يؤثر العافية ويفضل الانتظار . وليس في ذلك شيء من الغرابة . فصديقنا منصور شديد التأثر بفريقين من الفلاسفة: أحدهما فلاسفة القرن الثامن عشر في فرنسا ؛ والآخر فلاسفة الاجتماع في آخر القرن الماضي واول هذا القرن الذي نحن فيه . فأما الفريق الأول فانت تعلم انهم اعدوا الثورة الفرنسية ولم يشهدوها ، ولو شهدوها لنفروا منها نفوراً شديداً . وانت تعلم مقدار ما كان من الفرق بين الحياة العقلية والشعورية والحياة العملية لروسو وفولتير . وأمـــا الفريق الثاني فأصحاب علم وملاحظة ، لا يعنون الا بأن يلاحظوا

ويستنبطوا ويتركوا للحوادث طريقها الى انشاء التاريخ .

والغريب من امر صديقنا منصور انه تأثر بفيلسوفين مختلفين اختلافاً شديداً : احدهما روسو وهو صاحب الشعور الدقيق والعواطف الحادة والمزاج المضطرب والخيال الخصب، والآخر دوركيم وهو صاحب العقل المستقيم والمنهج العلمي الدقيق وابعد الناس عن التأثر بالعاطفة والخضوع للشعور ، فهو يدرس الجماعة كما يدرس صاحب الحيوان والنبات في معمله .

وأثر روسو في الخطرات أشد وأظهر من أثر دوركيم فالخطرات حديث العواطف ، وهو حديث وجه الى الكثرة من الناس . فلا ينبغي ان يكون حديثاً علمياً يخاطب العقل الخالص ، لأن هذا العقل الخالص لا يوجد في الشوارع ، وانما يوجد في المكاتب المغلقة ، ولم يتحدث منصور الى اهل المكاتب المغلقة . وانمـا يتحدث الى الناس الذين يغدون ويروحون ويمشون في الأسواق ويختلفون الى الأندية والملاهي .

ولو أني أردت أن احـدد تأثير روسو في خطرات منصور لأشرت الى هذا الطموح الظاهر الى مثل اعلى من الخير يلتمسه منصور كما كان يلتمسه روسو في الطبيعـة الحرة الساذجة التي لم تفسدها الحضارة ، ولـم يمسخها التكلف ، والتي يجدها في الريف ، وفي بعض الطبقات من الناس . ثم لأشرت الى العاطفـة الدينية في خطرات

منصور ، فهي قوية جدا تبلغ التصوف أحياناً ، ولكنها غريبة جداً لا تكاد توفق الى تحديدها : فيها من الاسلام وفيها من الروح اليوناني ، وفيها من الروح المصري القديم، وفيها من مذهب وحدة الوجود .

وأنت تستطيع ان تجد هذا كله في الفصول التي كتبها منصور حين رحل الى بلاد اليونان سنة ١٩٢٣ ووقف على الأكروبوليس متأثراً بوقفة رينان [١] .

على ان هناك فرقاً عظيماً جداً بين رينان ومنصور حين وقف في الأكروبوليس ، فقد كان رينان اديباً وفيلسوفاً ومؤرخاً . اما منصور فكان أديباً وفيلسوفاً ليس غير . وكم كنت احب ان يقرأ شيئاً من تاريخ اليونان قبل ان يذهب الى اتينا . فهناك فصل أسفت له اشد الأسف ، ولـــو استشارني منصور لأشرت عليه بحذفه ، لا لضعف في معناه أو لفظه فهو قوي المعنى جيد اللفظ [٢] ، ولكن لبعده عن الحق ولأنه أراد أن ينصف آلهة المصريين القدماء فظلم آلهة اليونان ظلماً شديداً . عنوان هذا الفصل هو « وقفة بالحصن المقدس — العرق دساس » أراد منصور ان يتقرب الى

---

١ — قبلته وصلاته الى الالهة اليونانية أثينا . والواقع ان العاطفة الدينية في هذه الفصول متأثرة بهذا التدين الغريب الذي كان يظهره رينان . والذي لم يكن رينان نفسه يستطيع تحديده .

٢ — وقد اختاره الأستاذان كمفير وطه الخميري نموذجاً لكتاب منصور في سفر يعدانه باللغة الانكليزية عن الكتاب المعاصرين .

آلهة الحسن في أتينا ، وما أشك في انه اراد الآلهـة آتينا نفسها ، وان كانت عنايتها بالحسن اقل مما ظن منصور بكثير . انما أفروديت هي التي كانت تعنى بالحسن ، ومع ذلك فالصورة التي تخيلها منصور من الحسن ليرضي الآلهة اليونانية بعيدة كل البعد عما يرضي آلهة اليونان ، قريبة كل القرب الى ما يرضي الغانيات في القاهرة او باريس . فقد أراد منصور أن يتجمل بأحسن ثيابه ، ويرجل شعره ويصلح من شاربيه ، ويتعطر باحسن الطيب ، ويضع في صدره زهرة غضة ويرسل عليه سلسلة ذهبية ، ويضع في أصبعه خاتماً يتألق ، ثم ذهب يشتري عصا . وبينما التاجر يعرض عليه أظرف ما عنده من العصي رأى عصاً تمتاز بالمتانة والصلابة والشدة فآثرها ، لأنه ذكر المصريين وآلهتهم وانهم كانوا يمتازون بالقوة والمتانة فانصرف اليهم وانحرف عن الآلهة اليونانية معتذراً اليها لأنه من قوم كانوا يؤثرون القوة. ولم ينس منصور الا شيئاً واحداً ولكنه عظيم الخطر جداً ، وهو أن آلهة أتينا كانت آلهـة الحكمة من ناحية وآلهة الحرب من ناحية أخرى ، وانها خرجت من رأس أبيها كأقوى ما تكون سلاحاً واستعداداً للحرب ، واظن ان آلهة الحكمة والحرب لا تنقصها المتانة والقوة . ذلك الى ان آلهة الحسن نفسها وهي افروديت كانت عند اليونان قوية شديدة البأس ، دافعت عن طروادة فأحسنت الدفاع وكادت تنتصر . فانت ترى أن جمال هذا الفصل قد

ذهب لان كاتبه لم يكن مؤرخاً حين كتبه .

ولأعد الى ما كنت فيه من وصف العاطفة الدينية في خطرات منصور ، فقد قلت انها قوية حادة وان فيها من الديانات المختلفة والمذاهب الفلسفية ما يذكر برينان . ويكفي أن تنظر الى هذا الفصل الذي يشبه فيه الجمال بالله وبالقوة الخفية لانه يعرف بآثاره دون ان تدرك حقيقته ، لتحس من قوة هذه العاطفة وسعتها ما يثبت صحة ما أقول .

ولروسو تأثير آخر في خطرات منصور كاد يجعله كاتباً بارعاً من الوجهة اللفظية لولا انه لم يدرس اللغة العربية درساً عميقاً . ذلك ان روسو قد بث في نفس منصور قوة غريبة تكرهه على ان يظهر ما يشعر به قوياً كما يشعر به ، اي في قوة وعنف ، فيحمله ذلك على ان يخترع صوراً من التعبير ليست مألوفة ، وكانت خليقة ان تبقى وتؤرخ عصراً من عصور اللغة لو استقامت لصاحبها طرق التعبير ، ولو انه تأنى وتمهل ولم يخرجها عجلان مسرعاً. وانت تجد صورة قوية من هذا في الفصل الذي كتبه يودع به العام ، فأخذ يفكر ويستعرض الحوادث وينتظر آخر لحظة في السنة ، حتى اذا اخذت الساعة تدق خُيل اليه ان كل دقة من دقاتها تحصي أثراً من آثار العام ، فأعلن بهذه الصورة الغريبة الطريفة التي كادت تكون بديعة لولا انه تعجل ولم تستقم له اللغة فأصبحت صورة مضحكة ، او داعية الى الابتسام . وانا أنقلها لك لترى صحة ما

أقول :

« تن ... سخرت من الغافلين حتى صحوا من الشدة والمحن ..

تن ... أغريت الانسان بالذهب الوهاج فتهافت على ناره كما يتهافت على النور الفراش ...

تن ... جعلت في الناس والأمم من يعملون لقتل الضعيف ولو كان بريئاً ...

تن ... آويت اللص وسترت الخديعة ، وكثيراً ما اعليت الباطل على الحق ...

تن ... نفرت بين قلوب ، وأشعلت ضغائن ، واثرت فتناً ...

تن ... صرفت الناس عن وجهك يا ألله ليعمدوا الى الاثرة والشهوات ...

تن ... تمخضت بآراء وقدمت عظات وعبراً ، ولكن الناس لا يفقهون ..

تن ... أحرقت أفئدة وأجريت دموعاً وشربت دماء ..

تن ... كم من صحيح أضعفت ... وكم من عزيز أذللت.. وكم من عليل داويت ...

تن ... جردت أشجاراً من ورقها الأصفر الجاف ... وأبدلتها منه ورقاً جديداً ... وجعلت عليها زهراً نضيراً...

تن ... صرفت العاشقين وهم في سكرات القبل عـــن مرارة العيش . ثم اخذتهم أخذ الجبار فبدلت هناءهم تعساً.

وبدلت سعادتهم شقوة وجحيماً ...
تن ... لبيك اللهم لبيك .. » .

هذه الآثار القوية المختلفة التي تركها روسو في نفس منصور جعلت منه كاتباً ، ليس كغيره من الكتاب المعاصرين، نزعته الفلسفية في جوهرها غريبة بعض الشيء لأنها لا تلائم العصر الذي نحن فيه ، ولكنها في شكلها وظاهرها مألوفة يحبها الناس لأنها سهلة تدعو في يسر ولين وقوة الى الخير ، والى الفضائل التي أحبها الناس وألفوا حبها ، تدعو الى الرحمة والاشفاق والبر والحنان والوفاء وما الى ذلك من الفضائل الاجتماعية والفردية . ولا بد هنا من الاشارة الى ناحية اخرى لا تتم بدونها شخصية منصور وهي شرقيته ، فمنصور مؤمن بالرابطة الشرقية ايماناً قوياً قديماً ، لعله يعتمد على الوراثة والمزاج الفطري أكثر مما يعتمد على الروية والتفكير العقلي . والذين يعرفون صديقنا منصوراً يشكون في ان اشد الأوتار التي تتألف منها نفسه حسا واضطراباً وترديداً لأصداء الحياة انما هو حبه للشرق وفناؤه فيه .

كان شرقياً حين كان طالباً للعلم في باريس، كان يألف الشرقيين أكثر مما يألف الغربيين، كان يألف على اختلافهم، كان يألف ابناء الشرق القريب من العرب والترك، وكان يألف أبناء الشرق الاوسط من الفرس . وكان يحس من نفسه ميلاً لا يخلو من حنان الى ابناء الشرق الاوروبي من الروسيين

والبولونيين . ثم عاد الى مصر ، فلما ضاقت به واضطر الى الرحيل عنها نفى نفسه الى الشرق، فهاجر الى قسطنطينية وأقام فيها حتى ردته الحرب الى وطنه . فعاد اليه شرقياً كما تركه شرقياً . ولم يكد يشترك في الحياة الاجتماعية الظاهرة حتى كان نشاطه قوياً عنيفا يكاد يبلغ التعصب في انشاء الرابطة الشرقية وتأييدهـا ، وهو الآن من اقطابها الظاهرين . وهو في هذا كله يصدر عن العاطفة والوراثة أكثر مما يصدر عن الروية والتفكير . وقد اثرت شرقيته هذه في خطرات نفسه كما اثرت في حياته العملية وصلاته الاجتماعية فهو في الخطرات شرقي ، لولا الحياء وخشية أن يوصف بالرجعية لآثر القديم الشرقي على الجديد الغربي في غير تحفظ ولا احتياط . واحسب انه سينتهي على مر الزمن الى هذا الموقف فيصبح محافظا مسرفا في المحافظة . وهو في صلاته الاجتماعية قريب من بيئة المحافظين المعتدلين الذين لا يكرهون التجديد ، ولكنهم لا يقدمون عليه الا في استحياء . وهو يعد بين الأزهريين اصدقـاء يحبهم ويحبونه ويميل اليهم ويكلفون به . وقـد لاحظ الأستاذ حبيب هذه الخصلة في صديقنا منصور ومصطفى عبد الرازق فأشار في بحثه الأخير عن المعاصرين من أدباء مصر الى أنهما يستمتعان برضى البيئات المحافظة .

أما أثر علماء الاجتماع المعاصرين في منصور فلا يكـاد يظهر في الخطرات الا حين يتحدث منصور عن الجماعة ،

فتراه يفهمها ويصفها على نحو ما كان يفهمها ويصفهـا دوركيم . ولكني قلت آنفـاً ان صديقنا لم يتحدث في الخطرات الى العلماء ، وانما تحدث الى الكثرة من الناس فلم يكن من اليسير ان تصور الخطرات حياته العلمية وهو بخيل الى الآن باظهار هذه الحياة العلمية في كتاب ينشره على الناس . وهو يزعم في تواضع فلسفي انه لا يحب ان يظهر هذا الكتاب حتى يتم نضجه العقلي ، كأنه يريد ان يخيل الى الناس ان عقله لم ينضج بعد . ولكن اصدقاءه وطلابه في الجامعة لا يطمئنون الى هذا التواضـع ، ولا يسحرهم هذا الخيال ، فهم يتمنون على الاستاذ ان يفرغ لهم قليلاً وان يبيح لهم شيئاً من آثار عقله الذي تم نضجه منذ دهر طويل .

أثارت الخطرات في نفسي هذه المعاني ، ولمـا أقرأ منها الا نصفها او ما دون النصف . ولست ادري متى أقف لو انتظرت بكتابة هذا الفصل ان اقرأ الكتاب كله. وانك ترى معي اني قد اطلت وأسرفت في الاطالة . فلأتم وحدي قراءة هذا الكتاب القيّم .

فيينا (يونيو سنة ١٩٣٠) .

٣

ديكارت

شيخان من انصار القديم قرءا كتاب «الشعر الجاهلي» الذي اذعته منذ اسابيع . وكانا قد سمعا به قبل ان يظهر ، وكانا قد ازمعا الرد عليه بعد ظهوره . فلما ظهر الكتاب قرأاه كله او بعضه ، فاعترضهما فيه اسم ديكارت ومنهجه الفلسفي . والله يصرّف الكون كما يريد ، ويجري الأقدار فيه كما يحب ، وقد اراد الله ان يظهر اسم ديكـــارت وفلسفته منذ ثلاثة قرون وان يطبع العصر الحديث كله بطابع ديكارت ، وان يتغلغل تـــأثير ديكارت كاسم أرسطاليس عنواناً لطور من اطوار الحياة الانسانية العامة التي تلزم الاجيال مهما تختلف بها الأزمنة والأمكنة . اراد الله هذا كله ، واراد معه شيئاً آخر هو ان يظل ديكارت

مجهولاً عند طائفة من شيوخ الادب في مصر ، لا يعرفون اسمه ولا مذهبه ، ولا يدركون كيف يؤكل ، وان دروا كيف تؤكل الكتف ، ولا يعرفون كيف يشرب ، وان عرفوا كيف تشرب القهوة والشاي ، وكيف يشرب الخروب والعرقسوس . واذا اراد الله امراً فلا مرد له .

وليس لنا ان نذعن للقضاء ونصبر لجهل شيوخ الأدب العربي اسم ديكارت وفلسفة ديكارت في العصر الذي يحرص الانسان فيه على ان يعلم كلما استطاع ان يعلم .

ومن غريب الامر ان شيوخ الأدب القديم يرون ويكتبون كما كان يرى الادباء القدماء ويكتبون : أن الاديب «هو من يأخذ من كل شيء بطرف» كذلك قال شيخ الادب في دار العلوم ، وانما اريد الاستاذ الشيخ علام ، قال ذلك في «السياسة» منذ اسبوعين ، ولم يكن في ذلك مجدداً ، وانما كان يحكي القدماء ويرددهم. وقد كان المبرّد حريصاً كل الحرص على ان يأخذ الاديب من كل شيء بطرف ، وظهر ذلك في كتاب الكامل ظهوراً واضحاً حتى انك لترى فيه باباً قال المبرد في عنوانه : «باب نذكر فيه من كل شيء شيئاً». وكتب الادب العربي القديمة كلها قائمة على هذا النحو من تصور الادب والاديب . والاستاذ الشيخ علام واصحابه يرون رأي القدماء ، ويكتبون ان الاديب يجب ان يلم من كل شيء بطرف ، بل يجهلون

ديكارت وفلسفته وأثره البعيد في حيـاة العقل والشعور كما قلنا .

وهم يجهلون ناساً آخرين غير ديكارت ، واشيـاء اخرى غير فلسفة ديكارت ، ولكنهم مع ذلك يرون انهم ادباء ، وانهم قد ألموا من كل شيء بطرف . ومعذرتهم في هذا قائمة : فديكارت ليس شيئاً وفلسفته ليست شيئاً، والحق عليهم ان يلموا من كل «شيء» بطرف . فأمـا ماليس «شيئاً» فلا ينبغي ان يلموا منه بقليل ولا كثير . فاذا اردت ان تعرف لم لا يكون ديكارت شيئـاً من الاشياء ، ففي جواب ذلك قولان : أحدهما ان الشيء الذي ينبغي ان يلم الادباء بطرف منه هو الشيء الرسمي الذي اشتمل عليه برنامج التعليم الرسمي في وزارة المعارف . فعلى الاديب ان يلم بعلوم العربية وان يلم بالريـاضيات والطبيعيات . وليس في البرنامج الرسمي لوزاة المعارف ذكر ديكارت ولا فلسفة ديكارت . واذن فهما ليسا في الورقة الصفراء ... واذن فليس الاديب مكلفاً ان يلم منهما بطرف لأنهما ليسا شيئاً .

هذا احد القولين : وهناك قول آخر وهو ان الشيء الذي ينبغي ان يلم الاديب منه بطرف هو الشرقي القديم ... أستغفر الله العظيم وأتوب اليه ، بل هو العربي القديم . مصر الفراعنة ليست شيئاً ، ومصر اليونان والرومان ليست شيئاً . وليس الاديب مكلفاً ان يلم منها بطرف ، واقسم

ما يعرف الاستاذ الشيخ علام واصحابه لها طعماً .. أستغفر الله العظيم وأتوب اليه ، بـل الشيء هو العربي القديم الذي لا يتجاوز بلاد العرب والشام والعراق في العصور العربية الاولى والاندلس في بعض عصورها الاسلامية . فأما مصر الفاطميين والمماليك ، فأما افريقيا الشمالية فليست شيئاً وللأدباء ان يجهلوها ، وهم يجهلونهـا بإذن الله . واذن فأوروبا ليست شيئاً . واذن فديكارت ليس شيئاً وفلسفته ليست شيئاً . وجهل اوروبا وديكارت وفلسفته ليس من الامور التي تعاب على الاديب . ورحم الله شيخـاً من شيوخنا في الازهر اراد ان يرفع في يوم من الايام ظلامة الى المحافظة فلم يستطع ان يكتب ما كان يريد ، فاستعان بأحد «ابناء المدارس» معتذراً او مفاخراً بأنه لا يحسن مثل هذا السخف الجديد . فلشيوخ الادب ان يعتذروا او ان يفاخروا بأنهم يجهلون ديكارت وفلسفته لانهما ليسا شيئاً ، ولأن من السخف ان يضيع الاديب وقته في درسهما ، وخير من ذلك وأجدى ان ينكب الاديب على فقرة من فقرات الحريري ، او مقامة من مقامات البديع ، او بيت من شعر امرىء القيس .

ولكن حظ الاديب سيء ابداً ، وانت لم تنس بعد حرفة الادب التي قتلت ابن المعتز ، ونتفت لحية الحريري ، وحالت بين لفظ الادب وبين الورود في القرآن ، فالأدب لذيذ ولكنه شؤم على اهله . ومن شؤم الادب على الادباء

ان كتاباً ظهر في هذه الايام يقال له «الشعر الجـــاهلي» ويجب على الادباء ان ينقدوه وينقضوه ويهدموه ويهدموا كاتبه ، ويتقربوا بهذا النقد والنقض والهدم الى الله أو .. الى الشيطان . وقد اقسموا ليفعلن . وقد بدأوا يفعلون فما هي الا ان اعترضهم هذا الشجى وهو اسم ديكـــارت وفلسفة ديكارت .

والحق نقول ان موقفهم بازاء هذا الاسم والفلسفـــة كان بديعاً لا يخلو من فكاهة وظرف . فأما احد هذين الشيخين اللذين ذكرتهما في اول هذا الفصل واللذين اهدي اليهما هذا البحث فقد كتب في تواضع يشبه الكبرياء انه لا يعرف ديكارت ولا مذهبه ، وانه يظن او يرجح ان مذهب ديكارت قريب من المذاهب الاسلامية ، وان صاحب «الشعر الجاهلي» قد حرف هذا المذهب لحاجة في نفسه او كما قال الشيخ ، واما الآخر فعزيز عليه ان يتكبر او يتواضع على هذا النحو . وهو قد تعود ان يستغل الرافعي واليازجي والسكندري وابن مكرم دون ان يذكرهم او يشير اليهم ، فلمَ لا يستغل في امر ديكارت حياً او ميتاً يشبه هؤلاء ؟ وقد بحث بين الاموات فلم يجد وبحث بين الأحياء فلم يجد من كتب عن ديكارت او اشار اليه ، وهو لا يعرف لغة ديكارت ولا لغة اجنبيـــة اخرى . وإذن فليلجأ الى احد الذين يعرفون لغة من هذه اللغات ليقص عليه امر ديكارت ، ويلخص له فلسفته ، حتى

اذا استقام له ذلك في صفحات او اسطر تكلم عن ديكارت وفلسفته كلام العالم المحقق واثبت لصاحب «الشعر الجاهلي» انه لا يفهم ديكارت ولا يحسن تخريج مذهبه الفلسفي . وكان قد تفوق على زميله الذي يكتب في « الاهـــرام » فعرف من امر ديكارت وفلسفته مـــا لم يعرف هذا الشيخ المسكين .

وانا احد الذين يعرفون لغة اجنبية واحد الذين يحسنون لغة ديكارت ، وأحد الذين قرأوا ما كتب عن ديكارت. وانا اريد ان أهدي الى الشيخين بحثاً عن حياة ديكارت وفلسفته ليتها به ادبها ويستعينا به على هدم كتاب الشعر الجاهلي ، والتهام صاحب هذا الكتاب التهاماً . وانا مخلص فيما اكتب ، فأنا احب ان يلتهمني الشيخان لأني اعرف ان حلقيهما ان استطاعـــا ازدرادي فستعجز معدتاهمـــا عن هضمي .

أنا أهدي الى الشيخين بحثي عن حياة ديكـــارت ، ولكني اهديه اليهما على ان يقرآه ويفقهاه فقهاً «حسناً» لا يشبه فقههما «للشعر الجاهلي» ولا للسان العرب ولا لما كتب الرافعي او أملى السكندري . وانا اهدي هذا البحث الى الذين يعرفون ديكارت من المتفرنجة والمتعلمين على اختلافهم ذلك اني اعلم من أمر ديكارت ما لا يعلم الناس في مصر، فقد كنت اريد ان اضع فيه كتابـــاً واضطرني ذلك الى كثير من البحث والتحقيق والى الوان من الاستقصـــاء

والاستقراء . ولكني لا آسف على ما لقيت من عناء ، فقد وصلت الى نتائج غريبة قيمة لو أعلنتها في فرنسا لاندكت لها السوربون ولاضطربت لها الكوليج دي فرانس ولأعلن لها المجمع العلمي الفرنسي افلاسه ... لا تضحك ولا تعجب فلست احدثك الا بالحق الذي لا شك فيه ولا غبار عليه . ويكفي ان تعلم اني استكشفت طائفة من الكتب المخطوطة التي كتبت في النصف الثاني للقرن السابع عشر بعد ان مات ديكارت بسنين قليلة ، والتي كانت محفوظة في مكتبة الملك الخاصة ، حتى اذا كانت الثورة الفرنسية ، وتبدد ما في القصر ضاعت هذه الكتب ، ولم يستطع ان يظفر بها الذين انشأوا المكتبة الأهلية في باريس بعد الثورة ، وأخذت اسرة من الأسر الشريفة تتوارث هذه الكتب ، حتى انتهت الى صديق لي فرنسي ، كان يدرس معي ، وهو يقيم في ريف بورجونيا ، فدعاني في بعض فصول الصيف ان اقضي عنده اياماً ففعلت ، واظهرني على مكتبة آبائه ، فاذا فيها هذه الكتب المخطوطة ، فدرسناها معاً، ولم نستوف درسنا بعد ، وسنقدمه الى السوربون يوم نستوفيه ، وسننشر هذه الكتب على الناس ، وسنودع اصولها المخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، وسيعلم الناس يومئذ انهم لم يؤتوا من العلم عن ديكارت الا قليلاً ، وستعلم الحكومة الفرنسية يومئذ ان هذه الطبعة الرسمية التي نشرتها في اثني عشر مجلداً ضخماً لا تشتمل الا على ما

كان يكتبه ديكارت ليلهو ويعبث ويلهي الناس عن فلسفته الصحيحة .

فديكارت كأرستطاليس يذهب في الفلسفة مذهبين مختلفين أحدهما يعلنه الى الناس ، فأنهم يستطيعون أن يفهموه وأن يسيغوه ؛ والآخر يحتفظ به لنفسه ، وللأصفياء من تلاميذه ولا يذيعه في الجماهير لأنه اعسر وأدسم من ان تحتمله عقولهم . وقد ظفرت الحكومة الفرنسية بالقسم الأول من آثار ديكارت ، فعهدت الى عالمين من اكبر علماء فرنسا بتحقيقه ونشره ففعلا ، ووقع هذا القسم في اثني عشر مجلداً ضخماً كما قلت لك . ولكن من يقرأ هذه الطبعة الرسمية او هذه المطبوعة الرسمية – على رأي وحيد – ويقارن بينها وبين ما سننشره قريباً سيرى أن ديكارت كان غريباً حقاً . فقد كان يأتلف من شخصين يختلفان فيما بينهما كل الاختلاف : أحدهما فيلسوف معتدل معقول يكتب بالفرنسية حيناً ، وباللاتينية حيناً آخر ، ويتناول فيما يكتب كل ما تناوله الفلاسفة من قبله ، ويذهب فيما يكتب مذهب التجديد ، فيخيل اليك انه سيؤسس فلسفة جديدة تهدم ما اقامه ارستطاليس وتلاميذه . ذلك لأنه يتخذ لفلسفته هذه قاعدة لم يألفها الناس ، هي نسيان القديم والبراءة منه كله ، وافتراض انه لم يكن ، حتى اذا قرأت هذه الفلسفة وتعمقت فيها لم تجد جديداً ، ولا شيئاً يشبه الجديد ، وانما هو كلام ككلام الفلاسفة فيه كثير من

الحدود والقضايا والأقيسة ، ومع ذلك فقد فتن الناس بهذا الشخص واعتبروه أبا الفلسفة الحديثة ، ومؤسس العلم الجديد . ولكن الشخص الثاني هو الذي لفتنا وبهرنا ، لما فيه من غرابة كنا ننتظر كل شيء الا اياها . ذلك أن ديكارت لم يكن مسيحياً ولا فيلسوفاً ولا من اصحاب التجديد ولا من انصار هذه الحقائق الثابتة التي ألفها الناس ، وانما كان مسلماً دياناً متصوفاً مغرقاً في التصوف شطاحاً مسرفاً في الشطح . انتهى به هذا كله الى شيء لا أستطيع ان أسميه الا « اظهار الكرامات » . ولعل أحسن طريق لشرح هذه الناحية الخفية من حياة ديكارت أن ألخص لك في شيء من الايجاز بعض ما كتبه ديكارت عن نفسه ، وما وجدناه في هذه الكتب (المخطوطة) التي حدثتك عنها آنفاً .

ولد ديكارت في القرن السادس عشر ، للمسيح ، وكانت أسرته فقيرة ، شديدة المحافظة على العادات القديمة والسنن الموروثة ، فلما شب ارسلته أسرته الى مدرسة اليسوعيين ، فتعلم فيها على نحو ما كان اليسوعيون يعلمون . أتقن اللاهوت وفلسفة العصور الوسطى واللغتين اللاتينية واليونانية . ولكنه كان ذكياً حاد الذهن مستعداً للنقد والشك ، فاضطربت نفسه اضطراباً شديداً حين أحس تناقضاً بين قواعد اللاهوت وفلسفة أرسطاليس . ولكنه لم يظهر من هذا الشك شيئاً لأنه كان محافظاً كأبويه واساتذته

اليسوعيين . على انه لم يكد يدع المدرسة حتى سئم الحياة التي وجهه اليها أبواه ، وهي حياة الحرب ، فانصرف الى السياحة ولقي في هولاندا رجلاً شيخاً من اليهود يقال له دروكلكسيس بن كراباك . قال ديكارت : كان لهذا الشيخ تأثير غريب في نفسي ، لا ادري أكان مصدره ذكاءه وفطنته أم غرابة شكله ، واختلاف اطواره العجيبة. كان قصيراً ضخما عريض ما بين الكتفين ، صغير العينين غائرهما ؛ ولكن عينيه كانتا شديدتي التوقد كأنهما شعلتان تضطربان ، عريض الأذنين ، دقيق الأنف ، غليظ الشفتين ، مرسل اللحية ، فأما صوته فلا اعرف اني سمعت صوتا يشبهه . أما في حديثه العادي فكان غليظا متهدجاً أشبه شيء بالرعد ، فاذا ناقش او ناظر في العلم كان نحيف الصوت حاده خلاب الحديث . ولا أعرف اني رأيت عالما يحيط بمثل ما كان يحيط به هذا الرجل مما كتب الأولون والآخرون ، كان يهودي الجنس والمولد ، ولكنه لم يكن يهودي الدين . واحسب أنه قد ورث شيئا من آبائه الذين خالطوا المسلمين مخالطة شديدة في اسبانيا . كان غنيا ولكنه شديد الزهد فيما كان يملك من ثروة ، الا انه كان يحب الاستمتاع بالطيب من لذات الحياة ؛ وكان يعجبني في بيته شيئان : مائدته ومكتبته . تحدثت اليه في الفلسفة وفي اللاهوت فسمع مني ، وتحدث الي ، وما هي الا ان فتنت به وشغف بي ، وأصبحت لا استطيع عن

لقائه صبراً . وقد كان في حديثه الي ماهراً لبقا يلقي الي اغرب الآراء ، وكأنه يحدثني عن الجو والمطر ، حتى اذا آنس مني اطمئنانا اليه ، وثقة بكل ما يقول ، كشف لي عن دخيلة نفسه ، فاذا هو لا يؤمن بالمسيحية ولا اليهودية ، ولا يحب الالحاد ولا الملحدين ، وانما اتخذ لنفسه دينا كنت اسمع به ، ولا اعرف من حقيقته شيئا . فلما رغبت اليه في ان يظهرني على دقائق هذا الدين اطال الصمت ، ثم قال في هدوء : ما احب أن اظهر لك هذا الدين ، وانما احب ان يظهر لك الدين نفسه فاتبعني ، ثم مضى بي الى مكتبته واستخرج سفراً ضخما دفعه الي ، وقال اقرأ هذا ، فاذا فرغت منه فلنتحدث ، ثم تركني ومضى . ونظرت في الكتاب فاذا هو باللاتينية واذا هو ترجمة لكتاب كتبه احد المسلمين في القرن العاشر للمسيح يقال له الطواسين ويقال لصاحبه الحلاج [1] ولم اكد امضي في هذا الكتاب حتى احسست كأن بيني وبين الحقائق ستراً صفيقا ؛ وكأن هذا الستر أخذ يرتفع شيئا فشيئا ويظهر لي من ورائه عالم بديع غريب خلاب ، واخذت نفسي تمتلىء شوقا الى هذا العالم وهياما به . انفقت في قراءة هذا الكتاب اياما ثلاثة ، فلما فرغت منها انكرت نفسي وانكرت ما حولي مـن

---

١ — ألفت الاستاذ لويس ماسينيون الى هذه الترجمة اللاتينية لكتاب الطواسين فأنا أعلم أنه يعنى بهذا الكتاب وصاحبه وانه قدم الى السوربون فيهما رسالة كان لها خطر عظيم

الأشياء ومن حولي من الناس . ولقيني دروكلكسيس فلم يظهر عجبا ولا انكاراً ...

واذا كنت لا ازال حيا الى الآن ، واذا كنت قد استطعت ان انشر في الناس كتبا اعجبتهـم ، واكتب لنفسي كتبا قرأوها ، واذا كان صوتي قد وصل الى اقصى اطراف الارض ، وتنافس الملوك في عشرتي والاستئثار بـي ، فأنا مدين بهذا كله لدروكلكسيس بن كراباك . ذلك اني خرجت من قراءة ذلك الكتاب مفتونا ، اريد ان اعلن الى الناس ايماني بهذا الدين الجديد ، واناضل عنه بما املك من قوة ، ولكنه حال بيني وبين ذلك ، وكان يقول لي في هدوء : احذر ان يصيبك ما اصاب الحلاج فلا تنتفع بحياتك ، ولا تنفع بها الناس ، والحياة اغلى وانفس من ان تبذل في غير نفع ، فاكتم ما انت فيه وانفق حياتك في التسبيح والتقديس ، وانفع الناس ما استطعت الى نفعهم سبيلاً .

من ذلك الوقت آثرت العزلة ، وعشت هذه المعيشة التي كان الناس يعجبون من امرها .

وفي الحق ان حياة ديكارت كانت غريبة ، فقد كان ينفقها في موقد له لا يخرج منه الا مضطراً ، وكان يقسم وقته اربعة اقسام : احدها لما يحتاج اليه جسمه من العناية المادية ، وكان يقتصد في هذه العناية اقتصاداً شديداً ، لا يأخذ من الأكل والشرب والنوم الا بمـا يمسك عليه

الحياة ؛ والثاني ينفقه في الكتابة والتأليف فيما ينفع الناس في هذه الحياة العاجلة ، والثالث في التفكير الفلسفي الاشراقي ، والرابع في التسبيح والتقديس وتلاوة صيغة معينة أخذها عن شيخة دروكلكسيس بن كراباك . وكان لترديده اياها تأثير عظيم في حياته العملية والعقلية . قال ديكارت :

« بينا أنا في موقدي ذات يوم اردد ما تعودت ترديده من صيغ التسبيح والتقديس اذ أخذتني غفوة ، فرأيت فيما يرى النائم كأن سقف البيت قد انشق وكأن طائراً قد هوى الى الموقد ، له شكل الهدهد ، ولكنه أكبر منه حجماً وأعرض منه جناحاً ، وكأن هذا الطائر قد وقف قبالة الموقد محدقاً فيّ منصتا لما اقول ، وكأنه قد انكر صمتي ونومي فقال في لغة لاتينية تبينتها في وضوح وجلاء: عجباً لهذا الصامت النائم والفلك يدور ، وشيخه في خطر ، فاستيقظت لهذا الصوت في شيء من الانزعاج ، ونظرت فلم أر شيئاً ، ولكني أشفقت على دروكلكسيس وأردت ان اراه فسعيت اليه من فوري ولم أكد اسأل عنه حتى حدثت انه مريض ، وان الطبيب يخشى عليه . فأدخلت عليه ، فاذا هو في سريره شاحب ضعيف يتردد نفسه قوياً في صدر فارغ ، فجثوت عند سريره ، وأخذت ادعوه في رفق ، وكأنه كان نائما فانتبه وقال : هأنتذا قد اقبلت ، لقد ارسلت ادعوك وكنت اخشى ان افارق هذه الحياة قبل ان اراك ، فهل جاءك رسولي ؟ قلت من رسولك ؟

قال : بريبيش ، قلت : هذا اسم لم إسمعه من قبل ، قال : ولكنك رأيت مسماه منذ حين ، هو طائر يشبه الهدهد ويتكلم لاتينية سيسرون ، فاحفظ اسمه فسينفعك ، وادعه كلما احتجت الى شيء شاق ومره بما شئت فستجد منه طاعة واخلاصاً ونصحاً ، واعلم انـه موكل بزعماء المتصوفة منذ كانوا ، يخدمهم ويقضي حاجاتهم ، لا يجد في ذلك مشقة ولا عسراً ، وهو فوق العلة ، وفوق الموت حتى تنقرض طائفة المتصوفة ويموت بعد آخرهم بقليل . خدم متصوفة الهند قبل المسيح بآلاف من السنين ، واشرف على بناء الأهرام ، واملى ما كتب فيهـا من طلاسم ، واعان فيثاغورس ، ورافق افلاطون في سياحته ، ولزم الحلاج وابن الفارض ومحيي الدين بن العربي ، وسيلزمك منذ غد ، وسيعينك على سياحات لا بد من ان تسيحها في الأرض ، فأنت مضطر الى زيارة البيئات الصوفية في بغداد والقاهرة وتلمسان وفارس ، على اني مؤد اليك أمانة يتناقلها زعماء الصوفية ويتوارثونها وهي لهم نافعة فخذها فأنت زعيم الصوفية بعدي .

ثم أخرج من تحت وسادته علبة صغيرة من الذهب أشبه شيء بعلب النشوق التي يصطنعها الشيوخ في مصر وقال : احتفظ بها ولا تفتحها الا حين يطلب ذلك اليك صديقنا بريبيش ، واحفظ عني هاتين الصيغتين تستقبل بأولاهما النهار وبأخراهما المساء ما حييت . ثم همس بالصيغتين في

اذني على انهما سر لا يباح الا لزعيم . وما هي بعد ذلك الا ان اضطرب جسمه اضطراباً شديداً ثم هدأ وقد فارقته الحياة ، واذا بريبيش قد ظهر في الغرفة ، وقال في هدوء: «انصرف فقد مضى صاحبك ، ودع هذا الجسم لأهله فليس لك به شأن فخرجت » .

وهنا يصف ديكارت حزنه علـى صاحبه في عبارات مؤثرة حقاً ، ولكن صحف « السياسة » محدودة ، فلأدع حزن ديكارت ولأتم ما انا فيه من ذكر حياته الغريبة .

اصبح ديكارت بعد انصرافه من عند صاحبه ، فاستقبل النهار بالصيغة التي اداها اليه دروكلكسيس . وما كاد يستقر في موقده حتى جاءه بريبيش فقال : ما انت وهذا الموقد ، وما انت والكتابة والتفكير ؟ هلم الى سياحتك . قال ديكارت لبريبيش : ولكني لم اعـد لهذه السياحة شيئاً . فدعني ادبر امري . قـال بريبيش : ومتى دبر الصوفية لأنفسهم امراً ! قم فانطلق معي . ومضى في الجو قريباً من الأرض يسايره فيلسوفنا حتى خرجا من المدينة ، واذا جرة ضخمة من الفخار قـد نقشت عليها نقوش وتصاوير لم ير مثلها ديكارت . قال بريبيش : امتط هذه الجرة وردد صيغة المساء مرات . ففعل ، واذا الجرة تصعد به في الجو حتى اشفق على نفسه ، ولكن الجرة ماضية ، ماضية في الجو لا تلوي على شيء ، والطائر مواز لها يمضي في رفق ويتلو في اعجاب خطبة من خطب

سيسرون التي ألقاها في مجلس الشيوخ الروماني يعنّف بها كاتيلينا . وهو يحلل هذه الخطبة ويظهر للفيلسوف ما فيها من آيات البلاغة . ومضيا على هذا النحو ، واذا بريبيش يقول لصاحبه : انظر الى الارض ، فينظر فلا يرى الا امواجاً تلتطم وتصطخب ، فيسأل صاحبـه اين نحن ؟ فيجيبه : نحن نعبر البحر الى الاسكندريـة . وانتصف النهار ، وأحس فيلسوفنا الجوع والظمأ ، فيسأل الطائر : من لنا بطعام وشراب ؟ قال بريبيش : والعلبـة التي أهداها اليك امس دروكلكسيس اين هي ؟ هي معي . اذن فأخرجها وافتحها. فيخرج العلبة ويفتحها فلا يروعه الا فتاة ظريفة قد خرجت منها مبتسمة محيية مصفقة ، واذا فتيان وفتيات قد اقبلوا اليها من الجو مسرعين ، واذا هي تأمرهم بلغة لا يفهمها ديكارت فيسائل صاحبه ما هذه اللغة ؟ فيجيبه : هي اللغة السريانية التي لا بد لك من ان تتعلمها بعد حين . وما هي الا لحظات حتى وقفت الجرة في الجو لا تتقدم ولا تتـأخر ، ونصبت امامها في الجو مائدة فخمة صفت عليها الصحاف والأكواب من الذهب والفضة ، وقدمت عليها ألوان من الطعـام لا عهد لديكارت بلذتها وحسن مذاقها في الفم وموقعها في المعدة ، فأكل الفيلسوف وشرب ، ومن حوله الطير تصدح بأنغام لذيذة حلوة ، حتى اذا تم له من ذلك ما اشتهى رفعت المائدة ، واستخفى كـل شيء ، وأقبلت

الفتاة السريانية مبتسمة قائلة في ظرف وخفــة : والآن فأدخلني علبتي ، فيفتح لها الفيلسوف العلبة فتستخفي فيها، وتستأنف الجرة سيرها في الجو . ويأخذ بريبيش في قراءة لخطبة التاج التي ألقاها ديموستين على الأثينيين محللاً مستنبطاً اسرار البلاغة اليونانية . فاذا سأله ديكارت عن حبــه اللاتينية واليونانية قال : انا موكل بالأدب احبه وانفق فيه حياتي ، ولست أوثر ادباً على أدب ، وانمــا احيط بالآداب كلها . وانت تعلم ان الاديب يجب ان يلم من كل شيء بطرف ، قال ذلك ادباء العرب وسيقوله في آخر الزمان منهم رجل يقال له الشيخ علام . واذا كنت قد تلوت عليك خطبة سيسرون وخطبة ديموستين ، فذلك لأنك تعرف اللغة اللاتينية واليونانية . وسأتلو عليك غداً قصيدة عربية وضعها رجل يقال له خلف الأحمر، ونسبها الى شاعر يقال له النابغة الذبياني ، وهي قصيــدة جيدة لا يشك سامعها في انها قديمة ، وقد استشهد النحاة بشيء كثير منها على قواعد النحو العربي . قال ديكــارت : وأي فائدة في تلاوة هذه القصيدة او غيرهــا من الشعر العربي ، وانا أجهل لغة الحلاج ، ولا استطيع ان اقرأ هذا الكتاب القيّم كتاب الطواسين الا في هذه الترجمة اللاتينية التي نشرت في القرن الثالث عشر والتي أرجح أنها لا تخلو من خطأ . قال بريبيش : ستعرف اللغــة العربية وتتقنها اذا أمسيت ، فليس يبــاح لك ان تدخل

بلداً دون ان تعرف لغة اهله ، واذا كنت ستزور اطراف الأرض كلها فستعرف لغات الناس جميعاً ، قال ديكارت: ومن لي بذلك ؟ قال بريبيش : انا لك به ، انظر الى هذه العلبة الصغيرة ، انها تحتوي اللغات جميعاً ، فيهـا أقراص تشبه اقراص النعناع كل واحد منها يمثل لغة من اللغات ، فاذا اشرفنا على البلاد العربية فسأدفع اليك قرص اللغة العربية تزدرده فاذا انت أقدر الناس على ان تنشد وتفهم وتنقد ما ينسب الى امرىء القيس من شعر ، وما يضاف الى تأبط شراً من سخف ، وما يحكى عن قس ابن ساعدة من وعظ وارشاد ، واذا انت من أقدر الناس على مناقشة سيبويه والخليل والمبرّد فيما تركوا من قواعد النحو والعروض والقافية والصرف ، فانتظـر . وانتظر ديكارت حتى اذا مالت الشمس الى الغروب نظر فاذا من تحته مدينة يموج الناس فيها موجاً. قال لصاحبه ما هذه المدينة ؟ قال: هي مدينة طنطا يحتفل الناس فيها بمولد السيد أحمد البدوي؛ فازدردْ هذا القرص، ففعل . وقال بريبيش كلمات هوت لها الجرة الى الارض ، ونظر ديكارت فاذا هو واقف على قدميه . قال له بريبيش ضع هذه القلنسوة على رأسك لتستخفي عن أعين الناس ففعل ، ومضى مع صاحبه يزور المولد ويجلس في كل خيمة لحظة ثم دخلا المسجد واختلطا بالشيوخ والطلاب والزائرين والذاكرين .

وعلى هذا النحو الذي يفصله ديكارت تفصيلاً ممتعـاً

قضى صاحبنا سنتين كاملتين مطوّفــاً في اقطار الشرق الاسلامي كله متقناً لغاتها وعاداتها ، ذاكراً مع الذاكرين، متيّماً مع المتيمين ، دائراً مع الدائرين ، يلتهم النار حيناً ويبتلع الزجاج آخر ، وينتطق بالحيات والافاعي ، ويمشي على الماء ويطير في السماء ويزور الجن في الارض السابعة، والملائكة في السماء الرابعة ، حتى اذا قضى من هذا كله وطراً وعلم من اسرار الكون ما يضمره الشرق وحده ، عاد الى هولاندا فمكث في موقده اشهــراً يكتب ويفكر ويقدس ويأتيه بريبيش كل مساء فيقضي عنده ساعة ثم ينصرف . حتى جاءه ذات يوم فقال : احسب انك قد احببت الراحة وكرهت مشقة السفر ، ومع ذلك فلا بد لك من رحلة اخرى ليست اقل مشقة ولا نفعاً من رحلتك الاولى فقم على اسم الله . قال ديكــارت : ألا ننتظر اشراق النهار ؟ قال : كلا ، وما انت والنهار والليل ؟ الجرة تنتظر وعلبتك كفيلة بحاجات السفر وعلبتي كفيلة بتعلم اللغات ، وسأتلو عليك في هذه الرحلة آيات ألمانية وروسية لم تظهر بعد ، لأن اصحابها لم يخلقــوا ولكنهم سيخلقون وسيحدثون هذه الآيات فيعجب بها الناس ، سأتلو عليك ما سيحدثه جوت وهنري هين وتلستوي وغيرهم من اعلام الشعر والنثر والفلسفة في القرن الثــامن عشر والتاسع عشر والعشرين ، ثم سأتلو عليك كتاباً يكتبه بعد سنين يهودي يتأثر بمذهبك اسمه سبينوزا سيكتب في الأخلاق

والفلسفة متأثراً بهذا الكلام الفارغ الذي تكتبه للنـاس في اوقات الفراغ . وسيظن انه وصل الى الحق وسيلقى من الناس اكباراً واحتقاراً . وقد استصحبت كتاباً شرقيـاً عربياً سيظهر في الربع الاول من القرن العشرين في مدينة القاهرة ، وهو كلام فارغ ككلامك هذا الذي تنشره على الناس ، واسمه يدل على انه فارغ وهو كتاب «في اوقات الفراغ» الذي سينشره على الناس كاتب ظريف مفكر بجد حيناً ويعبث أحياناً ، اديب ولكنه يحب السياسة ويرشح نفسه للانتخاب في مجلس النواب ، واسمـه محمد حسين هيكل . فأنت ترى ان رحلتنا ستكون قيمة سهلة ، ولاسيما حين اتلو عليك كتاباً باللغة العربية سيضعه مصري في القرن التاسع عشر يقال له الشيخ محمد عبده ويترجمه في القرن العشرين عالمان يقال لأحدهما مصطفى عبد الرازق وللآخر برنار ميشيل ، وسترى ان هذا الشيخ المصري المسلم متأثر تأثراً تاماً بفلسفتك هذه الفارغة التي تفسد بها عقول الناس ، وتنشىء لهم بها علماً جديداً ، سيمكنهم من استعباد البخار والكهرباء والماء والهواء والصعود الى السماء . قم بنا .

فقاما وامتطى فيلسوفنا جرته ومضيا نحو الشمال. واستمرا في رحلتهما اياماً وليالي متنقلين من ادب الى ادب ، ومن فن الى فن حتى استقبلهما في صباح يوم مشرق جبل شاهق لا يصل الطرف الى قمته، قال ديكارت : أين نحن ؟ قال بريبيش نحن في اقصى الارض من ناحيتها الشمالية ، وهذا

الجبل الذي تراه هو سورها الذي يأخذها من جميع اطرافها. قال ديكارت مصفقاً : هذا جبل قاف : قال بريبيش نعم هو جبل قاف . قال ديكارت . ليس وراءه الا الماء الذي لا حد له طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً، والذي لا يحيا فيه شيء ، قال بريبيش اخطأت فسترى ان في هذا الماء حياة وأحياء . قال ديكارت : ماذا تقول ؟ سنقتحم هذا الجبل ؟ قال بريبيش: وما جئت بك الا لنقتحمه . ان من ورائه قوماً ينتظرونك لتنشر فيهم الدعوة الى الحق ، وتخرجهم من الظلمات الى النور ، دع هذه الجرة فهي لا تغني عنك شيئاً . قال ديكارت . وكيف نصعد في هذا الجبل ؟ قال بريبيش : اترى الى هذا السحاب المتراكم ، ستهبط منه سحابة تحملنا الى حيث نريد . وهبطت سحابة فاذا شيء اشبه بعربة من الذهب الخالص ، فيه وسائد من الحرير والاستبرق، واكواب مُلىء بعضها من الشاي وبعضها من القهوة ، وبعضها من اللبن ، وعلبة نشوق وسجائر مختلفة منها الطويل والقصير ، والضخم والنحيف ، ولكنها كلها عطرة أرجة يتضوع منها نشر يشبه العنبر ، وفيها شيشة وجوزة ، وفيها نرد وشطرنج ودومينو وما الى ذلك من ادوات اللعب . جلس الفيلسوف ومعه بريبيش واخذ في تدخين الشيشة لأنه كان قد جرب ذلك في دمشق فأحبه. اما بريبيش فأخذ يدخن الجوزة لأنه كان كثير الاختلاف الى حي من احياء القاهرة في باب الشعرية ، وهناك تعلم

هذا النحو من التدخين . وصعدت بهما السحابة في السماء حتى انتهت بهما الى قمة الجبل ، فهم ديكارت بالخروج فأمسكه بريبيش قائلاً : لا نخرج حتى تشرب قدحاً من اللبن وكأساً من القهوة وحتى نتنشق ، فكل هذه الاشياء من ثمرات الارض التي نتركها ، ولا بد من ان نذوقها الآن لنضمن لأنفسنا العودة الى هذه الارض أحياء او أمواتاً ، فإن نحن لم نفعل فسيقوم جبل قاف حائلاً بيننا وبين الارض آخر الدهر . شربا ودخنا وخرجا. فاذا طائر عظيم لا يستطيع الطرف ان يحيط به قد حلق كأنه ينتظر أمراً. قال ديكارت : ماذا أرى ؟ قال : هذا الطائر الذي تراه هو بلاجوست ، وهو السفينة التي يتخذها الأحياء فيما وراء جبل قاف لمواصلاتهم فامتط هذا الطائر فسأكون معك، وسترى انه يقطع في لحظات ما تقطعه سفنكم في ايام . واستقر على جناح الطائر وما هي الا لحظات قصار حتى هوى بهما الى جزيرة عظيمة فيها غابات كثيفة ومروج خضر ، ولكن اهلها قصار لا يتجاوز ارتفاع احدهم شبراً ، عراض يتجاوز عرض احدهم متراً وهم يضحكون ابداً ، ولهم فيما بينهم حديث كقصف الرعد ، وهم يدخنون ولكن بآذانهم ، يدخل الدخان في احدى الأذنين فيخرج من الاخرى ، وليس لكل واحد منهم الا عين واحدة قد استقرت في وسط جبهته ، ولكنها ضخمة متوقدة يتطاير منها شرر مخيف . قال ديكارت :

ولكني لا افهم شيئاً مما يقولون . قال بريبيش : هذا قرصهم فازدرده تفهم لغتهم . واخذ ديكارت يسمع لغتهم ويفهمها ، فقال لصاحبه : ألست ترى معي ان هذه اللغة تشبه اللغة البلغارية شبهاً شديداً ، قال بريبيش : هي اصل اللغة البلغارية وهؤلاء الناس هم آباء البلغار ، كانت فيهم ثورة منذ آلاف السنين انتصرت فيها الديمقراطيـة على الاشراف فأجلتهم عن بلادهم ، فعبروا جبل قاف ، وهناك في ارضكم اثر فيهم الجو ، فأخذ من عرضهم ، وزاد في طولهم ، فاستقامت لهم هيئات وقامات كهيئات الناس وقاماتهم ، ومضوا في طريقهم حتى انتهوا الى الارض التي تسمى الآن بلغاريا . فاحتلوها واستعمروها . وهم الذين تحدثوا الى فقهاء المسلمين عن ارض تشرق فيها الشمس ستة أشهر فليس فيها ليل ، وتغيب عنها ستة أشهر فليس فيها نهار . وقد وضع فقهاء المسلمين احكاماً فقهية لأهل هذه البلاد تمس اوقات الصلاة بنوع خاص وقد جئت لتنشر الاسلام في هذه الارض ، فعلم الناس كيف يؤقتون الصلاة حين تشرق الشمس ، وحين تغيب ، وامض بنا فان «قاطرينا» تنتظرك في قصرها . قال ديكارت : من قاطرينا ؟ قال بريبيش : هي ملكة هذه الجزيرة حدثتها عنك وانبأتها بنبئك ، فهي تنتظرك وقد زارها من قبلك دروكلكسيس وزارها الحلاج وزارها فيثاغورس. قال ديكارت : هي اذن خالدة لا تموت قال بريبيش : ان

الخلود لم يكتب لأحد ، كل شيء هالك الا وجه الله ، ولكن ملوك هذه البلاد كتب لهم طول الأعمار . فأعمارهم لا تعد بالسنين ولا بالقرون وانما تعد بالآلاف . وقد ولدت قاطرينا سنة ٣٥٠٥ قبل المسيح وملوك هذه البلاد اذا بلغوا من العمر ثلاثة آلاف سنة جاءهم النبأ بالعام الذي سيموتون فيه . وقاطرينا تعلم انها ستموت سنة ١٩١٧ حين يقرب الالمان من مدينة باريس في الحرب العالمية الكبرى التي ستكون في ذلك الزمان ، وهي مشوقة الى ان تراك لتأخذ عنك العلم والحق والدين ، وتنفق ما بقي لها من الدهر في عبادة وتقرب الى الله تاركة امر الملك لولي العهد الذي يبلغ من العمر الآن ألفي سنة ، واسمه ساباتيه بن ارابيشا . ومضيا حتى انتهيا الى القصر ، فاذا فخامة وضخامة وترف لا عهد لفيلسوفنا بها ، واذا الملكة القصيرة العريضة تنظره مبتسمة ، واذا هو لم يكد يجلس اليها حتى اخذت تتحدث اليه وتسأله ، واتصل مجلسهما ساعات فتنت فيها الملكة بفلسفة ديكارت فتنة لا حد لها ، ولم تأذن له بالانصراف ليستريح الا كارهة ، واخذ فيلسوفنا يتردد على الملكة يعلمها ويفقهها في الدين والتصوف ، وهي به مشغوفة ، ولكن جو هذه الجزيرة لا يلائم طبيعة اهل هذه الارض فقد اخذ ديكارت يلاحظ ان قامته تقصر وتعرض ، وشكا ذلك الى بريبيش فقال له : ألم انبئك ان اهل البلاد حين هاجروا الى ارضكم ضاقوا وطالوا حتى

اصبحوا امثالكم ؟ فأهل ارضكم اذا جاءوا الى هذه البلاد قصروا وعرضوا حتى اصبحوا كغيرهم من سكانها، ولكن السن كانت تقدمت بديكارت فلم يستطع ان يقاوم امتداد جسمه من نـاحية وانكماشه من نـاحية اخرى فتوفي عام ١٦٥٠ .

وقد وصف بريبيش في كتاب ارسله الى الحكومـة الفرنسية مع جثة ديكارت مقدار مـا اصاب الملكة من جزع وحزن لفقد هذا الفيلسوف قبل ان تنتشر مذاهبه القيمة في رعيتها . قال بريبيش في آخر كتابه : والرأي عندي ألا يسافر الزعماء الذين سيخلفون ديكارت الى ما وراء جبل قاف الا في منتصف الألف الثالث بعد المسيح، ففي ذلك الوقت قد يتشابه ويتقارب ما دون الجبل ومـا وراءه بحيث يصبح طول الناس جميعاً اربعة اشبار وعرضهم اربعة امتار ، وفي ذلك اليوم قد يكون فن الطيران قد تقدم ويستطيع الناس ان يقتحموا جبل قاف ، ويعبروا بحر كاف ، ويصلوا الى جزيرة نون في سهولة ويسر . قال بريبيش على اني الموكل بهؤلاء الزعماء فلا اسمح لأحد منهم بزيارة قاطرينا او ابنها ساباتيه بن ارابيشـا الا حين يئين الأوان لهذه الزيارات .

* * *

هذا مـا أحببت أن اهديه الى الشيخين الجليلين من حياة ديكارت ، وانا اعتمد على ذكائهما في فهم فلسفته

من هذا الفصل فللرجل نوعان من الفلسفة : أحدهما سخيف ضعيف هو الذى اعتمدت عليه في كتاب الشعر الجاهلي، لأني لست من أهل التصوف ولا القادريـن على الشطح والنطح ، والآخر قيم ممتع خصب لذيذ يلتمس في كتب الحلاج ومحيي الدين بن العربي ، وفي كتاب الدياربي وشمس المعارف الكبرى وفي رسالة صغيرة توجد في مكتبة الاستاذ الجليل احمد زكي باشا بقسم المخطوطات يقال لهـا «دومة في نومة» .

* * *

أما بعد فإني اقسم لصاحب المعالي وزير المعارف ، ولوكيلها وسكرتيرها العام ، واعضاء مكتبهـا الفني ، ولناظر دار العلوم واساتذتها وطلابها لو سُئل تلميذ أوروبي عن ديكارت في امتحان الشهادة الثانوية وجهله كما يجهله اساتذة هذه المدرسة العالية لحيل بينه وبين الشهادة التي يطلبها ، واذن فأنا اقترح عليهم احد امرين ؟ إما ان يكلفوا احد العلمـاء بإلقاء محـاضرات في تاريخ الفلسفـة للأساتذة وللشيوخ منهم بنوع خاص ليستطيعوا ان يكونوا أدباء وأن يلموا «من كل شيء بطرف» واما ان يأخذوا هذا الفصل الذي اكتبه ملخصاً فينشروه ويأخذوا الاساتذة والطلاب بقراءته وفهمه فليس ينبغي ان يكون في مدارسنا العالية استاذ او طالب يجهل اسم ديكارت او فلسفته او أثره في هذا العصر الحديث .

محتويات الكتاب

	صفحة
مقدمة	٥
القسم الأول : من باريس	٩
القسم الثاني : أسبوع في بلجيكا	٦١
القسم الثالث : خواطر سائح	١٣٩
القسم الرابع : بين العلم والدين	٢٠٥
القسم الخامس : بين الجد والهزل	٢٥٥

للمؤلف

		ق . ل
مرآة الضمير	الطبعة الثالثة	٢٠٠
بين بين	الطبعة الثالثة	٢٠٠
خصام ونقد	الطبعة الثالثة	٣٠٠
نقد وإصلاح	الطبعة الثالثة	٣٠٠
أحاديث	الطبعة الثانية	٢٠٠
رحلة الربيع والصيف		٢٥٠
من لغو الصيف		٢٥٠
من أدب التمثيل الغربي		٢٥٠
المعذّبون في الأرض		٢٠٠

جواد ـ الغابوز

حارة حريك لبنان

للمؤلف

- كتب ومؤلفون
- مرآة الضمير الحديث
- خصام ونقد
- بين بين
- نقد وإصلاح
- أحاديث
- من بعيد
- قادة الفكر
- جنة الحيوان
- خواطر
- تقليد وتجديد

- كلمات
- المعذبون في الأرض
- من أدب التمثيل الغربي
- رحلة الربيع والصيف
- من لغو الصيف
- من لغو الصيف إلى جد الشتاء
- قصص تمثيلية
- القدر
- من الأدب التمثيلي اليوناني
- أوديب - ثيسوس
- من تاريخ الأدب العربي



